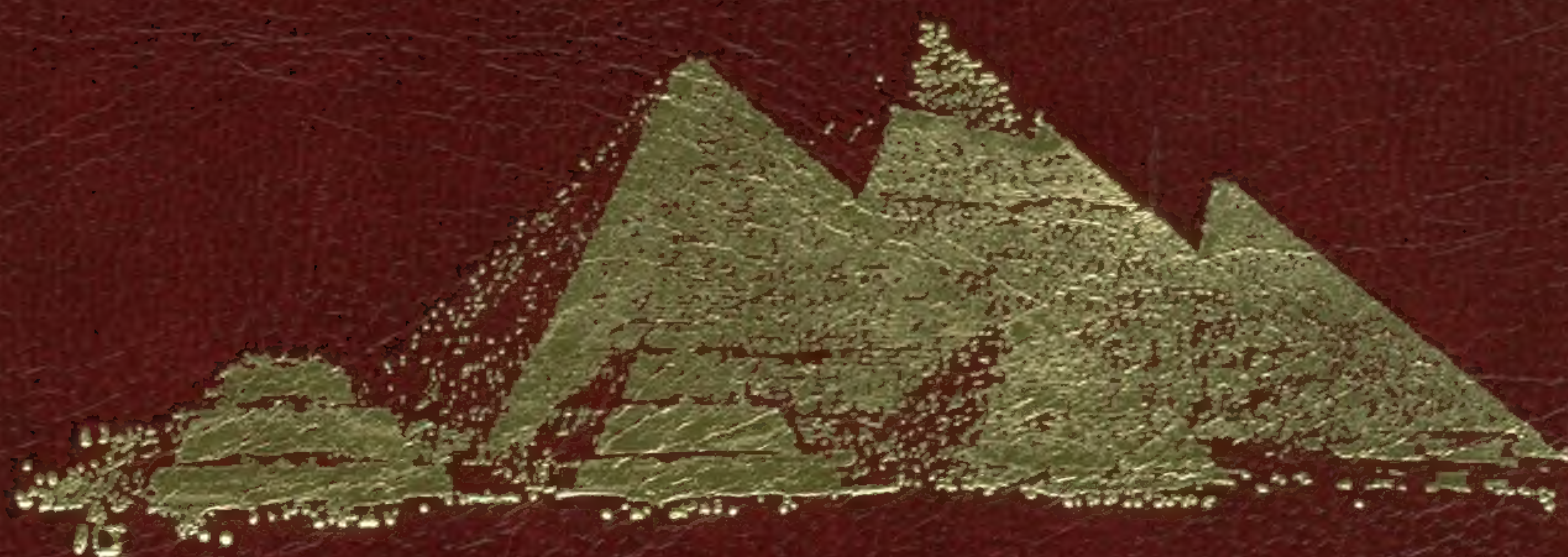
موسوعة

تاريخ مصر





موسوعة

التاريخ المصري

(٢٧)

المستر جورج يانج

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد السابع والعشرون

تاريخ مصر

من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل - ١ -

تعريب

علي أحمد شكري

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــــاب:	تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ـ ١ ـ
اسم المؤلـــف:	المستر جورج يانج
تعريـــــــب:	علي أحمد شكري
قياس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	١٧٦
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتــف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9



الملك فؤاد الأول ملك مصر



الأمير فاروق أمير الصعيد



محمد على باشا مؤسس الأسرة المحمدية العلوية
بملابسه المصنوعة فى مصر



بطل حزوب الاستقلال ابراهيم باشا
فى لباسه العسكرى



الخديو اسماعيل باشا



السلطان حسين كامل

مصر

من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل

مقدمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله الأمين من بعث بالحق وفصل الخطاب وعلى آله وأصحابه أجمعين . وبعد فقد كثرت الكتب التى تعالج المسألة المصرية من بعض نواحيها . وهذا الاكثار دليل على أن تاريخ مصر مايزال موضع اهتمام العالم فى الخارج وهو فى نظرنا علامة طيبة . لأن الاهتمام بقضيتنا يفيدنا كثيرا إذ أنه يذكر الرأى العام فى البلاد المتمدينة بأن هناك أمة عريقة على ضفاف النيل تنشد الحرية والاستقلال شعارها « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » لا تبغى الاعتداء على أحد من جيرانها كما أنها تنتظر منهم ألا يتطلعوا إلى الاعتداء عليها ، أمة وادعة تريد التخلص من قيودها لتأخذ مكانها بين الأمم الأخرى ولتكون همزة وصل بين مصر الفراعنة ومصر القرن العشرين .

وفضلا عن تنوير الأذهان فى الخارج فان للتاريخ أهمية أخرى تزيد عن هذه بأضعاف فهو من الأمة بمثابة المرآة يبصر فيها الانسان ماقطعته أمته فى الماضى من شتى المراحل وماطرأ عليها من التطورات كما أنه درس يتعلم منه الانسان

كيف يعد للمستقبل عدته مع اتقاء مواطن الزلل واجتناب العثرات. ومن هنا كانت دراسة التاريخ حافزة للهمم الراكدة. ومن هنا أيضاً ترى اعتزاز الشعوب العريقة بتاريخها وحرصها على تعليمه الأبناء والأحفاد.

ولن تجد أمة ضربت بسهم فى المدنية والحضارة إلا منكبة على دراسة تاريخها جيلا جيلا وتكشف غوامضه مرحلة مرحلة إلى اليوم الذى تعيش فيه. وبعكس هذا ترى الأمم المتأخرة قانعة بترديد مفاخر الأسلاف مستكنة إلى مجدها التالد.

فالاهتمام بالتاريخ فى أمة من الامم هو إذن دليل رقيها ورمز نهضتها وباعث همتها. ويدخل فى هذا طبعا العناية بنشر هذا التاريخ فى داخل البلاد وخارجها.

اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر

ونحسب أن جلالة الملك كان يؤمن بهذه العقيدة حتى قبل تبوؤ العرش. ولذا صرح مرة وهو بعد أمير بتلك الجملة الذهبية الخالدة وهى:

« إن مجدنا الماضى وتقاليدنا المقدسة مما يشجعنا على السير ببلادنا فى وقت نهضتها الجديدة فى طريق الكمال البشرى الذى كان يبدو من خلال سلسلة جهود الأمم ومن مغامرات الفلاسفة فى كل عصر وفى كل موطن ومنذ عهد ارسطاطاليس إلى أيام ليو تولستوى - بأنه الحلم الذهبى الذى علقت به القرون التى يخطئها العد أو المنار القائم وسط الأفق الأسمى للجنس البشرى.»

وقال سموه فى موطن آخر:

« متى حرصت الأمة على تنمية شعور الأجلال نحو أسلافها والأكبار من أعمال أبطالها تستطيع أن تتعلم سر مستقبلها وتقدره حق قدره لأنها تكون وقتئذ قد وصلت إلى أسمى مراتب المدنية. »

ومن هنا كان اهتمام جلالة الملك فؤاد بتاريخ مصر منذ أقدم العصور

وتشجيعه لبعض العلماء الذين يقومون بكتابة ذلك التاريخ. ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بك بعيدا فى هذه الناحية. فلقد سمعت أن جلالته كلف المسيو هانوتو - وزير خارجية فرنسا سابقا - بكتابة تاريخ مصر منذ بدء الخليقة إلى العصر الحاضر فى سبعة مجلدات وقد أخرج فعلا الأجزاء الثلاثة الأول وأصبح الباقى وشيك الظهور.

ثم كتاب «الوجيز فى تاريخ مصر» ويشمل تاريخ مصر القديم إلى نهاية حكم اسماعيل باشا ويقع فى أربعة أجزاء ظهر منها ثلاثة إلى الآن.

وكتاب «الفن المصرى فى عصور التاريخ» الذى قامت لجنة باشراف السير دنيسن روس باخراجه بايعاز وتعضيد جلالة الملك.

هذا فيما يختص بتاريخ مصر العام. ولكن الأمم المتحضرة كما قلنا تعنى بتاريخها إلى اليوم الذى تعيش فيه. وهذه الحقيقة لم تفت جلالة الملك. فان ظهور محمد على باشا يعتبر مرحلة فاصلة فى تاريخ مصر أو هو حقا بمثابة نقطة التحول من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث. لذلك أولاه جلالته ما يستحقه من العناية والاهتمام.

ومن هنا ترى جلالته لا يستكثر نفقة ولا يستعظم مجهودا فى سبيل جمع شتات الوثائق والمستندات الخاصة بعهد محمد على وما تلاه من العهود إلى اليوم. ونحسب أنك سوف تدهش إذا سمعت بما يبذله جلالته فى هذه الناحية من جهود ونفقات وهو بعد الربان الذى لا يتسع له الوقت ولا يستطيع أن يغفل لحظة واحدة عن ملاحظة دفة سفينة الدولة خشية ارتطامها بالصخور والشعاب.

وعلى سبيل التدليل - لا على سبيل الحصر - نقص عليك طرفا من هذه الجهود الجبارة لتدرك أه[illegible] الذى يقوم به أبو الفاروق.

فالوثائق والمعلومات الخاصة بمصر منذ عهد محمد على إلى نهاية حكم

اسماعيل موزعة بين لندن وباريس وايطاليا وفينا ووشنطن ووارصوفيا وبتروغراد وآثينا عدا ما هو موجود منها بمصر . فهل تظن أن جلالته تراجع أمام مايقتضيه الحصول على تلك المستندات من جهود ونفقات ؟ كلا وربك .

بل عهد إلى المسيو دوان من كبار مديرى شركة قناة السويس بجمع الوثائق بين لندن وباريس وتبويبها وطبعها على نفقة الجيب الخاص . وقد وفق المسيو دوان فى مهمته وحصل على كافة المستندات ونشرت الجمعية الجغرافية بعضها وسيظهر قريبا باقيها .

ولم يكتف المسيو دوان المذكور بهذا المجهود بل وضع كتابا عن تاريخ اسماعيل فى خمسة أجزاء وهو تحت الطبع فى ايطاليا وقد ظهر منه الجزء الأول .

ثم عهد إلى السنيور أنجلوسان ماركو من أساتذة التاريخ فى المدارس الأيطالية بجمع المستندات الموجودة فى ايطاليا وهى تقتضى مجهودات خاصة لانقسام الدولة الأيطالية وقتئذ إلى عدة دويلات صغيرة لكل منها دار محفوظاتها ولأن هذه الدور لم تتحد بعد فى دار واحدة . ولذا كانت الصعوبة فى الحصول على تلك المستندات مما يفوق التصور .

وبرغم هذه المصاعب فان الأستاذ سان ماركو قد وفق إلى جمع هذه الوثائق وطبع منها إلى اليوم حوالى خمسة أو ستة مجلدات ولايزال باقيها تحت الطبع . وهو جاد فى الحصول على محفوظات النمسا .

ووثائق وشنطن وقد نسخت فى نحو ٢٠ مجلد وتشمل كل ما كتب عن مصر منذ عهد محمد على إلى نهاية عهد اسماعيل .

ثم وثائق بولونيا ويقوم بجمعها بايعاز جلالته أحد كبار الأخصائيين وتشمل الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٣٣ — ١٨٣٦ وهى الفترة التى

نشبت فيها الحرب السورية ووقع فيها اختيار محمد على على بعض كبار الضباط البوا ونيين لتدريب جيشه .

والوثائق الروسية ويقوم بجمعها رينيه قطاوى بك مدير عام شركة كوم امبو .

ووثائق آثينا وقد شرع المسيو انسطاس بوليتيس من رجال السلك السياسى اليونانى فى طبعها .

وعدا هذا كله توجد مجموعة كتب تاريخية ورسائل قيمة وضعها أعلام التاريخ خاصة بمصر وطبعتها الجمعية الجغرافية على حساب الجيب الملكى الخاص نذكر منها على سبيل المثال (١) كتاب « ميناء السويس » لمؤلفه المسيو جونديه (٢) «وأطلس تاريخى خاص بمدينة اسكندرية وميناها » للمؤلف السابق (٣) « وعمارة نابليون البحرية فى شواطىء مصر » بقلم المسيو دوان (٤) « وصحراء مصر الشرقية — أو من النيل إلى البحر الأحمر » بقلم المسيو ريموندى (٥) « واكتشاف افريقيا فى العصور الوسطى » لمؤلفه المسيو دى لارونسيير الخ الخ . عدا سلسلة كتب قيمة أخرى خاصة بأهم ما وقع من الأحداث فى عهد ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير وكلها قد طبعت على نفقات الجيب الخاص .

وزيارة واحدة يقوم بها الباحث إلى إدارة المحفوظات بالسراى الملكية تبين له الحركة الدائمة فى جمع وترتيب شتى المستندات والوثائق التاريخية الخاصة بمصر وهى حركة تستمد الهمة والنشاط من جلالته رأسا .

وليس شك فى أن هذه المجهودات تنطق عن نفسها بنفسها . وإنه لما يثلج صدر المصرى أن يرى كل هذا الاهتمام بتاريخ مصر من جلالة صاحب العرش .

وإذا كان جلالته قد سن لشعبه هذه السنة الطيبة فلا أقل من أن يقتدى الكتاب بمثله السامى وأن يعنوا على الأقل بنقل مايدونه أعلام

المؤرخين الأجانب عن مصر . ومن هنا اتجهت نيتنا إلى ترجمة كتاب المستر يانج الذى وإن كان قد توخى إنصاف المصريين كأمة ، إلا أنه قد أثار غبار الجدل حول عدة مسائل بعضها دينى وبعضها سياسى وكان فى كلا الحالين يصدر عن رأى غير ناضج يتأثر بظواهر الأشياء وقشورها دون العناية باللباب أو تحرى بواطن الأمور .

وكما أنك لا تستطيع استيعاب الصورة من كافة نواحيها وتقدير ماأودعه فيها الفنان من معجزات الفن إلا إذا تراجعت عنها إلى الوراء قليلا كذلك ليس يسعك الحكم على الحوادث التاريخية حكما صحيحا مجردا من التحيز والهوى أو أن تربط الأسباب بمسبباتها والعلل بمعلولاتها إلا إذا باعد الزمن بينك وبينها حتى يتلاشى أو يخف — على الأقل — تأثرك بها . هنالك — وهنالك فقط — يمكن اعتبار حكمك على الأشياء حكما نزيها بعيدا عن الغايات .

ويدخل فى هذه الملاحظة ماتواضع عليه أعلام المؤرخين إلى يومنا هذا وهو ألا يكتب تاريخ الأمم فى حياة الأشخاص الذين قاموا بالأدوار الرئيسية فيه . وإلا كان المؤرخ فى أغلب الأحيان واقعاً تحت تأثير أولئك الأشخاص فيكون حكمه عليهم غير حكمه مالو انتظر حتى يصبحوا فى ذمة التاريخ .

ولعل الحكمة فى ذلك أن هناك أسرارا خطيرة تكتنف حياة أبطال الرواية وتلقى ضوءاً باهراً على أعمالهم وتصرفاتهم ويغلب ألا ترى ضوء النهار إلا بعد انتقالهم إلى الدار الأخرى . ومن هنا كان تواضع المؤرخين على ألا ينشروا تاريخ أمة معاصرة إلا بعد أن يصبح أبطال الرواية فيها فى ذمة التاريخ وبعد أن تصبح المستندات والوثائق الخطيرة فى متناول الأيدى وبذا تجتمع لديهم المادة التى يستطيعون بالاعتماد

عليها ان يمضوا فى سرد تاريخ تلك الأمة وهم عالمون أنهم يكتبونه بالطريقة النزيهة التى ينبغى أن يكتب بها .

ولكن صاحبنا المستر يانج حاول لسوء الحظ تخطى ما اصطلح عليه جمهرة المؤرخين وأن يكتب تاريخ مصر فى أثناء حياة أبطال الرواية ولذا لم يأمن الشطط والوقوع فى الخطأ فى أكثر من موضع وبخاصة فى تاريخ مصر منذ نشوب الحرب العالمية .

ولقد كانت النية متجهة فى بداية الأمر إلى إخراج ترجمة كتابه جملة واحدة ولكنا عند مارأينا أن معظم ما كتبه فى السنوات التى تلت نشوب الحرب فضلا عن أنه حديث العهد وحاضر فى الأذهان فهو مشوش وينقصه الائتناس بالمستندات والشواهد التى لم تكن فى متناول المؤلف عند ماوضع كتابه .

لهذا رأينا أن نكتفى بذكر ماأورده عن أمراء مصر إلى نهاية عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا . لكن لما كان ماأورده خاصا بعهد منشىء مصر الحديثة الحاج محمد على باشا الكبير وعهد حفيده اسماعيل باشا فى حاجة إلى شيء من الأسهاب رأينا أن نضيف اليه من الحواشى المتضمنه من المعلومات القيمة ماهو كفيل بأن يملأ كل مصرى فخرا ويجعله يتيه إعجابا بتاريخ هذه الأسرة العلوية المجيدة التى اصطفتها العناية الآلهية لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

ونسارع إلى الاعتراف بأن هذه الحواشى لم يكن لنا أى فضل إلا فى اقتباسها عن المصادر التى أشرنا إليها فى السياق . فهى ليست من عندنا . وقد أوردناها لتكون أكثر دلالة وأبعد أثراً فى الأقناع على صحة نظريتنا عما لو اكتفينا بسرد أقوالنا وحدها .

نظرة إجمالية فى تاريخ مصر

كأنما اختصت العناية السماوية الأسرة المحمدية العلوية بتلك المهمة النبيلة النشانة مهمة الانتقال بمصر من مجرد ولاية تركية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة . ويظهر أن هذه المهمة قد حرص على الاضطلاع بها الأبناء والأحفاد بعد الأجداد والآباء .

محمد على باشا

فلقد ظهر ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير على المسرح السياسى ومصر عبارة عن إحدى ولايات الأمبراطورية العثمانية فما لبث أن ولى وجهه شطر العمل على استقلالها وتوسيع حدودها وانتزاع هذا الاستقلال على ظبي السيوف . وما كانت حروبه فى الشام وبلاد العرب والسودان إلا تمهيداً لهذه الغاية النبيلة ولئن كانت الدول الأوربية قد تألبت عليه فى موقعة نافارين كما تألبت عليه بعد حروب الشام وأبت إلا حرمانه من جنى ثمار انتصاراته التى اهتزت لها أوربا فان ذلك لم يمنعه من أن ينال لمصر استقلالها الداخلى مع بقاء السيادة العثمانية الأسمية بمقتضى معاهدة لندن المعقودة فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠

ونظرة واحدة إلى صرامة الشروط الواردة فى تلك المعاهدة تقنعك بما تنطوى عليه من ميل إلى الانتقام من هذا الرجل العظيم الذى أقضت حركاته مضجع أوربا وجعلتها تتربص به الفرص للتخلص من نفوذه المتغلغل فى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

ويأبى سوء الحظ إلا أن يرفض محمد على هذه المعاهدة ارتكاناً إلى مساعدة فرنسا . ولو قبلها برغم ما انطوت عليه من الأجحاف لفاز بحكم سوريا مدة حياته ولوفر على الجيش المصرى المرابط فى الشام ما تكبده

من الخسائر المادية والمعنوية الفادحة بسبب استئناف القتال لا بين مصر وتركيا بل بينها وبين تركيا وحلفائها.

وعلى كل فقد تم الاتفاق فيما بعد بين محمد على وبين الكومندور نابيير الأنجليزى على الانسحاب من سوريا ورد الأسطول التركى إلى الباب العالى وإخلاء أدنة وبلاد العرب وكريت فى مقابل تخويل محمد على ملك مصر الوراثى بضمانة الدول.

وقد تشبثت تركيا بطلب خلع محمد على بسبب انقضاء المهلة المشار إليها فى المادتين الأولى والثانية من معاهدة لندن وشجعها فى تشبثها هذا لورد بونسونبى سفير بريطانيا فى الاستانة ولكن اللورد بالمرستون وزير الخارجية رأى أن يفض الأزمة باجازة الاتفاق الذى توصل إليه الكومندور نابيير.

اسماعيل باشا

وكأنما أراد اسماعيل أن يحذو حذو جده العظيم فى الوصول بمصر إلى دولة مستقلة ذات سيادة بعد أن وقفت بها الخطى فى عهد عباس وسعيد.

ولكنه وإن اتحد مع جده فى الغاية إلا أنه اختلف عنه فى الأسلوب والوسيلة. فلقد أراد أن يجرب حظه لقطع الصلة التى تربط بلاده بتركيا وإعلان استقلال مصر فى أثناء الاحتفال بافتتاح قناة السويس. وفى سبيل هذه الغاية ابتاع المدافع والبنادق وسائر معدات القتال ليدافع عن مصر إذا ماهاجمتها تركيا. وفى سبيلها أيضاً تجاوز عدد الجيش الحدود المنصوص عليها فى الفرمانات السابقة فأصبح ١٨٠٫٠٠٠ بعد أن كان ١٨٫٠٠٠ كل ذلك ليكون على قدم الاستعداد إذا حزب الأمر. وإذ رأى أن الجو السياسى لايساعد على تحقيق أمنيته أيقن — وهو ذلك الرجل العملى العظيم — أن محاولة انتزاع استقلال مصر من تركيا بحد الحسام مع ما تقتضيه هذه المحاولة من التضحيات المادية والمعنوية تعتبر خاسرة حتما.

ولم يفته الدرس القاسى الذى تعلمه جده العظيم محمد على عند ما تألبت عليه أوربا وحرمته ثمرات انتصاراته . فرآى أن يلجا إلى ماهو أقل كلفة من ضياع الأرواح ألا وهو المال باعتباره أخف الأمرين هذا فضلا عن أن لغته أشد فعلا فى النفوس وأدنى للنجاح من لغة الحسام والمدفع .

فراح ينفق المال كما قرره المسيو دى فريسينيه لاستخلاص حقوق مصر عن طريق الفرمانات . ولم يكن الطامعون فى أمواله قاصرين على رجال الاستانة من السلطان فما دونه كلا بل كان كثير من ساسة الدول الأوربية وكبار رجال صحافتها لا يتحركون خطوة فى سبيل المرافقة على رد بعض الحقوق إلى مصر إلا إذا تذوقوا الشهد من بين أصابع اسماعيل وأجزل لهم العطاء .

ولطالما أنفق رسوله فى الاستانة ابراهام بك الأرمنى آلاف الجنيهات فى سد أبواب الدسائس ضد اسماعيل بسبب نظام الوراثة المتبع وقتذاك وفى سبيل حمل الدول وتركيا على إصلاح النظام القضائى فى مصر وإنشاء المحاكم المختلطة التى تعد فى طليعة مفاخر العهد الأسماعيلى . لأنها تحقق أمنية طالما طمحت إليها نفس اسماعيل وهى أن تتولى الفصل فى المنازعات بين رعايا الدول الأجنبية الموجودين فى مصر محاكم مصرية تحكم باسم أمير البلاد .

بل إن الحفلات الرائعة التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس وما أنفق فى خلالها من النفقات تعتبر قبل كل شىء بمثابة « هدية » قدمها اسماعيل لأصحاب التيجان ليضمهم إلى جانبه في جهاده المتواصل لتحقيق استقلال مصر .

وليس يستطيع من يستعرض عهد اسماعيل الزاهر أن يمر سراعا دون أن يقف برهة أمام تلك السحابة المظلمة التى حاول خصوم ذلك الرجل العظيم أن تظل متجمعة فى الأفق حول اسمه وهى خاصة بالديون

أو القروض التي قالوا إنه اقترضها فأنفقها فى أى شىء ؟ فى إشباع شهواته !!

ولكن إذا كانت دولة الباطل ساعة فان دولة الحق إلى قيام الساعة. ذلك أن ما افتراه خصوم اسماعيل خاصاً بهذه القروض أخذ يذوب الآن ذوبان الجليد تحت أشعة الشمس بما يتكشف للعالم كل يوم من بطون المحفوظات والسجلات التى كانت مجهولة لدى جمهرة الكتاب الذين حملوا حملتهم المغرضة على اسماعيل اعتماداً على الأوهام والاستنتاجات الخاطئة دون أن يدعموا اتهاماتهم بالأدلة والبراهين.

ولقد أغرق المغرضون من كتاب الأفرنج فى الطعن على اسماعيل وتشويه سمعته وتسميم عقول المصريين من ناحيته حتى أصبحت أية محاولة من كاتب مصرى كصاحب هذه السطور لنقض ماعلق حول اسم ذلك الخديو من الأباطيل تقابل بالاستغراب والدهشة بل ويعتبر البعض مثل هذه المحاولة بمثابة عمل جرىء يقوم به الأنسان ضد التاريخ !! كأنما ينبغى أن يعتبر مانسجه كتاب الأفرنج من الترهات حول اسم اسماعيل حقيقة تاريخية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها !!

ولكننا رأينا بعد طول البحث والتقصى أن هذا الخديو كان مظلوما حقا وأن التاريخ لم ينصفه مطلقا. وإذا كان كتاب الأفرنج قد أوسعوه النقد ظلما وعدوانا فلاأقل من أن يتسع صدر القراء الكرام لتتبع ما أوردناه فى هذا الكتاب خاصا باسماعيل — وكثير منه لم يطلع عليه قراء العربية قبل الآن — ليتبينوا مبلغ ما أصاب خديوهم المعظم من حيف وإذن يصبح اسماعيل موضع فخارهم وإعجابهم باعتباره الرجل الذى حاول فى سنوات قلائل أن يجعل مصر قطعة من أوربا.

وإذا كان ما أوردناه فى هذا الجزء بأكمله عن اسماعيل لايعتبر فى الواقع إلاتاريخا موجزا فمن المعقول ألا تتسع هذه الكلمة لتفصيل

إصلاحاته المتشعبة التى ماتزال مصر مدينة له بها إلى اليوم .

ولعل أسوأ ما أصاب البلاد بعد أن أولاها اسماعيل ظهره هو الثورة العرابية التى لا نبالغ إذا قلنا إنها ربما كانت لا تقع لو ظل اسماعيل على عرش مصر . لأنه بفضل ما حبته به الطبيعة من إصالة الرأى وبعد النظر والقدرة على تصريف الأمور تصريفا عمليا كان جديراً بان لا يدع أسبابها تنزلق فى الطريق الذى أدى بالبلاد إلى الهاوية الخطرة فى النهاية بل لاستطاع إزالة أسباب التذمر أولا بأول ولكان أجدر على تسيير الحوادث فى غير الاتجاه الذى اتجهت فيه وانتهت بما انتهت إليه من النتائج المحزنة التى مازلنا نعانى كربها إلى اليوم .

جلالة الملك فؤاد

ولقد كان نشوب الحرب العالمية الماضية مرحلة من مراحل الانتقال فى تاريخ مصر . وإذا كانت هذه المرحلة قد امتازت بظهور القومية المصرية بمظهرها الرائع فانها كذلك امتازت بظهور الربان الأعظم الذى تسلم الدفة فى وقت قامت فيه الأعاصير الهوجاء حول السفينة وكادت تدفعها إلى الارتطام بالصخور القائمة فى طريقها . هذا الربان الماهر لا تغمض له جفن بينما الآخرون نيام ولا يفتأ يرقب السماء بلا ضجر ولا ملل ليتبين ما عسى أن تخطه يد القدر فى أفق مصر مما فيه الخير والأسعاد لهذا البلد الأمين .

هذا الربان هو جلالة الملك فؤاد الأول الذى حمل الراية بعد أبيه العظيم وسار مترسماً خطواته وخطوات جده الكبير فى سبيل الانتقال بمصر من مجرد ولاية تركية ممتازة إلى دوله مستقلة ذات سيادة .

ولسنا نذكر إلا الواقع إذا قلنا إنه كم من مرة اكفهر فيها جو السياسة

المصرية وعصفت بالبلاد العواصف فلم تجد الأمة من تشخص إليه بابصارها ليخرج بها من الظلمات إلى النور سوى سيد البلاد وملاذها الأسمى جلالة الملك فؤاد .

وسل العارفين ببواطن الأمور ينبؤوك بحديث تلك العواصف مما لم يتصل نبأه بالجمهور وكيف ساعد الربان على دفع الضر وكشف المكروه دون أن يأخذ لنفسه ولو نصيبا ضئيلا من فخر تخليص البلاد من المحنة وفى هذا المثل الأعلى على إنكار النفس .

بعض أعمال جلالة المليك

ولسنا نحسبها بمجرد صدفة أن الملك فؤاد يترسم خطوات أبيه فى كل ما من شأنه رفع مصر . فكما كان هم اسماعيل أن يجعلها موضع نظر العالم فى الخارج والداخل مما أشرنا اليه فى سياق الكتاب إذا بعاهلها الحالى يحرص على أن تكون ممثلة خير تمثيل فى الخارج مع جعلها تتجلى كالعروس ليلة الزفاف فى الداخل . وليست المفوضيات السياسية والمؤتمرات الدولية العديدة التى اشتركت وتشترك مصر فيها بل وليست رحلات جلالة الملك فى أوربا — نقول ليس هذا كله سوى إعلان عن مصر أمام العالم المتمدين ومحاولة حميدة لافهام أمم الأرض طرا أن مصر فؤاد هى سليلة مصر الفراعنة .

فأينما أدار الانسان بصره وجد آثار المليك . ولا تكاد تسير فى ناحية من نواحى الحياة فى مصر إلا وجدت طابع فؤاد عليها كأنما كان يقيم الدليل العملى على تصريحه وهو بعد أمير للمسيو بيرتى مارت بمكاتب جريدة جيل بلاس « ليس شيئاً أن تكون أميراً بل الشىء الكثير أن تكون نافعا . »

ولا نخالك تطالبنا بأن نسرد عليك فى صفحات معدودة أعمال المليك قبل اعتلائه الأريكة المصرية وبعدها لأنها خليقة بمجلد ضخم . ولكننا لانرى محيصا من إلقاء نظرة عاجلة عليها للتذكير والعظة .

فمن ذا الذى لم يسمع «بالأمير» فؤاد وولعه ـ حتى قبل اعتلائه العرش ـ بما يفيد البلاد من الناحية العلمية . وإذا ذكرنا تاريخه فى هذه الناحية كانت الجامعة المصرية أول مايواجه الباحث فى حياة ذلك « الأمير » النشيط .

فكلنا نعرف الحركة القومية التى كانت ترمى فى سنة ١٩٠٦ إلى انشاء جامعة أهلية لسد ظمأ البلاد وتعطشها إلى العلم . وإنما جأرت الأمة بطلب جامعة أهلية لتكون بعيدة عن تأثير سياسة التعليم التى كانت قاصرة وقتذاك على تعليم النشء القشور دون اللباب .

فما كادت الفكرة أن تختمر حتى اتجهت الأنظار إلى اختيار « الأمير » فؤاد لرآسة المشروع كضمان لاستمرار سيل التبرعات لأنشاء هذا المعهد القومى . ونحسب أن التوفيق فى اختيار « سموه » لهذا المنصب العلمى كان بمثابة ضمان للسير بالمشروع إلى نهايته الطبيعية حتى أينع وأصبحت قطوفه دانية وصارت البلاد الآن تتفيأ ظلاله فى عهد أبى الفاروق .

فلقد ظل « الأمير » فؤاد رئيسا للجامعة إلى سنة ١٩١٣ حيث كاد عرش ألبانيا أن يظفر بسموه لولا أن قدر الله لمصر أن يظل لها أميرها ليلعب دوره المهم فى مستقبلها السياسى .

وحكاية الانتقال بالجامعة من مرتبتها المتواضعة السابقة إلى مكانتها المزدهرة الحاضرة منذ جلوس جلالة الملك فؤاد على العرش قريبة العهد بنا بحيث نستطيع الاكتفاء بنظرة عاجلة نلقيها عليها قبل الانتقال إلى سرد أعمال جلالته الأخرى.

ففى ١١ مارس سنة ١٩٢٥ عنى جلالته بتوسيع نظام الجامعة وجعلها معهدا أميريا ليكفل لها الحياة الطيبة . ثم تفرع عن الجامعة أقسام أربعة

أو كليات اربع وهى كليات الآداب والعلوم والقانون والطب

وفى سنة ١٩٢٧ تم تنظيم الجامعة نهائيا واحتفل فى العام التالى بوضع الحجر الأساسى لبنائها الحاضر فى الجيزة.

ولا يفتأ جلالته يعنى بأمرها ويتعهدها برعايته حتى أصبحت وهى أحدث الجامعات عهدا تعد فى طليعتها قدراً.

وإلى جانب الجامعة تجد الجمعية الجغرافية التى أنشأها اسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٥ وكان أهم أغراضها ارتياد القارة الأفريقية واكتشافها. فلقد كادت هذه الجمعية أن تصبح فى عالم النسيان فى سنة ١٩١٤ لولا أن تداركها الأمير فؤاد فنفخ فيها من روحه وأنشأها نشأة أخرى.

ومعهد الأحياء المائية الذى ابتكره فى سنة ١٩١٢ وجمعية الاقتصاد السياسى وهو واضع برنامجها ثم جمعية مقاومة الحشرات والجمعية الملكية لعلم أوراق البردى ومشروع معهد الصحراء الذى بدأ ينهض الآن رويدا رويدا وتم بناؤه فى ضاحية هليوبوليس، كل هذه المعاهد تنطق بما لجلالته من يد بيضاء عليها.

وإذا انتقلنا إلى المعارف العمومية وفضل المليك عليها رأينا العجب العجاب. فلقد كان أول ما اتجهت إليه العناية الملكية تعميم التعليم الابتدائى وجعله إلزاميا ومجانا. وهى نعمة ستذكرها الأجيال المقبلة لفؤاد الأول بالحمد والثناء وحسبك أنها تؤدى إلى القضاء على الأمية فى وادى النيل.

وكما عنى محمد على الكبير بارسال البعثات إلى الخارج فقد أولاها الملك عنايته أيضاً حتى أصبح لكل وزارة أو مصلحة من مصالح الحكومة بعثة فى الخارج. كذلك اقتدى بجده الأعظم فى إنشاء مدرسة للبحرية هى المدرسة الفاروقية.

وقد تدهش عندما تعلم أن عدداً عديدا من رجال البعثات تدفع نفقاتهم من الجيب الملكى الخاص

وما دمنا بصدد المعارف العمومية فلا بد من الوقوف هنيهة لأنعام النظر فيما تقوم به إدارة الأوقاف الملكية فى هذه الناحية وما تسنه فى مدارسها من سنن صالحة سوف تبقى غرة ناصعة فى جبين نظام التعليم فى الجيل الحاضر .

فنظرا لأن هذه المدارس منسوبة إلى جلالته فقد شاءت إرادته أن تكون المثل الأعلى بين كافة مدارس القطر لافرق في ذلك بين المدارس الأميرية أو الأهلية وأن يتضمن برنامجها بين مايتضمنه تعليم طلبتها اللغة الفرنسية وعلم الأخلاق فكانوا بذلك أسبق طلبة مدارس القطر إلى تعلم هاتين المادتين .

وتحقيقا لرغائب جلالة المليك عنيت الأوقاف الملكية بفتح عدة مدارس أخرى منها مدرسة ثانوية وهى مدرسة الخديو اسماعيل الملكية وقد افتتحت بعد ارتقاء عظمة « السلطان » فؤاد الأريكة باشهر (سبتمبر سنة ١٩١٨)

وناحية طريفة تدل على اهتمام المليك بكل شىء مما لم يسبقه إليه أمير آخر هى اهتمامه بالخط العربى وتحسينه . ولذا انشأ مدرستين لتعليمه كما أمر بادخال حروف التاج فى المدارس والمصالح الأميرية . وفى نهاية سنة ١٩٢٥ أمر بتعليم الطلبة فى المدرستين الأخيرتين فن التذهيب .

ولمدارس الأوقاف الملكية بعثاتها فى الخارج كما لها فرقها الكشافة التى أصبحت ثلاثاً . ولعله يدهشك أن تعلم أن أول فرقة كشافة قامت فى مصر هى التى أنشئت فى سنة ١٩١٨ فى مدرسة الخديو اسماعيل الثانوية بايعاز جلالته كما أنشئت فرق كشافة أخرى فى جميع مدارس الديوان وفرقة للمرشدات والزهرات بمدرسة البنات . وتمتاز هذه المدارس بحسن نظامها ودقة إدارتها . وحسبك دليلا على اهتمام سيد البلاد بالكشافة برغم كثرة شواغله الأخرى أن أصبح سمو أمير الصعيد كشاف مصر الأعظم

ولهذا الاختيار مغزاه الخطير كما لا يخفى .

وما فتئت إدارة الأوقاف الملكية تعنى بشؤون التعليم حتى بلغ ماتحت اشرافها من المدارس مايأتى :

مدرستان ثانويتان وأربع ابتدائية للأولاد وواحدة للبنات وواحدة لتحسين الخطوط الملكية وقسم لتحفيظ القرآن الكريم.

وبعد أن كان عددالطلبة فى جميع هذهالمدارس ٢٠٢١ فى سنة ١٩٢٢ إذا به يرتفع إلى ٣٤٦٩ فى سنة ١٩٣١ . وكأن هذه الجهود الجبارة وما تتطلبه من نفقات هائلة تقوم بها إدارة الأوقاف الملكية لم تكف فى إشباع رغبة أبى الفاروق فى تعليم أبناء شعبه فرأى أن يقرب مناهله من أبناء الطبقة الدنيا ولذا ترى نسبة المجانية بلغت فى سنة ١٩٣١ فى مدارس الديوان ٣٩ ٪

ولعل مما تقر له عين جلالته أن يرى هذه النفقات الهائلة تؤتى ثمرها. فان المدارس المذكورة برغم حداثة عهدها كانت نتيجتها الأولى فى معظم السنوات فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية بقسميها لامن حيث نسبة الناجحين فقط بل ومن حيث تفوقهم على أقسام المدارس الأخرى مما جعلها فى طليعة مدارس القطر بلاجدال .

وليس يسع الانسان أن يغفل نصيب الأزهر من عناية صاحب العرش . فان تلك الجامعة العظيمة التى هى بلاريب أقدم وأعظم جامعات الأرض طرا قد أخذت تتطور بسرعة مدهشة كما أنها بدأت تسد حاجة قاصديها من طلاب العلم من الأقطار الأسلامية .

وقد تظن أن مشاغل الملك فؤاد العديدة التى سردنا عليك طرفا منها قد أنسته الناحية الأنسانية . ولكن الواقع غير ذلك .

فاذا ذكرت الأنسانية ومبلغ حنان جلالته عليها فأمامنا جمعية

الأسعاف. فسل القائمين بشؤونها يخبروك بما فعله « الأمير » فؤاد لأجلها.

فلقد تولى رئاستها فى سنة ١٩١٠ وهى تسير حثيثا فى سبيل التلاشى والفناء ولا يسمع بها إلا قليلون . فما هو أن التفت إليها حتى دبت فيها الروح من جديد وأصبحت الآن ملء الأفواه والأسماع .

وقد كان من أثر جهوده الحميدة المتواصلة عقب توليته رئاستها أن منحتها الحكومة وكذا وزارة الأوقاف إعانة . ثم إذا بهذه الجهود تتمخض عن دار ومستشفى وعيادة أقامتها الجمعية المذكورة التى ما لبثت أن افتتحت لها فرعا فى ضاحية هليوبوليس وآخر فى حلوان وثالث فى الجيزة. هذا عدا المراكز العديدة فى كافة أنحاء القطر .

ولكيما تدرك مبلغ اتساع نطاق هذه الجمعية فبحسبك أن تعرف أن مجموع حالات الأسعاف فى سنة ١٩٠٨ بلغت نحو ١٦٣٨ فصارت ٣٩٩ر٦٩٩ فى سنة ١٩٣١ ثم ٤٢٦ر٧٩٨ فى سنة ١٩٣٢ وهذا بين إسعافات مستعجلة ونقل مرضى وعيادات وعمليات بسيطة وكشف أشعة وزيارات طبية الخ الخ هذا عدا إعطاء مصل الدفتريا لنحو ١٦ر٠٠٠ طفل .

إزاء هذا كله كان طبيعياً أن تشعر الحكومة بأهمية هذه الجمعية وتؤمن بضرورتها للبلاد وخاصة بعد اعتلاء جلالته الأريكة . فوحدت جمعيات الأسعاف فى الأقاليم واندمجت فى اتحاد كبير يشرف على الجميع .

وفى سنة ١٩٢٧ افتتح جلالته قسم الجراحة التابع للجمعية وتبرع له بمبلغ ٥٠٠ جنيه كما تبرع فى سنة ١٩٣١ بمبلغ ١٠٠٠ جنيه لتوسيع إدارة الجمعية هذا عدا مبلغ ٥٠٠ جنيه تبرع به جلالته بمناسبة احتفال الجمعية بيوبيلها الفضى فى ١٩ ابريل سنة ١٩٣٣ وقد أصبحت عيادتها تعالج يوميا مالا يقل عن ١٠٠٠ شخص ولا تقوم بالعلاج فى أثناء النهار فقط بل هناك خدمة خاصة بمعالجة المرضى وإسعافهم ليلا . هذا عدا الأجهزة

الخاصة المستعملة فى حالة الوضع فى دور الحوامل أنفسهن .

فلا عجب اذا رأينا الأنسانية فى شخص جمعيتى الأسعاف والهلال الأحمر التى تولى جلالته رئاستها فى سنة ١٩١٦ تشكر للمليك بره بهما وعطفه عليهما .

وناحية أخرى من النواحى الأنسانية التى لم يسبق أحد جلالته إليها . ولهذه الناحية طرافة خاصة لأنها قامت فى بلد لم يدرك بعد أهمية الأعمال الاجتماعية .

ففى سنة ١٩١٦ اهتم سمو « الأمير » فؤاد بانشاء دار فى الاسكندرية لتعليم البنات الفقيرات الأشغال اليدوية . وتعميما لفائدة المشروع لم يجعله قاصراً على بنات جنسية دون أخرى بل جعله عاما لكافة الجنسيات بلا فرق بين المذاهب والأديان .

وكانت غاية هذا المشغل تعليم البنات صناعة شريفة يكتسبن بها القوت وتنمية مواهبهن الفنية وبخاصة شغل الدنتلا والتطريز مع مراعاة النماذج التى كانت شائعة فى عهد ازدهار الفن الرومانى واليونانى أو المصرى القديم أو الفن القبطى أو العربى .

وكم توجس الناس خيفة من فشل هذا المشروع . ولكن عزيمة أبى الفاروق لاتعرف الفشل إذ مامن مشروع أولاه عنايته حتى نما وترعرع وآتى ثمره .

وما هو أن دار الفلك دورته حتى بلغ عدد البنات ١٦٤ بعد أن كان ١٠ ومن ثم أخذت الأدلة تترى على نجاح المشروع وسيره الحثيث فى طريق النجاح إذ بلغ عدد نزيلاته فى سنة ١٩٣٤ نحو ٢٨٠

ولا تزال أسر عديدة أخنى عليها الدهر وكتم اسمها عن الناس تدعو بالخير لجلالة المليك وتشكر له عنايته بتعليم بناتها صناعة شريفة يكسبن بها العيش .

وكأنما شاءت العناية الآلهية أن تبرهن للملأ على أن سمو « الأمير » فؤاد كان موفقا فى مشروعه . فلقد أقيم فى سنة ١٩١٧ فى حديقة رشيد بالأسكندرية معرض عام للأشغال اليدوية المقدمة من هذا المشغل . وقد أم المعرض أعيان الثغر ورجال السلك السياسى وغيرهم. ولشد ما كانت دهشتهم لطرافة النماذج المعروضة فاقبلوا عليها متسابقين إلى اقتنائها . وقد بلغ مقدار المبيعات فى هذا المعرض ٤٠٠٠ جنيه دخل خزانة المشغل فكان بمثابة نواة صالحة تضمن نموه المطرد ونشاطه فى خدمة الغاية التى أنشئ من أجلها .

وضمانا لمستقبل هذا المشغل أمر جلالته أخيراً بضمه إلى الأوقاف الملكية فتحول إلى مدرسة تسير مع بقية مدارس الديوان فى معارج الفلاح والنجاح .

ولا تنس فى النهاية فضل جلالة الملك على الآداب والفنون الجميلة ولا ما بلغته الموسيقى العربية فى عهده الزاهر وحسبك أمره الكريم بعقد مؤتمر فى سنة ١٩٣٢ جمع كبار الأخصائيين من بلاد أوربا والشرق العربى للاستنارة برأيهم فى رفع شأن الموسيقى العربية .

هذا وغيره هو بعض ما وسعه المقام . ونعتذر للقارىء إذا كنا لم نحط بكافة أعمال المليك فلم تخصص هذه الصفحات إلا لإلقاء نظرة عامة عليها ولتذكير الشعب بما يفعله مليكه من أجله . ويطيب لنا فى هذا المقام أن نقول إن جلالته أنفق من جيبه الخاص منذ اعتلائه العرش إلى نهاية سنة ١٩٣١ ما يزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى فى الشؤون العلمية والتبرعات الخيرية . ويحسبنا أن نقول إن مصر الملك فؤاد يصح من حيث الحضارة والعلوم أن تقارن بكثير من الدول الأوربية بل قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن فى حياة مصر العامة كثيراً من النواحى تحسدها عليها دول أوربية عديدة .

ويأتى بعد كل هذا أو قبله على الأصح انتقال البلاد فى عهد أبى الفاروق من سلطنة إلى دولة مستقلة ذات سيادة تتمتع فى الداخل بالنظام البرلمانى كما تتمتع فى الخارج بالتمثيل السياسى .

نعم إن استقلال مصر ما زال مقيداً بالتحفظات الأربعة . ولكن قضية مصر قد خطت بلا شك فى عهد الملك فؤاد خطوات واسعات إلى الأمام لم تخطها لا فى عهد محمد على ولا فى عهد اسماعيل . فبالرغم من انتصارات محمد على الباهرة وقرب استيلائه على الاستانة أجمعت كلمة الدول فى معاهدة لندن على إبقاء مصر تحت السيادة العثمانية .

أما اسماعيل باشا فان الدول رفضت موافقته على إعلان استقلال مصر . ولكن هذا الاستقلال قد تحقق فى عهد الملك فؤاد وأصبحت دول الأرض جميعاً تعترف باستقلال مصر كما هو مشاهد الآن .

ونقف الآن عند هذا الحد وندعو الله أن يمد فى عمر جلالة الملك فؤاد ليصل بسفينة البلاد إلى شاطىء السلامة وأن يقر عينيه بولى عهده الأمير فاروق أمير الصعيد وأن يوفق مواطنينا إلى الهدى والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

مصر فى مارس سنة ١٩٣٤ علي أحمد شكري

الفصل الأول

مولد مصر الحديثة

نابليون — محمد على — بالمرستون

« وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز »
« يقول السيد رب الجنود — أشعيا الاصحاح التاسع عشر الآية الرابعة . »

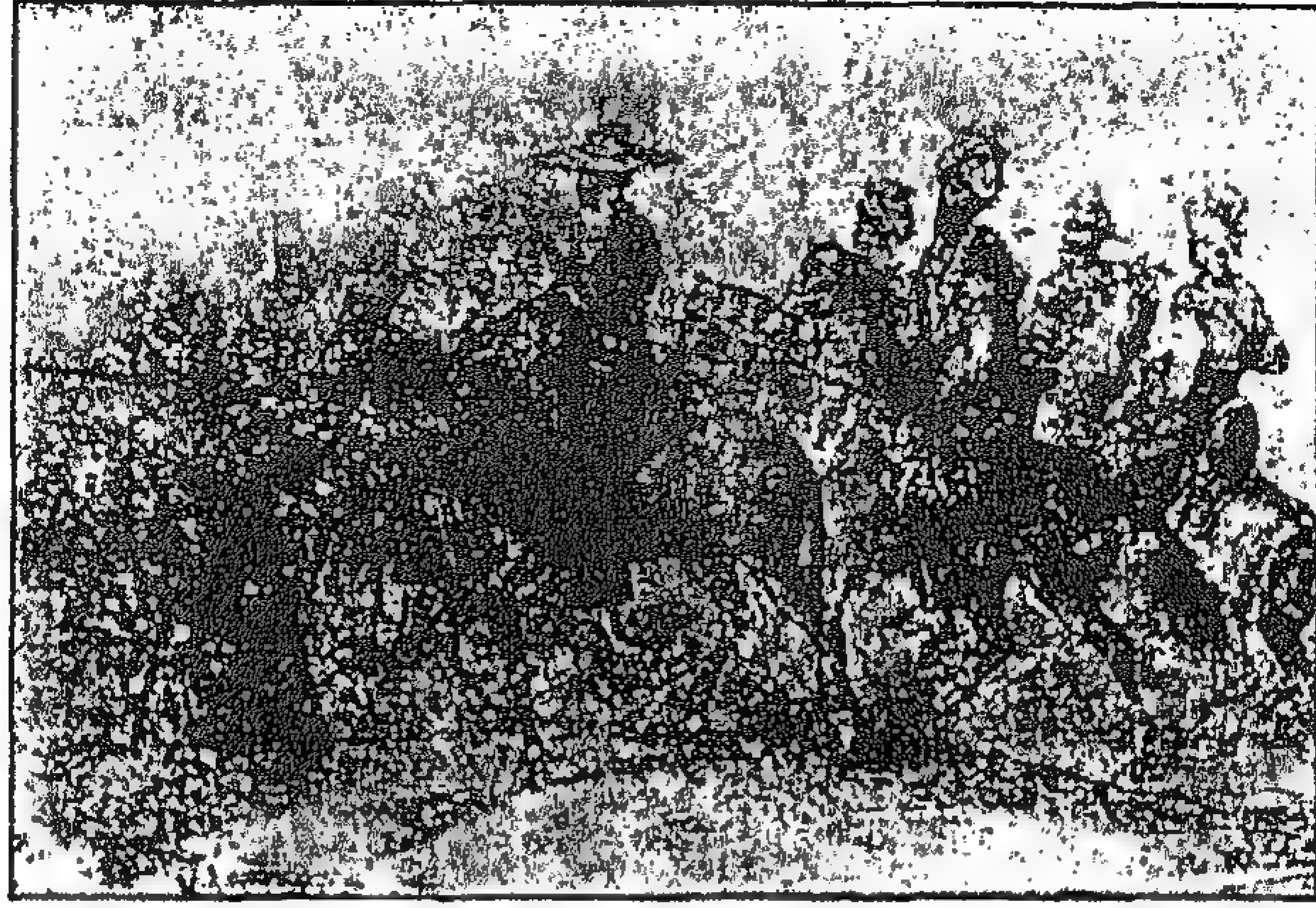
مصر الحديثة كأمة تبدأ من الحرب العالمية فقط، ولكنها كدولة تحكم نفسها بنفسها فانها تبدأ من الحرب العظمى التى وقعت منذ قرن مضى . ولهذا يمكن القول بأن مغامرات صاحبتنا كليوباتره مع صديقها أنطونيوس التركى ومع قيصرها البريطانى جاءت فى ربيع سياسة يومنا الحاضر أى عند ما التهم لهيب الثورة الفرنسية كافة الأنظمة السياسية المعمول بها فى القرن الثامن عشر وأذاب ما حولها من الجليد . وليس يخفى أن كلاب الربيع — ونعنى بها جيوش نابليون — هبطت الشرق يصحبها وابل من الأفكار والمعاهد الجديدة فأنعشت بها موات الولايات التى لفحها الهجير فى الامبراطورية العثمانية التى كانت وماتزال تشغل شرقى أوربا وشمال أفريقيا . ومن ثم بدأت تزدهر تحت هذا المطر المخصب أمة جديدة وشرع أناس مسلحون يحتشدون حيث لم يكن من قبل سوى سكون الصحراء ووديان العظام النخرة . وماذا عسى أن يكون أدل على قوة سحر بطلتنا « مصر » من أن يسعى اليها نابليون العظيم محاولا اقتناص قلبها ؟

فمنذ تدهور مدنية الفراعنة وانقراضها ومصر خاضعة للفاتحين الأجانب . وقد صار زمام الحكم الأجنبى بعد الفتح العربى إلى أيدى طائفة المماليك وهم الجنود الخدم . لأن لفظة « مملوك » كان معناها فى الأصل الرقيق الأبيض الذكر . والشرقيون فى أوج عزهم — أى فى عهد صلاح الدين — هم أول من أدخل المماليك إلى مصر . وقد كانوا بادىء بدء ميليشيا ذليلة

ثم تحولوا إلى طبقة عسكرية وأخيرا أصبحوا الطبقة الحاكمة . ثم جاء الأتراك فاقتفوا آثار الشرقيين فى جنودهم الانكشارية . وفى الواقع كان الشرق منذ بزوغ شمس الأسلام أخصر طريق إلى الحول والسلطة . وهذا هو صلاح الدين نفسه بدأ حياته كرقيق مثل كثيرين غيره من السلاطين الأولين . وفى مصر شهدنا أغرب الأمثال على تطور طائفة أجنبية وانتقالها من حراسة الرقيق إلى أن أصبحت الطبقة الأرستقراطية القابضة على ناصية الحكم . ومن الغريب أيضا أن هذه الطائفة لم تصل إلى ماوصلت إليه إلا بفضل عدم اندماجها فى الأهالى الوطنيين وابتعادها عن الاحتكاك بهم . ولقد بلغ من قوة المماليك فى سنة ١٢٥٠ أنهم اغتالوا أحد السلاطين الفاطميين وتولوا بعده ترشيح السلاطين من بين زعمائهم .

أما كيف استطاع هؤلاء المماليك أن يبسطوا سلطانهم الأجنبى على مصر نحواً من خمسة قرون فيرجع إلى كونهم كانوا يغذون صفوفهم بأرقى عناصر الأرقاء المحررين من أجناسهم البيضاء فى القوقاز والتى لاجدال فى أنه لايوجد مايفوقها فى كافة أنحاء العالم .

وكان معظمهم من جورجيا — أو الخرز — وهم يعرفون بالخرز (بضم الخاء) ولايزال المصريون يصفون حكمهم بحكم « الغز » وهو تحريف للفظة الخرز . وقد كان المماليك يحرصون على التزاوج فيما بينهم وبين أنفسهم ولما لم يكن هذا وحده كافياً لأنقاذ جنسهم واستمرار استبدادهم اضطروا إلى إدخال دم جديد فى عنصرهم . لأن عائلاتهم كان مثلها كمثل عائلات كل من استولى على مصر من الأجناس « الآرية » الأخرى التى انقرضت فى الجيلين الثانى والثالث . وقد عجز المماليك عن تكوين طبقة وراثية بالرغم مما كان لهم من سيطرة مالية ونظام إقطاعى فى البلاد . ثم إن سلطانهم الأجنبى يضاف إلى اختلافهم مع الأتراك — وهم أغراب مثلهم — كانت نتيجتهما جمع شمل العرب المتمصرين والنوبيين بل والأقباط برغم ما كان بينهم من اختلاف فى الجنس والعقيدة الدينية لأنهم كانوا جميعاً تحت نير واحد .



الأوطه باشى (أبو طبق) ووراءه الجنود فى طريقه إلى القلعة لأعلان الوالى بقرار العزل *

وبفضل مافرضه المماليك على أرض مصر الخصبة وعلى فلاحيها الوادعين من الضرائب وما حصلوه من المكوس على تجارة « الترانسيت » بين أوربا وآسيا — استطاعوا أن يكون لهم من الحول ما يكفى للدفاع عن سلطانهم. حتى بسط الأتراك سيطرتهم على البواغيز وانشأوا لهم إمبراطورية شاسعة فى شرق أوربا وغرب آسيا . أما آخر سلاطين المماليك فقد شنقه السلطان سليم فى سنة ١٥١٧ . وقد ورث سلاطين آل عثمان عن المماليك فى الشرق هيبتهم ومكانتهم ولم يمسوا نفوذهم السياسى فى مصر بشىء بل اقتصروا على جعل هذا النفوذ خاضعا لسلطة الباشا العثمانى واستبدلوا الانكشاريين أرقاءهم المشاة بفرسان المماليك . ولكن سرعان ماأخذ زعيم المماليك بصفته « بيك » القاهرة

(*) إذا لم يجز الوالى ثقة شيخ البلد وأعوانه يقرر هذا عزله ويبعث إليه برسالة العزل مع رسول يدعى أوطه باشى (ويسمى أبو طبق لأنه يلبس قبعة تشبه الطبق) . فيركب الأوطه باشى حمارا (لعدم سماح القانون بركوب الخيل أو البغال). ويذهب إلى القلعة فى موكب من المتفرجين حاملا فرمان العزل وهناك يقول للوالى «انزل يا باشا» فينزل فى الحال وتزول كل سلطته . ولا يعارض الباشا فى الفرمان المذكور حتى ولو تعدى أمر عزله إلى قتله .

ينافس الباشا سلطته وكان ديوان مصر مكونا وقتئذ من بيكوات المماليك باعتبارهم ممثلين لاربع وعشرين مديرية ومن قادة السبعة الفيالق الانكشارية. فلما أخذت سلطة العثمانيين فى أسباب الضعف والوهن شرع المماليك يحدون من نفوذ الباشاوات فى مصر حتى صار عدما . فكان أشبه شيء بما صنعه الانجليز فيما بعد مع الخديو . لا بل أن سلوك المماليك مع من لا يلائمهم من الباشاوات كان سلوكا مختصراً وقاسياً أكثر من سلوكنا . فقد كانت عادتهم فى مثل هذه الاحوال أن يرسلوا الى الباشا المذكور مندوبا فى عباءة سوداء تنذر بالنحس فيصيح به « انزل » فينزل صاغراً من على العرش . واينما ولى الباشا وقتئذ وجهه فانما يترتب ذلك فقط على ما يكفيه من الوقت لمغادرة البلاد . ويلاحظ بهذه المناسبة أن جنود الانكشارية بسبب عدم مراعاة التدقيق فى اختيارهم ونظراً لتفرقهم فى طول البلاد وعرضها ، لم يستطيعوا الاحتفاظ بنشاطهم الأدبى وكفايتهم العسكرية كما فعل المماليك من قبل

ولما كانت سلطة المماليك وإدارتهم أجنبية فمن المهم أن نقارن بينها وبين إدارتنا لنتبين هل السر فى بقاء حكمهم زهاء الخمسة قرون - بينما لم يمكث حكمنا سوى خمسة عقود - يرجع إلى أنهم لم يقتصروا على الاحتفاظ بحامية عسكرية وبحكومة . أم لأنهم عرفوا فوق ذلك كيف يكونون طبقة من الحكام والأعيان فى بلاد لامجال لمحو الجنس الأبيض منها . ثم أن هبة المماليك لمصر كانت فنية بينما كانت هبتنا لها علمية . وإلا فمن ذا الذى يسعه أن ينكر أن لما أنشأناه من سدود النيل وبنوك الأراضى أو لخبرائنا الزراعيين، فوائد تفوق قصور المماليك ومساجدهم وتقاليدهم الفنية ؟ نعم إن قطننا كان سببا فى جلب التجارة الأجنبية إلى مصر، ولكن التوفيق فى رواج حركة السائحين يرجع إلى ثقافة المماليك وهم الذين لا يجادل أحد

فى أنهم أبهظوا عاتق الأهالى المصريين أضعاف ما أبهظناهم . فلقد كانت الضرائب توازى نتاج الأرض ماخلا النزر اليسير مما لايكاد يكفى لسد رمق الفلاحين ثم إن المكوس على تجارة الترانسيت كانت معادلة لثمن البضائع الأساسى مما حال دون مزاحمة طريق البحر حول رأس الرجا الصالح . ولقد أدى شجارهم مع الأتراك على استقلال مصر إلى استمرار القلاقل وجاء اعتناقهم الاسلام ضغثا على إبالة إذ قطع صلة البلاد بحركة الترقى الأوربى.

ولقد تبادر إلى الأذهان حيناً من الدهر أن نظام المماليك هذا الذى بسط الأرقاء البيض ظله على شعوب آسيا وافريقيا قد يخضع العالم للدولة الأسلامية الشرقية فيكون أشبه بما عملناه نحن فى صدد النظام الاستعمارى التجارى . فقد أخضعنا به العالم لمدنية أوربا الصناعية . ومن غرائب الصدف أن أسطول المماليك ـ فى نفس الوقت الذى هدم فيه الأتراك نفوذهم ـ كان ينازع البرتغاليين مستقبل الأمبراطورية الهندية . وقد غلب على أذهان الناس فى نهاية القرن الثامن عشر ان المماليك برياسة على بك سوف يخلفون الأتراك فى الأمبراطورية العثمانية ، ولكن وفاة على بك المذكور كانت خاتمة مجدهم. وقد حل فى امبراطورية العالم رقيق الأجور محل رقيق الحروب . ثم إن فن المماليك العسكرى قد صار عتيقا . أما جيوشهم فكانت ماتزال مؤلفة من فصائل اقطاعية يشرف عليها رئيسها. وهذه الفصائل تتألف بدورها من بعض باشاوات أو بكوات المماليك العديمى الأهمية أو من رجال السلاح وعدد عديد من الجنود المشاة والأتباع . وأما فنهم العسكرى فانه كان قريب الشبه بفن الصليبيين وبعضها أخذ فعلا عنهم . ولقد كان المماليك وأيم الحق مبدعين حتى فى أيام الحراب والبنادق العتيقة ولكن هذه الأدوات قدفات أوانها فلم تعد صالحة للحرب .

ونحن الذين مازلنا نحتفظ بالفرق الراكبة التى تكلفنا نفقات


أحد جنود المماليك وهو بملابسه الثمينة

باهظة ونجعل من معركة « بلا كلافا » قاعدة للفنون العسكرية قد نشعر بشيء من العطف على ما أظهره المماليك من الأقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون .

ولا جدال فى أن المماليك بين كافة من استولى من الأجانب على مصر يعتبرون أكثرهم نفقات وأقلهم كفاية . فان كل فارس من فرسانهم الاثنى عشر ألفاً أو الخمسة عشر ألفاً بلغ متوسط نفقاته نحو ١٠٠٠ جنيه فى العام بينما بلغت نفقات غزواتهم لسوريا بقيادة على بك فى سنة ١٧٦٩، ٠٠٠ ر ٠٠٠ ر ٢٦ جنيه. وكان مقبض خنجر على بك يساوى ٠٠٠ر٢٠٠ جنيه. وبما أن عدد سكان مصر وقتئذ كان يتراوح بين مليونين أو ثلاثة ملايين فقد كان بديهياً أن كافة ما كان يجمعونه ثمناً لانتاج التربة المصرية الخصبة ابتلعه أولئك المماليك وأعيانهم . وقد حال كبرياء هؤلاء السادة وجهلهم دون التأثر بأى ضغط نشأ بسبب اتجاه المدنية نحو الشرق .

كان هذا الابتزاز سبباً فى ان مصر لم تعد بعد طريقا بين أفريقيا وأوربا، كما انحطت الاسكندرية الى مدينة حقيرة لصيد الاسماك يقطنها نحو ٨٠٠٠ نسمة . والغريب ان المماليك بالرغم من ذلك كله لم يستعينوا بالاجانب فقد منعوا الانجليز من شق الطريق البرى لتوصيل مياه البحر الابيض بمياه البحر الأحمر . وطردوا الجالية الفرنسية وهى التى كانت تحرك دولاب التجارة المحلية (سنة ١٧٧٩) .

ولطالما تربصت فرنسا ولبثت ترقب بانتباه ماكان فى الطريق البرى من الفرص الملائمة لها فى النزاع الذى كان قائماً بينها وبين انجلترا حول الاستيلاء على الامبراطورية الهندية. ولقد اقترح ليبنتز الألمانى فعلا على لويس الرابع عشر احتلال مصر وكان قصده من ذلك أن يصرفه عن التوسع نحو الرين (كما ورد فى كتاب أعمال فون ليبنتز المجلد الثانى)

وبعد ذلك بقرن كامل كتب ڤولنى يقول ما ملخصه : إن إستيلاء الفرنسيين على مصر كفيل باعادة الامبراطورية الهندية إلى أحضان فرنسا، وإن قوة المماليك ليست إلا حديث خرافة فلم يكن ثمة محيص والحالة هكذا من أن تدور رحا الحرب العالمية عاجلا أم آجلا بين الثورة الفرنسية والنظام العتيق فى هذا الدهليز الواقع خلف عرش آسيا.

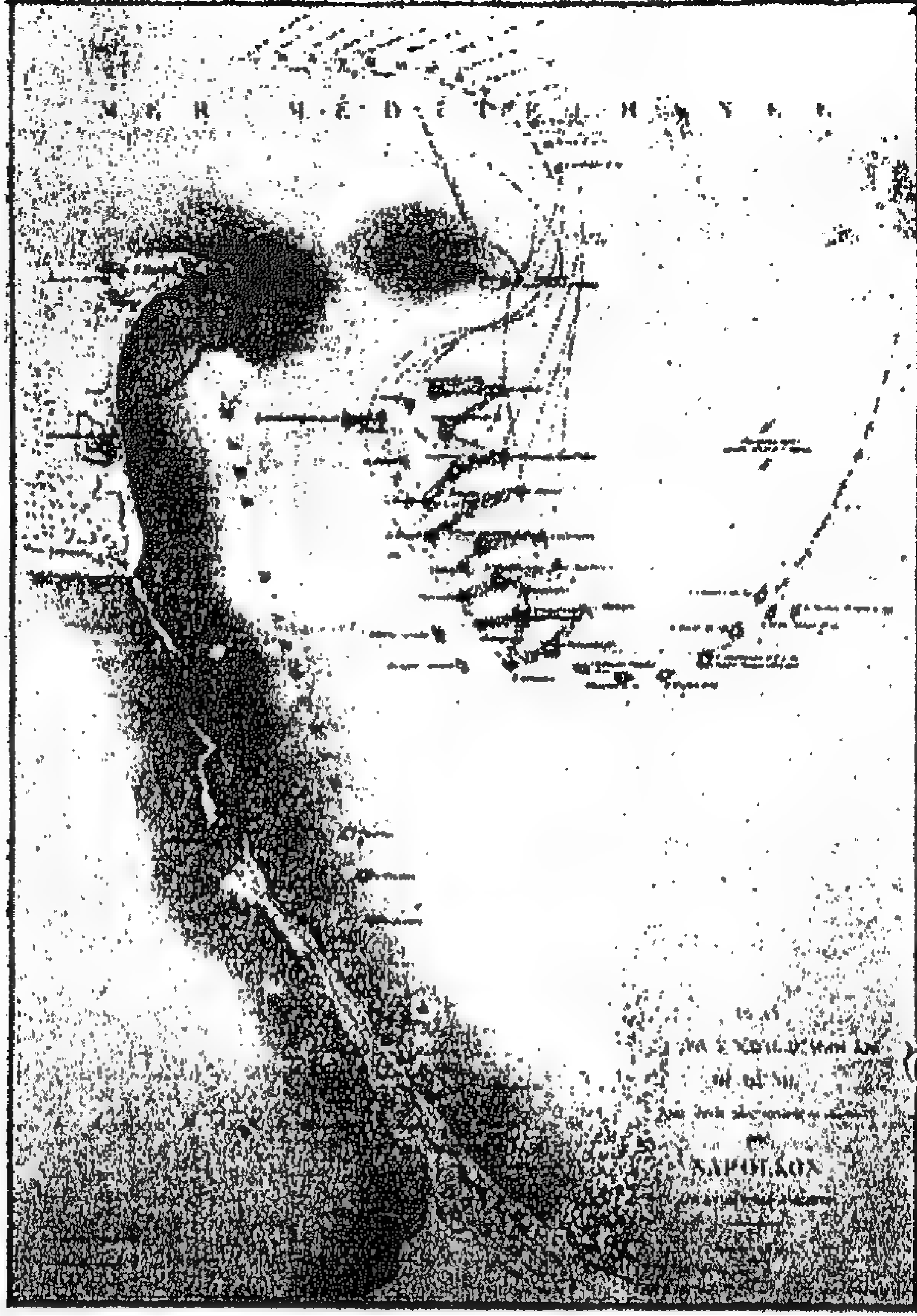
وكانت مهاجمة الامبراطورية البريطانية هى الغاية التى جاهر بها نابليون من حملته التى أرسلها إلى مصر فى سنة ١٧٩٨. فقد وصفها المجلس الديركتوار بأنها بمثابة الجناح الأيمن للغارة على انجلترا. أما غايته الحقيقية فكانت ترمى إلى اتخاذ مصر ميداناً للقتال فإما أن يخرج منها إلى امبراطورية الغرب أو يتخذها - فى حالة حبوط مساعيه - قاعدة لتأسيس امبراطورية شرقية. ومع إن مستقبله السياسى فى باريس كان وقتئذ غامضاً ومحفوفاً بالشكوك، فان مجلس الديركتوار ابتهج ايما ابتهاج بتركه يستخدم موارد فرنسا فى مغامرات نائية تريح بال الجمهورية من فاتح إيطاليا غير المرغوب فيه ومن قواده المتمردين وفعلا كان تجهيزها - وهى التى اشتملت بين ما اشتملت عليه على ١٢٢ أخصائياً وعالماً مصرلوجياً - يدل على أن المسألة كانت مسألة انشاء امبراطورية أكثر مما كانت مجرد نزهة عسكرية. وقد كتب تالليران إلى مجلس الديركتوار فى ١٠ يونية سنة ١٧٩٨ بأنها «الحملة التى سوف تهدم سلطان بريطانيا فى الهند». ولكن

يغلب على الظن أن تالليران كان أكثر اهتماماً بالتخلص من نابليون منه



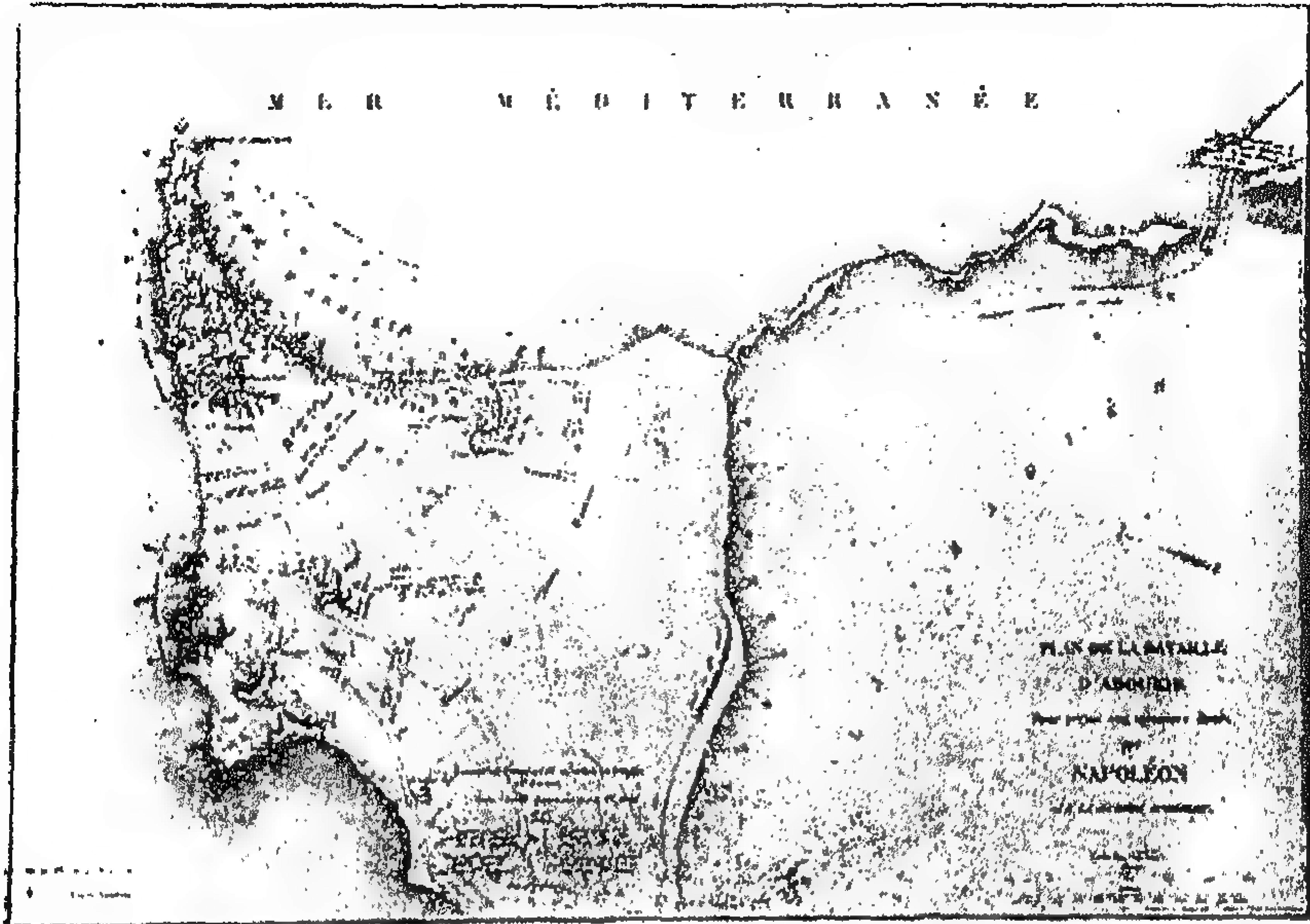
نابليون بونابرت

بهزيمة بريطانيا . ومع أن نابليون كان قد بدأ يراسل « تيبو صاحب » وقبائل مراتا الذين كانوا فى قتال معنا ، فانه كان يصعب على الانسان أن يتصور كيف أن مجرد إرسال تجريدة فرنسية إلى مصر تستطيع بدون السيطرة على البحر اخراجنا من الهند . فان مواصلاتنا كانت حول رأس الرجا الصالح . ثم ان سيطرتنا على البحر الأبيض حالت دون أى



معركة النيل أو معركة أبو قير

المعركة الفاصلة بين الأسطول الانجليزى بقيادة الأميرال « نلسون » والأسطول الفرنسى بقيادة الاميرال « برويه » . وقد وقفت السفن الفرنسية وعددها ١٣ عداأربع فرطاقات أمام العمارة الانجليزية التى كانت مكونة من ١٣ ماعونة وسفينة تحمل ٥١ مدفعاً . وبلغت قوة الجانب الفرنسى ١١٩٦ مدفعاً و ١١٢٣٠ ملاحاً فى حين أن الجانب الانجليزى كان ١٠١٢ مدفعاً و ٩٠٦٨ ملاحا . ومع أن الغلبة كانت فى الجانب الفرنسى فان نلسون لم يتردد فى الاشتباك بخصومه قائلا « قبل أن تحين هذه الساعة من يوم غد سأكون قد حصلت على رتبة لورد أو على مكان أدفن فيه فى كتدرائية وستمنستر » . واستمرت المعركة إلى حوالى منتصف الليل ودارت فيها الدائرة على العمارة الفرنسية التى تفرقت أيدى سبا . وقد قتل الأميرال برويه وهو على جسر سفينته التى كانت تحمل راية الاميرال بينما أصيب نلسون بجرح فى الرأس عاقه عن العمل .



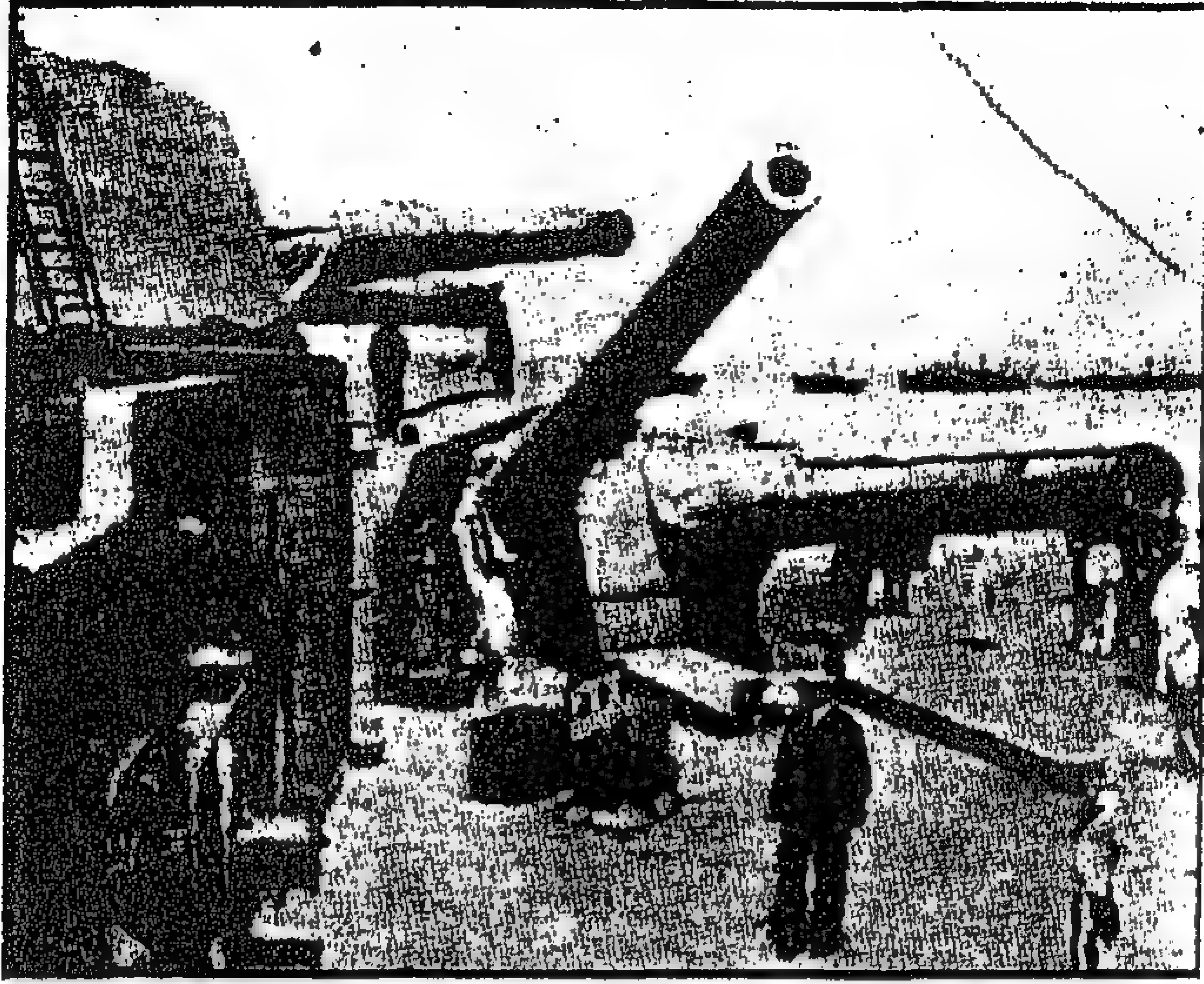
معركة أبو قير

وقد وقفت الحامية الفرنسية على اليابسة بينما أمطرتها السفن البريطانية وابلا من القنابل

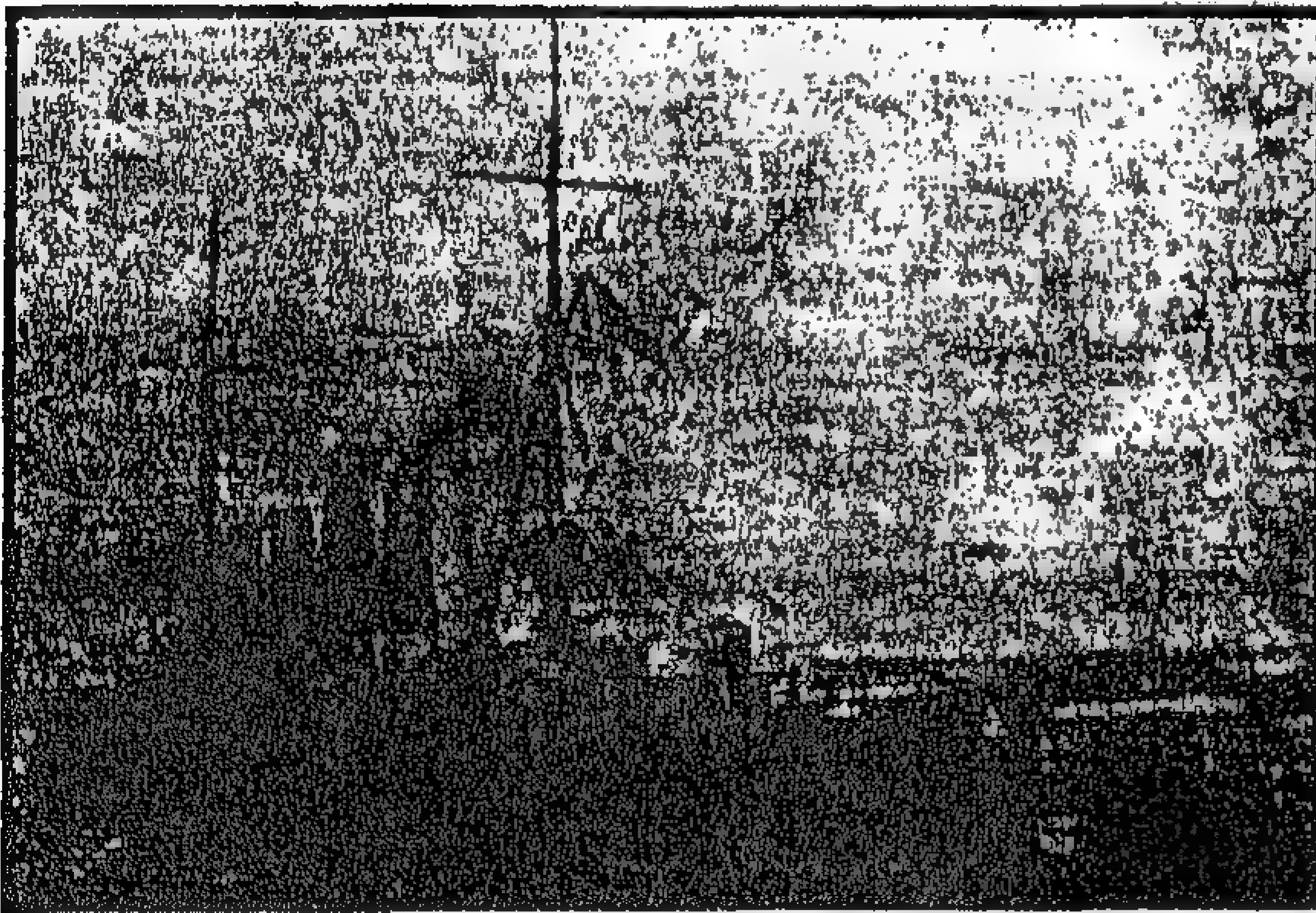
« هاتان الصورتان أهداهما سمو الامير عمر طوسون للمعرب

أما الشرح فمنقول عن جريدة الايجبشيان غازيت . »

اتصال منظم بين فرنسا ومصر اللهم إلا ما ندر . وفى الواقع لقد أفلتت الحملة الفرنسية من المدافع الانجليزية لأن وزارة البحرية لم تسمح للأميرال نلسون إلا ببارجة واحدة فقط مما أدى إلى وصول الأسطول البريطانى إلى مالطة بعد رحيل العمارة الفرنسية منها ببضع ساعات فقط . كذلك وصل متأخراً إلى كريد وأيضاً إلى الاسكندرية ولكنه استولى فعلا على أدوات المصرلوجيين المائة والاثنين والعشرين وهى كارثه وإن اعتبرت وقتئذ أنها نذير النحس إلا أنها لم تكن مما لا يعوض . ولئن وجد الآن بيننا من يخامره الشك فيما عسى أن يكون الفرق بين سيادة بريطانيا البحرية مع وجود مثل نلسون وبينها مع عدم وجوده فما علينا إلا أن نقارن بين ما حدث عندما سمح الأسطول البريطانى بأن يفلت الفرنسيون من



البارجة جوبن



البارجة برسلاو

قبضته إلى القاهرة وما حدث بعد ذلك بنحو قرن تقريباً عند ما سمح للألمان بأن تفلت البارجتان جوبن وبرسلاو إلى الاستانة. ولما لم يكن نلسون بالشخص الذى يدع فرصة ثانية تمر دون انتهازها فقد صمم من فوره على اقتفاء أثر الأسطول الفرنسى حيث كان رابضاً فى خليج أبى قير وهناك قضى عليه القضاء المبرم فى أول أغسطس سنة ١٧٩٨ .



الاميرال نلسون قائد الاسطول البريطانى

ولما أن رأى نابليون نفسه معلقاً فى « الهواء » لم يشأ اضاعة الوقت سدى . فاحتلال مصر عسكرياً لم يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسى وعدده ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف على القاهرة وكان رسل المدنيـة الحديثة المائة والاثنان

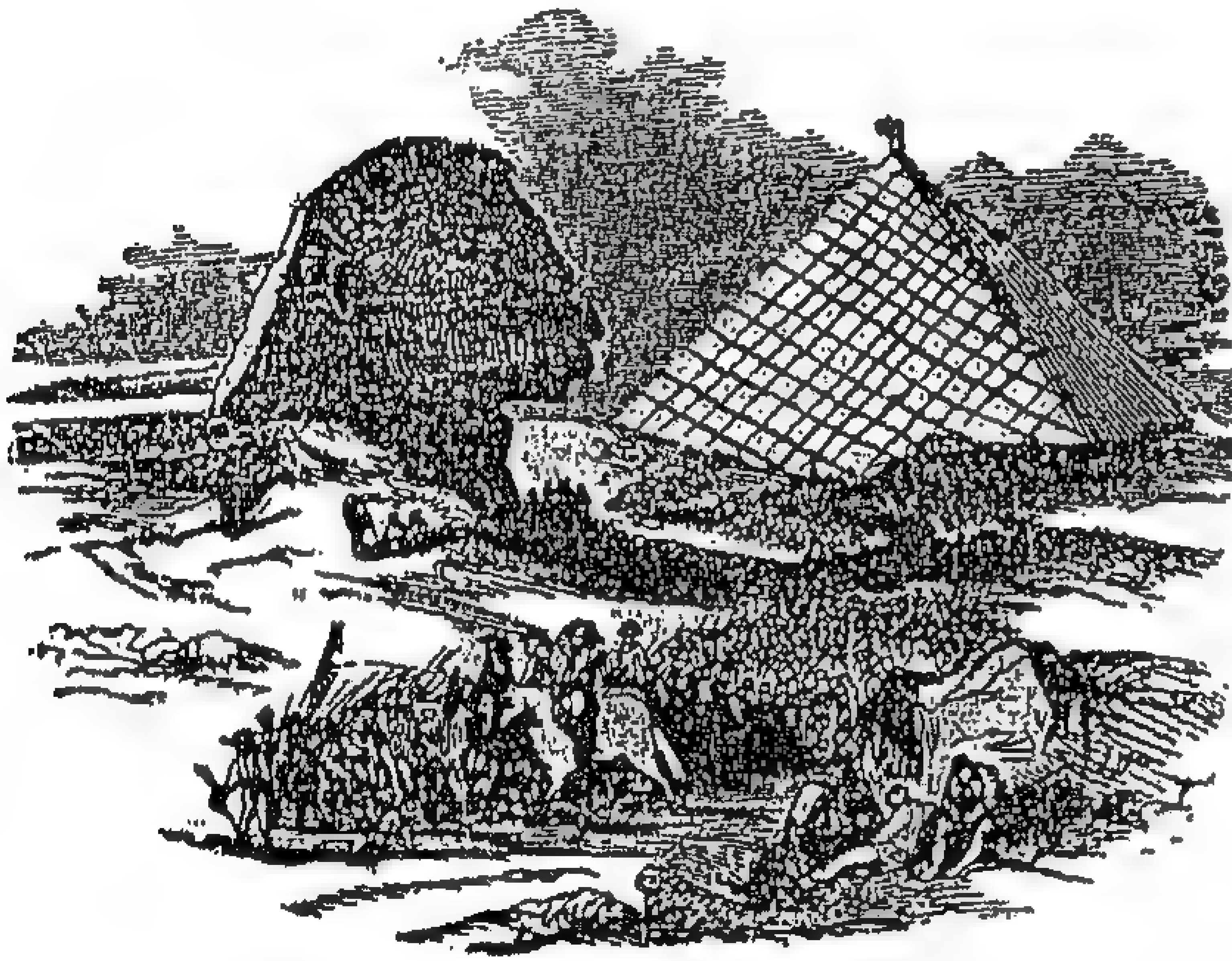


بونابرت فى معركة إيلاو بالقرب من امبابه

والعشرون فى قلب الجيش بينما عسكر أقطاب الاسلام القدماء فى عرض الأفق ووقفوا يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والازدراء وأخيراً برر

أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً . وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحرير وتقدم إلى الفرنسيين حتى صار على بضع خطوات منهم . وهنالك طلب مبارزة الكولونيل . ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش — لأن البدو المجتمعين كانوا قد قطعوا عليهم طريق الاتصال بسفن المؤونة — أجابوا على طلب المبارزة باطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء .

وما كانت معركة الاهرام التى نشبت على أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلى القاهرة سوى تكرار لهذا الحادث ولكن على مقياس أكبر فقد اشترك فيها نحو ١٠٫٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من مشاة الانكشاريين وعدد من الجنديين المصريين . لكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق فى مياه النيل . هذا فى حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة (١)



نابليون وجنوده فى معركة الاهرام

---

(١) معركة ايلاو أو معركة امبابة أو معركة الاهرام تلخص فيما يلى : فى يوم ٢١ يولية سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون على بعد ميلين من امبابة فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابة أمامهم وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية . فلما رأى بونابرت حسن استعدادهم التفت الى جنوده وقال جملته المأثورة « اعلموا أن خمسين قرنا تنظر اليكم من قمم هذه الاهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما يأول اليه أمركم مع هؤلاء المماليك » ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه =

على أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات ديزيه ورينييه . ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الاكيد . ومنذ ذلك الحين لم يصبح لهذه الشركة الحرة القوقازية باعتبارها قوة عسكرية شأن يفوق مالفيالق الباشبوزق من الالبانيين أو فصائل الانكشارية التركية . أما بصفتهم حزبا سياسيا فقد ظل المماليك محتفظين بسيطرتهم إلى أن هدمها محمد على . وأما بصفتهم أعياناً فان من ذريتهم من لا يزال بين زعماء أحد الأحزاب البرلمانية الى اليوم . وليس معنى هذا أن لهم أهمية كطبقة كلا ، بل لأنهم بعد أن انتهت طريقتهم الخاصة فى التجنيد أخذت عملية الانحطاط والفناء تفعل فيهم فعلها بسرعة .



الجنرال ديزيه

وما أن دخل الفرنسيون القاهرة (٢٧ يوليو سنة ١٧٩٨) حتى بادر نابليون من فوره بتأسيس جنين الامبراطورية فى عاصمة الخلفاء

= بالتقدم نحو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار . ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار باطلاق النار على ديزيه وجماعته وحملهم على الوقوف بشكل مربع . ثم هجم أيوب بك ورجاله وهو يصيح « ويل لكم أيها الكفار الملاعين قد ساقكم كبرياؤكم الى أرضنا مهلا اننا سنملأ القبور باجسادكم ونجعل هذا اليوم يوما تذكره أعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مات أحدنا فانه يذهب شهيداً الى النعيم والذى يبقى حيا فله السعادة الى آخر أيامه » . ثم التحم الجيشان بعد تقدم ميسرة الفرنسيين ودارت المعركة الى أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك الى الصعيد واستولى بونابرت على امبابة .

القديمة . وقد بذلت مساع هائلة لتخفيف حدة التعصب الدينى ولتعليم المبادىء الثورية . وكان نابليون يبدأ منشوراته بالديباجة الاسلامية المألوفة . بل أنه جعل ينحو نحو الحكام المسلمين فى الكتابة [1] . وقد طرحت على بساط البحث فعلا فكرة اعتناق الحملة الفرنسية بأسرها ونابليون نفسه العقيدة الاسلامية . وكانت أول دفعة فى سبيل تنفيذ هذه الفكرة أن « مينو » وهو ثالث قواده اعتنق الاسلام فعلا وأنشأ له ضريحاً ثم بدأ بانشاء مسجد .

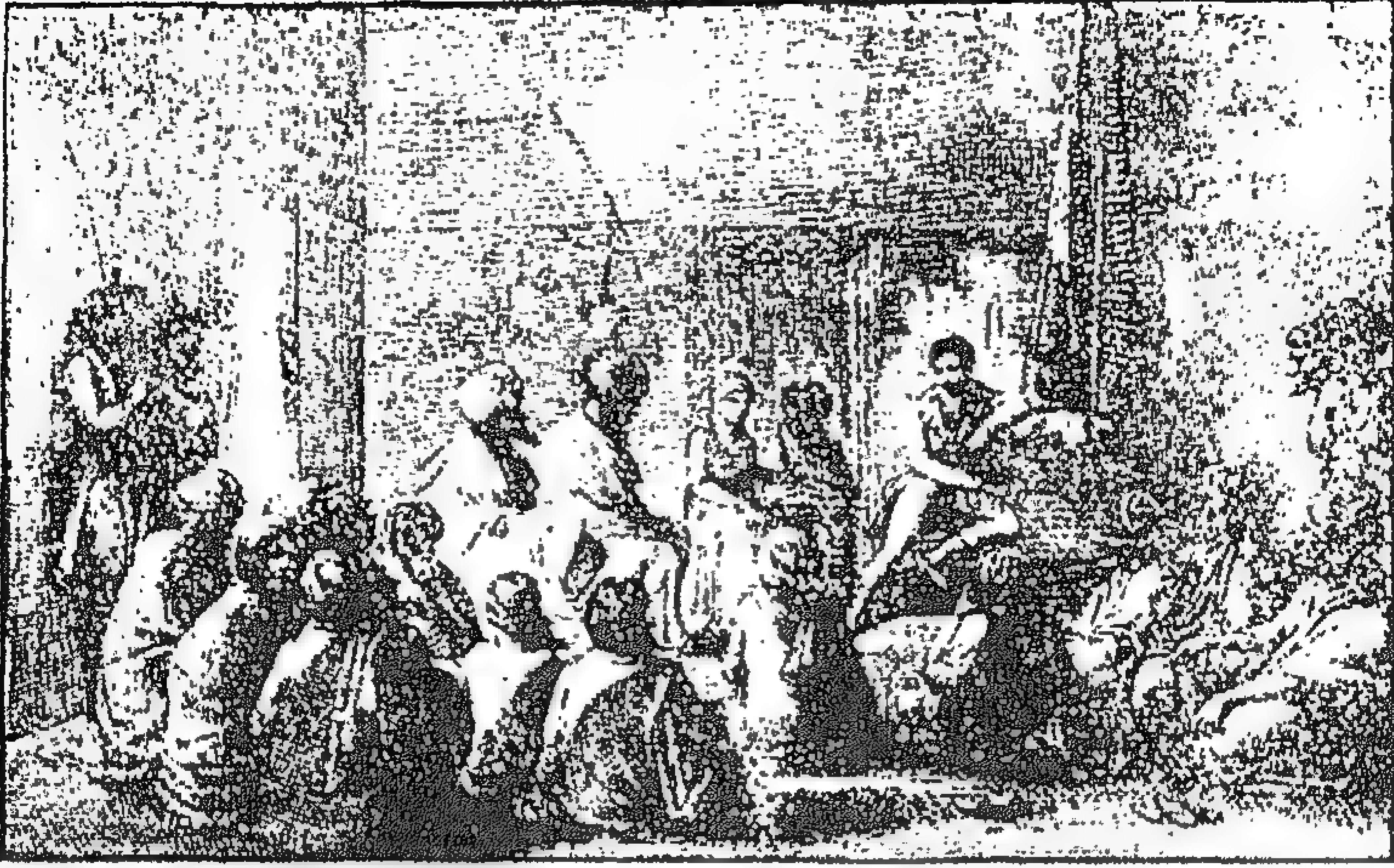
---

(١) بعد دخول بونابرت القاهرة جمع العلماء وطلب إليهم اختيار عشرة مشايخ لتأليف ديوان منهم . فوقع اختيارهم على هؤلاء المشايخ العشرة : عبد الله الشرقاوى وخليل البكرى ومصطفى الصاوى وسليمان الفيومى ومحمد المهدى الكبير وموسى السرسى ومصطفى الدمنهورى واحمد العريشى ويوسف الشبرخيتى ومحمد الدواخلى . ثم اختار هؤلاء رئيساً لهم الشيخ الشرقاوى واحتفل بونابارت بافتتاح الديوان وأكرم أعضاءه وأمر المصورين بأخذ صورة كل منهم على حدة . وهذه الصور ما تزال محفوظة فى معرض فرساى . وترى بعض الصور فى ص ٣٨ . وهو أول ديوان وطنى ويعتبر فاتحة السلطة النيابية الانتخابية .

ولد الشيخ الشرقاوى الشافعى فى سنة ١١٥٠ ﻫ وكان من أعلم أهل عصره وكان فقيراً فى بادىء الأمر ثم اتسعت حاله واكتسب مالا عظيما فاشترى الأبنية والقصور والحمامات الخ . وتوفى سنة ١٢٢٧ ﻫ

والسيد خليل البكرى من سلالة أبى بكر الصديق تولى نقابة الأشراف بمصر ومشيخة السجادة وتأيد منصبه فيها بعد مجىء بونابرت فاستولى على أوقافها . كان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عند الفرنسيين حتى أن أمراء المماليك الهاربين كانوا يوسطونه لدى الفرنسيين فى العفو عنهم . وبعد خروج الفرنسيين عادت نقابة الأشراف إلى السيد عمر مكرم وتوفى سنة ١٢٣٢ ﻫ

أما الشيخ محمد المهدى الكبير فقد ولد قبطياً وأبوه اسمه ايفانيوس فضل الله . ولما ولد سمى هبة الله . كان ابوه كاتباً فى بيت سليمان كاشف فلما ترعرع هبة الله أعجب به الكاشف وأراد جعله من مماليكه ولم تكن نزعته عسكرية فأدخله الأزهر وهنا اعتنق الاسلام وسمى محمد المهدى وكان زكياً وما زال يرتقى حتى صار من كبار العلماء ثم أصبح من أهل الثراء حتى جاء الفرنسيون فأصبح صاحب الحظوة عندهم حتى لقبوه بكاتم السر .



الديوان الخصوصى وهو أول مجلس شوروى وطنى فى مصر أنشأه نابليون سنة ١٧٩٨



الجنرال مينو أو الحاج عبد الله مينو

وكانت ألقاب الشرف توزع بالتساوى فى كافة الاحتفالات والأعياد الرسمية. وكأنما أراد الفرنسيون أن يسبقوا شيوعيي روسيا فلقبوا أنفسهم بمحررى مصر من نير الأجنبى سواء المماليك الشراكسة أم الباشوات الاتراك. وانتحلوا لأنفسهم الفضل فى القضاء على أعداء الاسلام القدماء وهم على التوالى البابا وفرسان مالطة. ثم أنهم أسموا أنفسهم رسل الحضارة



الشيخ عبد الله الشرقاوى



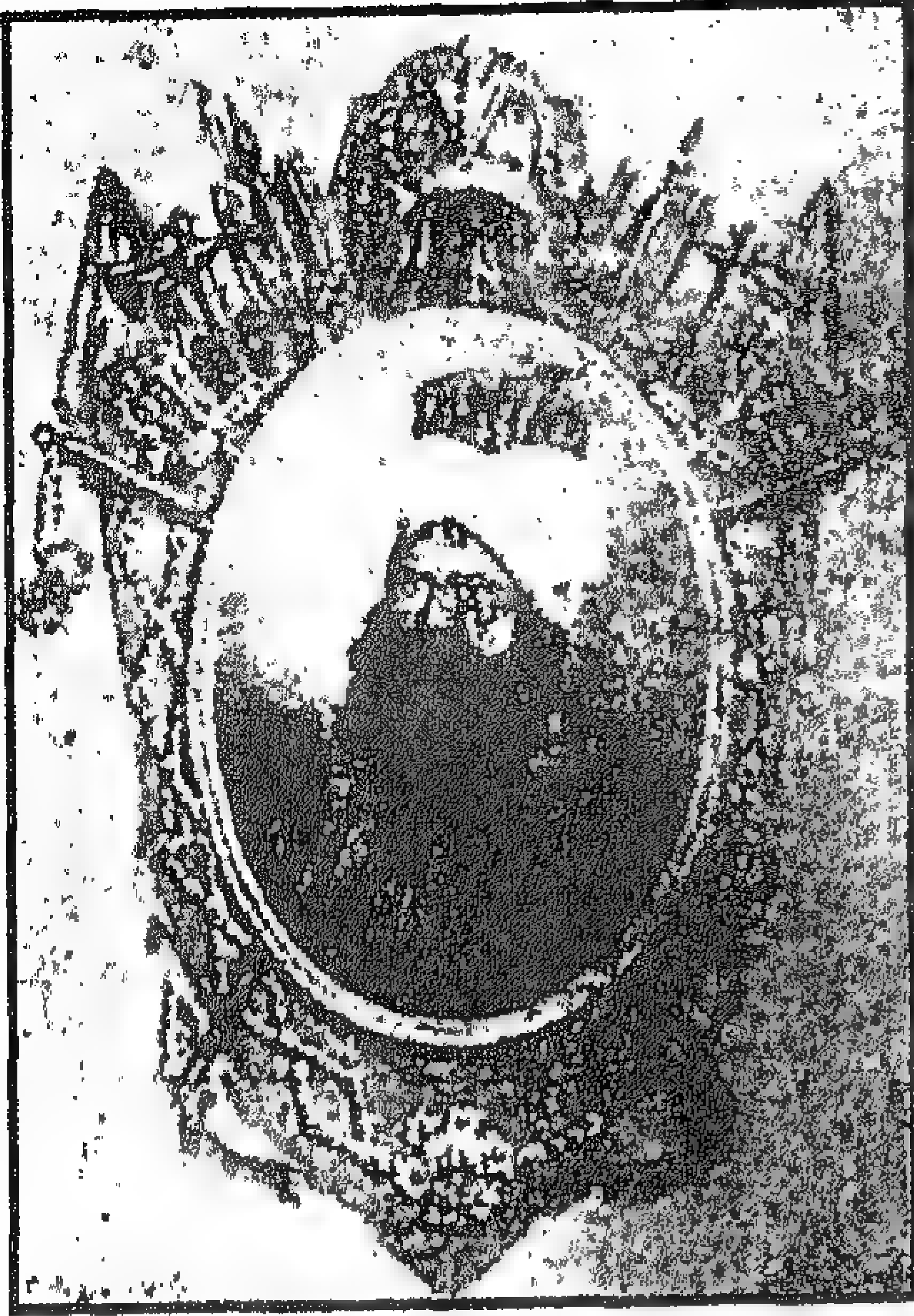
الشيخ خليل البكرى

الأوربية وقد بدأ المصرلوجيون والاخصائيون أعمالهم فأسسوا معهد مصر على طراز معهد فرنسا ووضعت التصميمات فعلا لشق قناة عبر برزخ السويس وأعيد تنظيم الادارة . وسرعان ما بدأ العمل بالنظام المالى الاسلامى تحت اشراف الفرنسيين بكفاءة كانت رابحة أكثر مما كانت محبوبة من الشعب .



الشيخ محمد المهدى

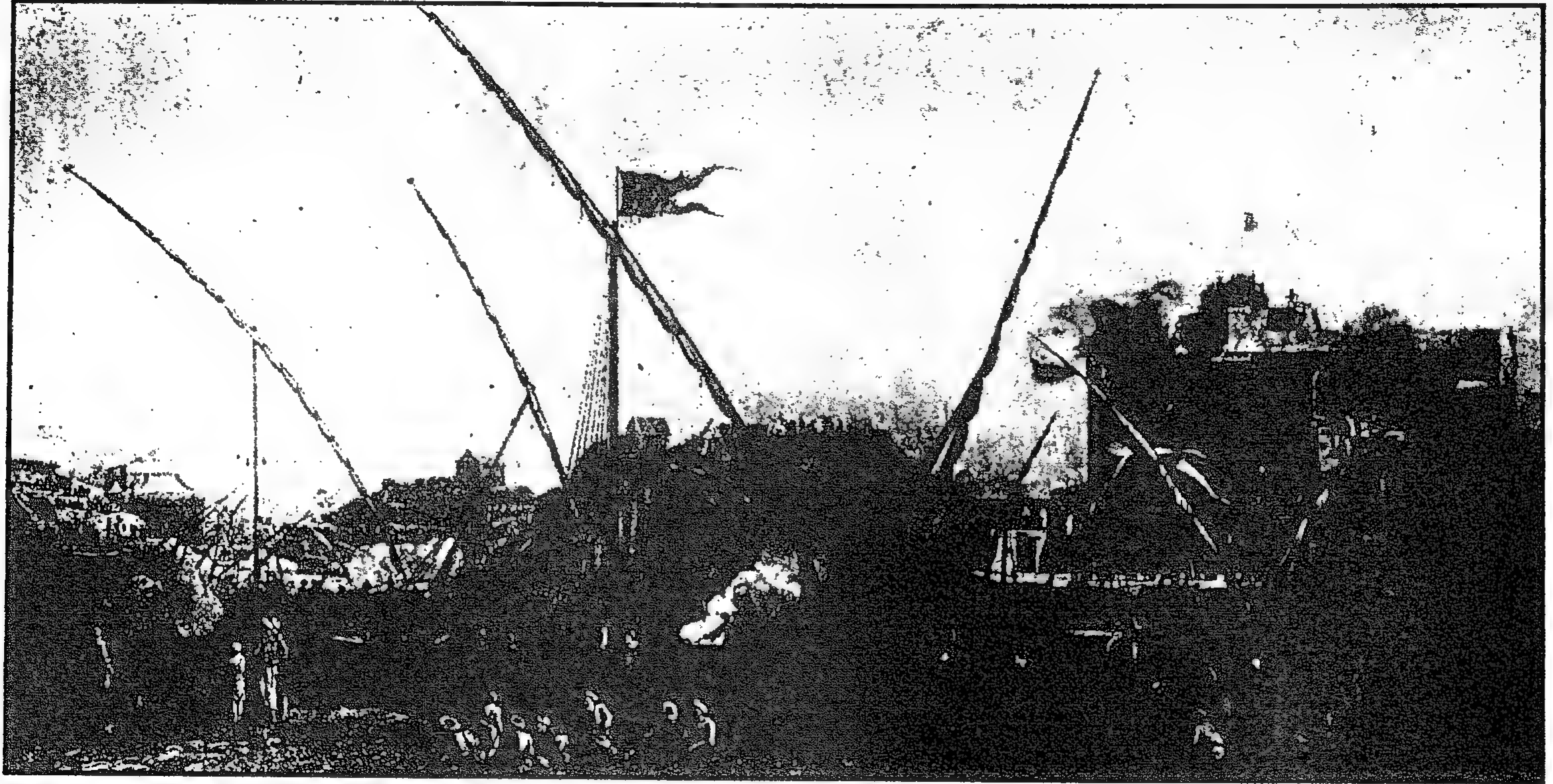
أما الثورة التى لم يكن مناص منها فان كفاءة النظام المالى قد عجلت بنشوبها بقدر ما عجزت الدعاية الإسلامية عن منعها طويلا . وكان الشعور الوطنى فى مصر إلى ذلك الحين موجودا فعلا ، ولكنه اتخذ شكل نفور سلبى من تلك الادارة الغير مصرية التى هيمن عليها أجانب كفار . وسرعان



مرادبك

ما تبين للفرنسيين بعد وقوع فتنة القاهرة (٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨)[1] انهم لم يفتحوا مصر بعد بالرغم من أنهم قضوا على مستعبديها . وعلى أن هذه الفتنة قد قمعها «جينو» بشدة أوقعت الرعب فى كل من كانت تحدثه نفسه بالاقدام على مثلها . وقد كتب نابليون بهذه المناسبة إلى «مينو» (٣١ يوليو سنة ١٧٩٨)

(١) هذه الثورة من الاهمية بحيث ينبغى ذكر قصتها هنا . وتتلخص فى انه فى يوم ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ جاء الى الشيخ البكرى جمع كبير من أولاد الكتاتيب والفقهاء والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الأوقاف وغيرهم وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها غير المسلمين. فوعدهم بالمساعدة على نيل حقوقهم ان قدموا شكواهم الى الديوان . واجتمع المشايخ فى الازهر فى اليوم التالى وأرسلوا القراء يطوفون الاسواق ويقولون «فليذهب كل من يوحد الله إلى الجامع الازهر هذا يوم الجهاد فى محاربة الكفار وأخذ الثار » فاحتشدت الجماهير أمام الجامع الأزهر ويمموا شطر بيت القاضى وبدأت أعمال النهب والتخريب . فذهب الجنرال ديبوى قائمقام القاهرة يستطلع الخبر فرماه بعضهم من النوافذ بحربة كانت القاضية على حياته . وتفاقمت الحالة والفرنسيون لايستطيعون دخول المدينة إلى أن ركب نابليون فى مقدمتهم وتوجه شطر الأزهر وطلب من العلماء وقف الرعاع عن التجمهر . ولكنهم لم يصدعوا لأمره وكان قد بلغه نبأ عزم بعض العربان على دخول القاهرة. فأرسل إلى العلماء أحد أركان حربه ولكن الثائرين قتلوه. وفى تلك الاثناء وصل كليبر من الاسكندرية بجيشه. فهجم الفرنسيون وأطلقوا فى الساعة الثالثة بعد الظهر مدافعهم على خط الازهر وظلت القنابل تتساقط إلى المساء . فأجمع رأى =



حفلة فتح الخليج فى يوم ١٣ مسرى أيام بونابرت.وقد اشترك فيها نابليون مراعاة للعادات الوطنية.وكان الخليج نهرا يصل ما بين النيل والبحر الأحمر فكانت السفن فى البحر المتوسط تصعد إلى النيل ثم تدخل الخليج ومنه الى البحر الأحمر

يقول انى أطيح خمس أو ست رؤوس يومياً فى شوارع القاهرة . ولا ريب



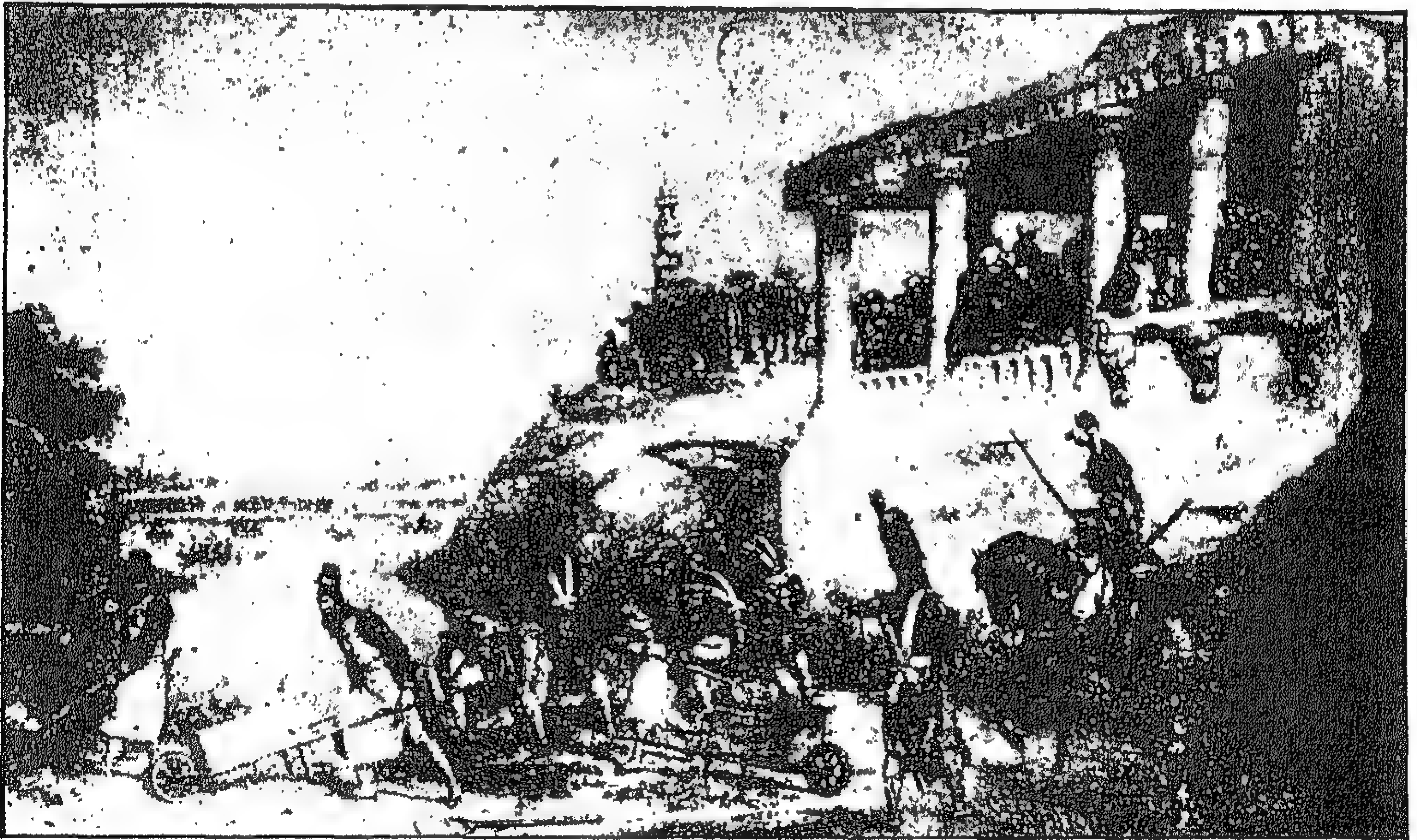
نابوليون بونابرت بلباسه الشرقى

فى أن هذه الفتنة كانت من أشد ما عاناه الفرنسيون منذ هبوطهم أرض مصر . أما فى حصار الأزهر — مركز الثقافة الاسلامية — فان خسارة المصريين بلغت من الفداحة ما بلغته خسارة المماليك فى موقعة الأهرام .

= المشايخ على التسليم وذهبوا إلى نابليون يستعطفونه فعفا عنهم بعد أن وبخهم أشد توبيخ .
ثم دخلت فرسان الفرنسيين الى صحن الجامع الازهر وكسروا قناديله ومحوا ما على جدرانه من الآيات القرآنية : وفى يوم الثلاثاء ٢٤ أكتوبر خرج الناس للصلاة فاذا بالخيل تهاجمهم . وفى صباح الاربعاء بعث المشايخ يطلبون من بونابرت اخراج الخيل من الجامع فرفض طلبهم الا اذا جاؤوه بزعماء الثورة . ثم جعل يقتص من كل من تقع عليه الشبهة رجالا ونساء حتى قتل من المشايخ ١٢ دفعة واحدة ووضع جثثهم فى أكياس ألقاها فى النيل وصمم على اتباع الصرامة مع المصريين ومنع المشايخ من المباحثة فى الديوان وحصر عملهم فى بث المنشورات بين الشعب لتهدئة ثائرته .

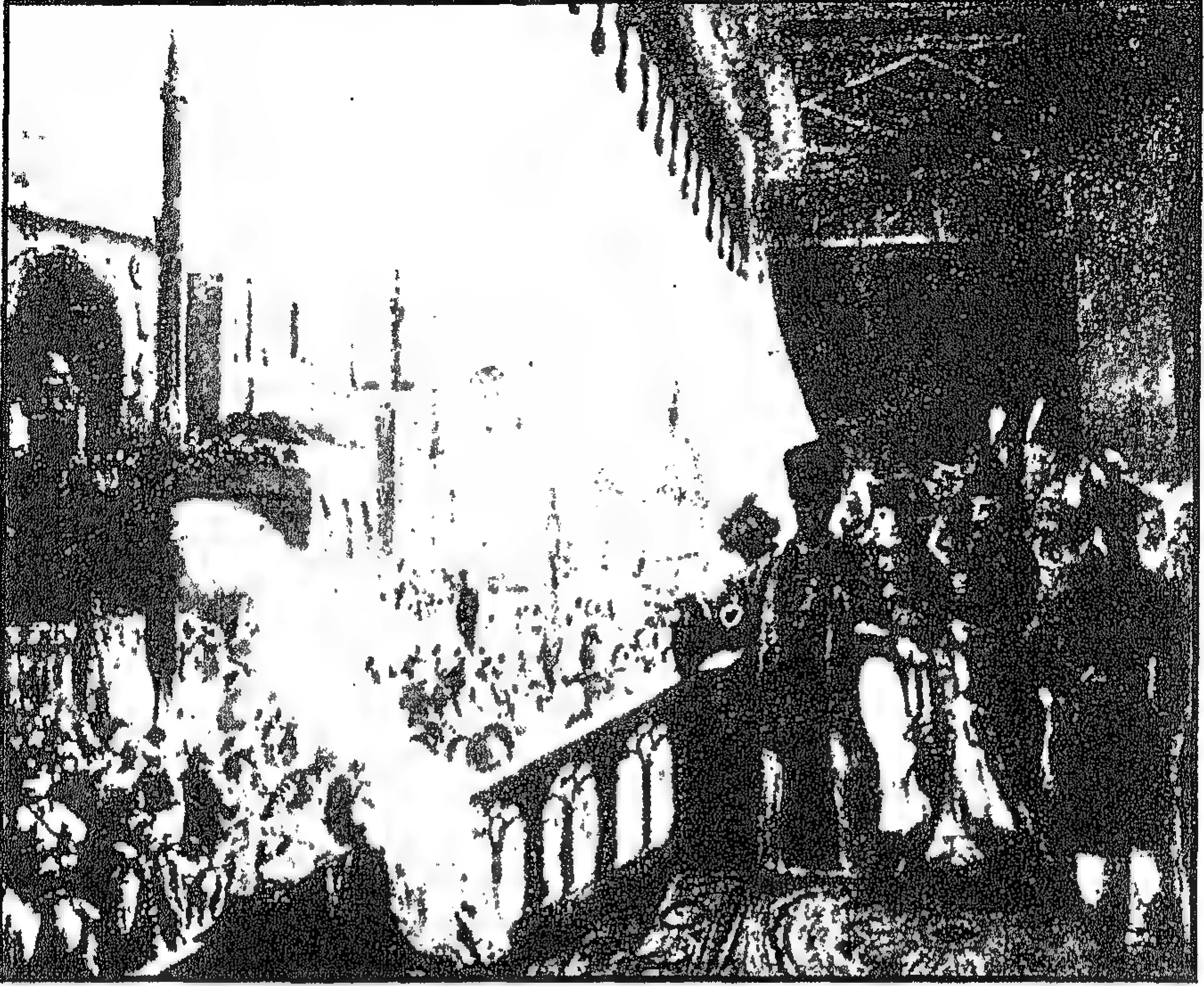
وهكذا تبين لأول مرة ان المصريين يقاتلون من أجل غاية وطنية ظلت منذ ذلك الحين حجر الزاوية فى حركتهم القومية .

أجل أن مصر قد خضعت فيما بعد ، ولكن كان لا يزال على نابليون أن يحسب حساب الامبراطوريتين البريطانية والعثمانية . نعم كان فى وسعه التغلب على كل منهما بمفردها ، أما وقد تألبتا عليه فقد كانتا فوق طاقته على التحقيق . ولم تجد السياسة البريطانية — وهى التى عرفت بالجنوح دائماً إلى التقلب مع الدول الأخرى دون أن تعنى عناية خاصة



نابليون وحاشيته يحتفلون بمولد النبي وكان المشايخ قرروا عدم اقامة الاحتفال لعدم وجود المال فأعطاهم نابليون ٣٠٠ ريال وأمر باقامة الاحتفال كالمعتاد واشترك فيه الجنود الفرنسيون وأحرقوا الصواريخ أمام دار البكرى والذى قلد فى ذلك اليوم فروة وتقلد نقابة الاشراف

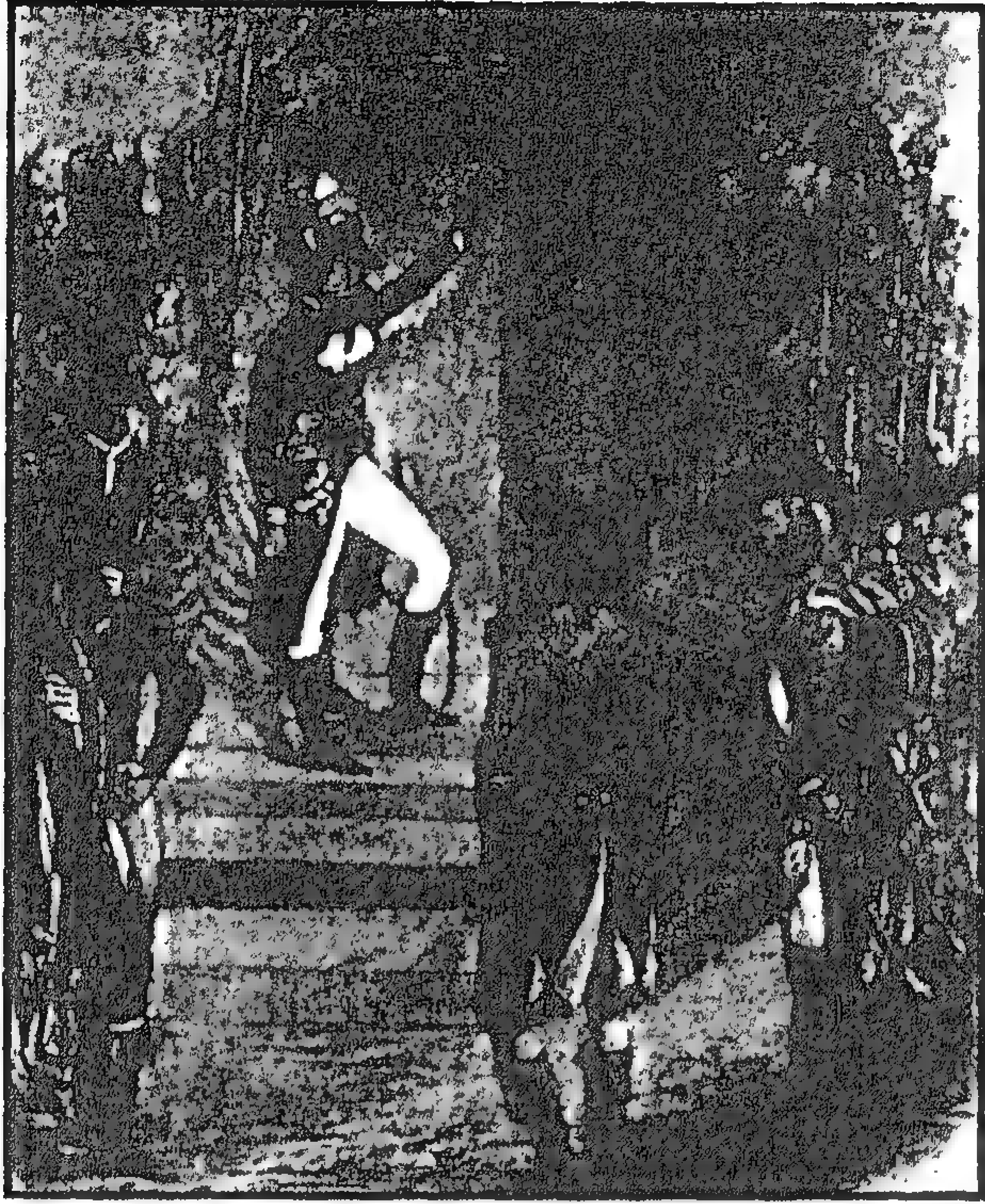
باختيار حلفائها — أية صعوبة فى أثارة نخوة الأتراك وتحريضهم



بونابرت يحضر حفلة وفاء النيل



بركة حديقة الازبكية من جهة الجنوب قبل تجفيفها وهى من بعض الاصلاحات التى عنى بها الفرنسيون



نابوليون يحتفل بعيد الجمهورية فى القاهرة

على استرجاع أخصب ولاية فى امبراطوريتهم فى (سبتمبر سنة ١٧٩٨). وإذ خيل إلى نابليون أنه سوف يقاتل الأتراك وحدهم شرع من فوره فى غزو سوريا (مارس سنة ١٨٩٩) والزحف على الاستانة . وفى يافا قتل أحد الجنود الفرنسيين من حاملى الراية البيضاء فذبح ألف من الاسرى الاتراك انتقاماً لهذا العمل مما صبغ الحملة الفرنسية بوحشية كانت على التحقيق سبباً فى هزيمة الفرنسيين فى نهاية الأمر . ثم اجتيحت يافا ولكنها انتقمت من الجيش الفرنسى بتفشى الطاعون بين صفوفه [1] .

---

(١) تتلخص قصة قتل حامية يافا فى أن بونابرت عند ما وصل المدينة أمر بمهاجمتها فى ٤ مارس سنة ١٧٩٩ وكانت حاميتها أخلاطاً من الأتراك والمغاربة والأرانطة والأكراد. فلما اخترقوا أسوارها تتبعوا حاميتها إلى أن أعلن الأرانطة ومنهم تتألف أغلبية

وبدا الهجوم على عكا حيث كان يقيم أحد المماليك المدعو « أحمد الجزار » وهو رجل طالما عاث فى البلاد السورية فسادا . وهنا تدخلت فى الأمر قوة بريطانيا البحرية بوصول عمارة السير سدنى سميث التى كانت تحاصر الاسكندرية. فان « الجزار » بعد أن كادت موارده أن تنضب قد زود بالمؤن



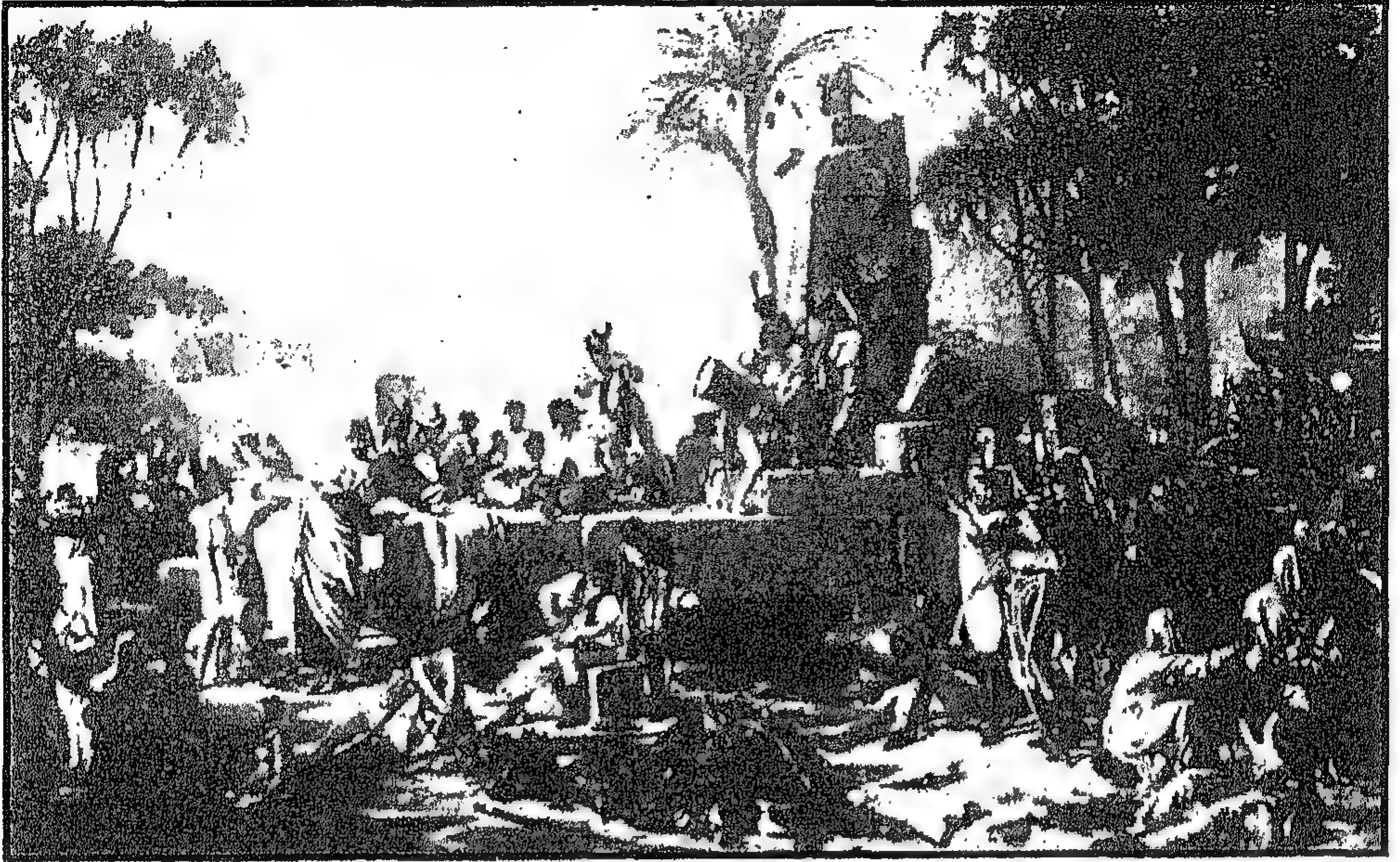
الشيخ السادات ٭

= الحامية « نحن نسلم لكم أنفسنا إذا أمنتمونا على حياتنا » فوعدهم أركان حرب بونابرت بهذا . فاستسلموا فقادهم موثقين وعددهم ٤٠٠٠ حتى أتى بهم المعسكر الفرنسى . فلما رآهم بونابرت قال للقادم « ماهذه الجماهير ؟ » قال « هى حامية المدينة قد سلمت وجئنا بهم إليك » قال « ماذا تريدون أن أفعل بهذا العدد أعندكم زاد يكفيهم أو مراكب تنقلهم إلى مصر أو فرنسا وإذا أرسلناهم فى البر فمن يتولى خفارتهم ؟ »

فأجابه قائلا « إنا قبلنا تسليمهم حقناً للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب أن تفعلوا ذلك ولكن مع الأطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الأشداء المجندين » . ثم أمرهم بالجلوس مكتوفى الأيدى أمام المعسكر . وفى اليوم التالى فرقوا عليهم شيئاً من البقسماط الجاف والماء .

وعقد نابليون مجلساً فى خيمته للتفكير فى أمر الأسرى وبعد عدة جلسات وكثير من التردد قرر إعدامهم جميعاً . وفى ١٠ مارس سنة ١٧٩٩ خرجوا بهم بعد الظهر إلى الصحراء خارج يافا وقسموهم فرقاً وأطلقوا عليهم الرصاص فقتلوهم جميعاً . فلما بلغت هذه الفعلة مسامع « الجزار » فى عكا صمم على الاستبسال فى القتال خوفاً من أن يصيبه مثل ما أصاب أهل يافا .

٭ فى سنة ١١٩٩ هـ جاء الجيش التركى وهزم المماليك فجمع القائد التركى قبطان باشا أمتعتهم ونساءهم وعرضهم للبيع فى قصر العينى . وهنا تصدى له الشيخ السادات فمنعه من بيع النساء قائلا : « قد أرسلت إلينا لمعاقبة ابراهيم بك ومراد بك وليس لهتك شرائعنا والطعن فى عاداتنا فاستثنى قبطان باشا المحظيات الحوامل من البيع . ولما جاء نابليون مصر استدعى الأعيان ومنهم الشيخ السادات فأهداه خاتماً من الماس .



جيش ديزيه يصل الى أسوان متعقبا جنود مراد بك وهو آخر ما وصل اليه الفرنسيون فى الصعيد



حيفا وخليج عكا

وأرسلت اليه النجدات والضباط الذين شرعوا فى تنظيم خطط الدفاع . وفى الوقت نفسه اجتاز جيش تركى نهر الأردن وأخذ يهدد مؤخرة الفرنسيين . فكر عليه نابليون بمساعدة قائديه كليبر وجينو وهزمه فى موقعة جبل كابور واستولى بعد ذلك عنوة على أسوار عكا (ابريل سنة ١٧٩٩) [١] .

ولكن عكا كانت آخر ما وصل اليه نابليون فى سبيل إنشاء أمبراطوريته الشرقية لأنها (عكا) رأت أن لا مخلص لها من الكارثة التى حلت بيافا من قبل إلا بالمقاومة العنيفة . وقد استبسل الأهالى فى القتال حتى طردوا الفرنسيين من داخل المدينة بعدما أضناهم قتال الشوارع . وإذ فشلت الهجمة الرابعة عشر رفع الفرنسيون الحصار بعد أن فتك فيهم الطاعون شر فتك وأصبحوا مهددين بجيش تركى جديد . ولم يكن الفشل وحده نصيب نابليون بل خدشت سمعته أيضاً لأن حنقه الشديد على الانجليز دفعه إلى

---

(١) بعد أن قتل نابليون حامية يافا قصد إلى عكا حيث كانت قد تحصنت تحصيناً منيعاً بهمة واليها أحمد باشا الجزار وهو الرجل الوحيد الذى كان يعتمد عليه الباب العالى فى سوريا . ثم أمر بونابرت بتسيير الجنود إلى المدينة . وكانت عمارة السير سدنى سميث قد زادت الجزار تمسكا بالدفاع . وفى ٢٠ مارس سنة ١٧٩٩ بدأ القتال واستبسل الجزار واستنجد بقوات صيدا ودمشق وحلب بينما كانت المدرعات الانجليزية تشد أزره .

وضرب بونابرت الحصار على عكا وأرسل بعض جنوده إلى صد وصور وطبريا وغيرها فعادوا بالخيرات والمؤونة . ثم وصلت المدرعات الفرنسية من اسكندرية ومعها المؤن . وفى يوم ٩ مايو وهو اليوم الخمسون للحصار هجم الفرنسيون هجوماً عاما ولكن الحامية بمساعدة العمارة الانجليزية والنجدة التركية بقيادة حسين بك ، صدت هجومهم هذا وهجوم اليوم التالى . فيئس بونابرت من فشله هذا وخرجت عليه المدن السورية الأخرى وانضمت إلى الباب العالى . ووزع السر سميث منشورات على مشايخ لبنان يستفزهم فيها ضد بونابرت مما حملهم على الكف عن توريد البارود والخمور للفرنسيين . وهنا قرر نابليون العودة إلى مصر وهو يسحب ذيول الانكسار .

رفض اقتراح سدنى سميث بترحيل الجرحى الفرنسيين وعددهم ١٢٠٠٠ وأن يؤثر تركهم تحت رحمة الأتراك الذين أفنوهم على بكرة أبيهم . على أن قائديه « لان » و « مورات » ما عتما أن أنقذاه مرة أخرى بانتصار باهر أحرزاه فى جهة أبى قير (١٤ يوليو سنة ١٧٩٩) بجيشهما البالغ عدده ٦٠٠٠ ضد جيش الانكشاريين وكان يبلغ ١٨٠٠٠



معركة أبو قير ٢٥ يونيه سنة ١٧٩٩

وبعد استيعاب الصحف التى حرص الانجليز على ارسالها إليه بمهارة سياسية قرر نابليون العودة إلى فرنسا . وفعلا أقلع إليها فى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ بصحبة معظم قواده تاركا زمام الأمور لكليبر [1] . ولكن مصر

(١) بعد عودة بونابرت من حصار عكا تسلم رسائل عديدة من فرنسا باضطراب الحالة فيها والحاح من مجلس الديركتوار بعودته حالا الى باريس . فكتم بونابرت الامر عن رجاله ماعدا الامير الغاتوم الذى كلفه باعداد بارجتين لنقله . ولكيما لايشتبه المصريون فى الامر عاد الى القاهرة فى موكب الظافرين فخرج الاعيان الى لقائه تصحبهم الموسيقى . وبعد قليل نزل الى الاسكندرية متظاهراً برغبة التجول فى الوجه البحرى ثم كتب =

وامبراطورية الشرق ظلت إلى آخر أيامه متسلطة على عقله وكثيراً ما علقت أحلامه بحراس المماليك وبالجياد العربية والدسائس الشرقية كما أنه كان بعد ذلك يقرب إليه كل من اشترك معه فى الحملة المصرية (١)



الجنرال كليبر

وكانت عكا هى خاتمة المشروع المصرى من حيث علاقته باوربا. ولعلها كانت أيضا خاتمته فى مصر لو لم ترفض الحكومة البريطانية إبرام اتفاقية العريش (٢٤

الى كليبر واليه على الغربية يوليه القيادة العامة على مصر ويبين له وجوب المحافظة على الاحتلال خيفة أن تأتى دولة أخرى فتختطف ماجنته فرنسا من الثمار ووعده بارسال نجدة اليه من فرنسا وأسر اليه بالسبب الذى دعاه الى ترك مصر بهذه السرعة وكتب الى جنوده يأمرهم باطاعة كليبر وأوهمهم بانه سيعود من فرنسا بعد ثلاثة أشهر .

ثم عهد بقيادة الاسكندرية الى الجنرال مينو . وفى ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٩ قرر السفر من الاسكندرية فركب جواده وسار بمن معه الى جهة العجمى فنزل هو ورجاله الى البارجتين حوالى الساعة العاشرة مساء فاقلعتا بهم فى صبيحة اليوم التالى عائدين الى فرنسا .

(١) للوقوف على ما خطر بعد ذلك من الاحلام الخاصة بالفتوحات الشرقية راجع كتاب فاندال المسمى «نابليون واسكندر الاول» المجلد الاول باريس سنة ١٨٩١ وكتاب دريو المسمى «سياسة نابليون الشرقية» باريس سنة ١٩٠٤ وكتاب رولوف المسمى «سياسة نابليون الاول الشرقية» ويمار سنة ١٩١٦ .

يناير سنة ١٨٠٠) التى وضعها سيدنى سميث ونص فيها على ترحيل الجيوش الفرنسية فى السفن التركية . فأدى هذا الرفض إلى إطالة أجل الاحتلال الفرنسى مدة أخرى . وفى هليو بوليس (٢٠ مارس سنة ١٨٠٠) هزم ١٠٫٠٠٠ جندى فرنسى نحو ٨٠٫٠٠٠ جندى تركى ونشبت فى القاهرة بعد ذلك فتنة أخرى اخمدت بعد حصار أسابيع بشدة مصحوبة بهدر دماء غزيرة.ولعل ثورة مصر وقتئذ كانت تدل على مافى نفوس الأهلين من حرارة . وكأنما شاءت المقادير أن تحدث فى ذلك الحين مأس كالتى حدثت بعد ذلك بقرن كامل إذ أن أحد الطلبة الأزهريين اغتال كليبر ذلك الجندى الصلب الرأى الشديد الوطأة . وأخيراً أعادت السلطة والأدارة الفرنسية الأمور إلى مجاريها واستأنف المصراوجيون ممن عاشوا بعد الفتنة أعمال التبويب وجمع الآثار [1] . وقد ولى الأمر مينو

---

(١) لما كانت الحوادث التى انتهت بانسحاب الفرنسيين من مصر وما تلا ذلك من ظهور محمد على باشا الكبير على جانب عظيم من الاهمية رأينا أن نجمل ماذكره عنها صاحب كتاب « تاريخ مصر الحديث » فى مايلى « المعرب »

بعد انسحاب بونابرت من مصر

كان بونابرت يرمى بحملته على مصر أن تأخذ شكل احتلال دائم . ولكن كليبر كان على عكس هذا الرأى تماما ولذا لم يتردد بعد سفر نابليون فى أن يصارح ولاة الامور فى فرنسا بجلية الأمور فكان مما قاله «إن أعداء فرنسا فى مصر لايقتصرون على المماليك بل قد انضمت اليهم تركيا وانجلترا وروسيا هذا بينما القوات الفرنسية هبطت الى نصف ما كانت عليه وهم متفرقون فى أنحاء البلاد تنقصهم المعدات والملابس هذا فضلا عن خسارة ١٢ مليون فرنك بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بأمر بونابرت . ولئن كان المماليك قد تشتتوا فلا ينبغى اغفالهم من الحساب كلية لان مراد بك مايزال فى الصعيد مع قوة كبيرة ، هذا بينما الصدر الاعظم يسير لمحاربتنا فى حملة عظيمة . وقد غادر دمشق الى عكا . ثم ان حصوننا ضعيفة وافضل ما أراه مخابرة الباب العالى لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت أن عمارة عثمانية رست أمام دمياط » .

وانصرف كليبر الى الاصلاحات برغم انه كان يستصوب الانسحاب من مصر =

المسلم فجعل باكورة أعماله وضع نظام يتضمن المصالحة والتساهل مع

نهائيا. وكانت تركيا قد أرسلت صدرها الاعظم يوسف باشافى جيش كبير وحشدت فى الوقت نفسه عمارة لمرافقة عمارة السير سدنى سميث بحرا. فرست العمارة العثمانية فى دمياط وأخرجها الفرنسيون منها.

ولما قدم يوسف باشا الى يافا بدأ بمفاوضة كليبر فاسفرت المفاوضة عن اتفاقية العريش ٣ديسمبر سنة ١٧٩٩ ولكن الاتراك عبثوا بهافى ٢٣ ديسمبر ودخلوا العريش مما جعل كليبر يعنف السير سميث على هذا العمل.

اتفاقية العريش الاولى

ثم عقد مؤتمر ثان فى العريش فى ٢٤ يناير وأسفر عن معاهدة العريش وتقضى بانسحاب الفرنسيين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وأبى قير ففرنسا.

ولشد ما كان ابتهاج كليبر والفرنسيين بهذه الاتفاقية كما ابتهج بها الشعب والمماليك وكان من أثرها أن المماليك المعسكرين فى أقاصى الصعيد عادوا باسرهم وذراريهم الى القاهرة بينما الصدر الاعظم كان يسير قاصدا العاصمة. فلما وصل الى بلبيس خرج العلماء والمشايخ باذن كليبر لملاقاته وتقديم فرائض الطاعة لجلالة السلطان.

نقض الاتفاقية

وبينما كان كليبر وجنوده يعدون العدة للرحيل من مصر اذا بالسير سدنى سميث يبعث إليه كتابا يتضمن نقض الاتفاقية بناء على أمر تركيا ومطالبة الفرنسيين بتسليم أنفسهم وسلاحهم كما يفعل أسرى الحرب مع التخلى عن كل مالهم من المراكب والمؤن فى الاسكندرية.

فاستشاط كليبر غضبا وأعد العدة لاستئناف الكفاح واتهم الانجليز بنقض الاتفاقية وطلب الى جنوده الاستبسال فى القتال قائلا لهم — كما يرى فى الصورة المنشورة فى صفحة ٥٣ — « لستم تملكون فى مصر الا بقعة الارض التى تقفون عليها فان تقهقرتم خطوة واحدة حق عليكم الفناء.»

ثم اصطدم بجنود الصدر الاعظم وقهرهم الى الصالحية هذا بينما ناصيف باشا قائد جيش الصدر الاعظم تمكن من دخول القاهرة هو وبعض المماليك فاستثاروا الاهالى وحدثت مذبحة. وتمكن كليبر بعد عودته الى القاهرة من تسكين الحالة بعد معارك شديدة اختنق فى أثنائها ناصيف باشا. وأمر كليبر أن ينادى فى الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد أمر الظافرين بالصبر. وعليه فان الصارى عسكر يعفو عن أهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموما ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه »

الشعب . ولكن هذا الرجل النابه البدين ما كان ليحتمل أن ينجح برغم شرقيته المصطنعة أكثر مما نجح من جاء بعدهم بقرن كامل من الأحرار

ـــ ولما كف الناس عن القتال أمر كليبر بتنظيف الاسواق ورفع جثث القتلى من الطرق العامة والحارات وانارة المدينة ثلاثة أيام احتفالا بالنصر وأعد للعلماء والمشايخ وليمة فخمة . وجعل يعنفهم على خيانتهم فأجابه الشيخ المهدى : « اننا لم نأت خيانة وما كان اتحادنا مع الاتراك الا بأمر منك . »

ولما علم مراد بك بانتصار الفرنسيين جاء الى ضواحى القاهرة للانضمام اليهم ومالبث أن اجتمع بكليبر وتعاهدا على الاتحاد وتهاديا الهدايا الفاخرة وكافأه كليبر على صداقته بأن عينه واليا على مصر العليا .

مصرع كليبر

ولما اطمأن بال كليبر من ناحية مصر وخاصة بعد اتحاده مع المماليك انصرف من جديد الى أعمال الاصلاح . وفى ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠ دعاه أركان حربه الجنرال داماس الى تناول الغداء فى داره بأول شارع بولاق قرب الازبكية . وبعد الغداء خرج كليبر مع مهندس الحملة المسيو بروتين يتمشيان فى الرواق الممتد من بيت الجنرال الى ديوان الجيش . وبينما هما يتحادثان فاجأهما من آخر الرواق رجل فى ثياب خلقة شاهرا خنجره ، فطعن كليبر فى صدره فصرخ مناديا الحرس . وما كاد يهجم عليه بروتين حتى طعنه كما طعن كليبر . حتى اذا سقط المهندس الى الارض عاد الرجل الى كليبر فطعنه مرتين حتى أجهز عليه . ولما سمع ضجيج الحرس اختبأ خلف الحائط ثم اختفى . ولم يجد الحرس الا هذين الرجلين يتخبطان فى دمهما فعادوا بهما الى الدار ولكن كليبر فاضت روحه فى الحال . أما المهندس فقد ظل أياما تحت العلاج .

وانطلق المنادون فى المدينة ينادون بالقبض على القاتل ومالبث أن قبض عليه فعرض على المهندس بروتين فتعرف عليه .

ولما أخذت أقواله اعترف بأن اسمه سليمان الحلبى وقد التقى به أحد الانكشارية فى القدس وكان قد ذهب اليها للبحث عن رجل يقتل كليبر . فطاوعه سليمان على تنفيذ رغبته فى مقابل أعفاء أبيه من الضرائب الفادحة التى يتقاضاها منه والى الولاية . فجاء به الى غزة وزوده بكتاب توصية من أغا غزة الى علماء الازهر . ثم برح سليمان غزة فى ٨ مايو ووصل الى القاهرة فى ١٤ منه ونزل فى بيت مصطفى أفندى ليلة . ولما تمشى بعض العلماء وفاتحهم فى الامر أبوا مشاركته فى الجريمة ولكنه ظل يتربص بكليبر ـــ

البريطانيين فى أمثال هذه المداعبات . وفى الواقع يوجد تشابه غريب بين



الجنرال كليبر يخطب فى جنوده ويستحثهم على القتال

تجارب الفرنسيين فى حقبة الحرب هذه وبين تجاربنا فيما واجهنا من الكوارث فى خلال الحرب العالمية بحيث يصعب على الأنسان ألا يصدق

= الى أن سنحت الفرصة المؤاتية . ثم عين الجنرال مينو لفحص القضية وصدر الحكم باعدام ثلاثة من المشايخ لتقصيرهم فى التبليغ عن نية القاتل بعد معرفتها . أما سليمان نفسه فقد حكم عليه بالاعدام على الخازوق وكان اعدامه هو والمشايخ الثلاثة بعد دفن القائد كليبر .

من مقتل كليبر الى انسحاب الحملة الفرنسية

وعين الجنرال عبد الله مينو قائدا عاما بدلا من كليبر وولد له غلام اسماه سليمان =

أنه وجد فى مصر منذ قرن روح وطنى يقظ بالرغم من أنه لم يتجل بشكل معين .



سليمان الحلبى قاتل كليبر

وسرعان ما انتهت التجربة الفرنسية بانزال تجريدة انجليزية بقيادة آبر كرومبى فى الاسكندرية قوامها ١٦٠٠٠ جندى فالتحمت بجيش مينو فى موقعة كانوباس ودحرته . ولكن آبر كرومبى نفسه سقط قتيلا وجرح السير جون مور. وتلت ذلك معارك عديدة كانت فيها الحرب سجالا بين

ولما كانت انجلترا ما فتئت تعمل على اخراج الفرنسيين من مصر صيانة لمصالحها فى الهند فقد أرسلت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ سفينة و ١٦٠٠٠ جندى بقيادة السير رلف آبر كرومبى فوصل الى أبى قير فى ٢ مارس سنة ١٨٠١ وشاهد آثار العمارة الفرنسية التى حطمها الاميرال نلسون . ومالبث الانجليز أن نزلوا الى البر واصطدمت طلائعهم بحامية الاسكندرية بعد أن انضمت اليها حامية الرحمانية . وفى ٤ مارس وصلت العمارة الانجليزية . وفى ١١ منه احتل الانجليز أبا قير وهاجموا الاسكندرية . فاسقط فى يد مينو وبرح القاهرة فى ١٢ منه قاصدا الى الاسكندرية فلم يصلها الا فى ١٩ وكان الانجليز قد تحصنوا بجوارها أشد تحصين .

وفى ٢١ مارس هجم مينو برجاله على الانجليز حوالى الساعه ثلاثة صباحا ولكن الانجليز كانوا قد أعدوا للامر عدته . فدارت معركة حامية وارتد الفرنسيون ولكن الجنرال آبركرومبى أصيب بجرح قتال لم يمهله الا بضعة أيام وتولى قيادة العمارة الجنرال هتشنسون .

الفريقين. وأخيراً وبعد مفاوضات معقدة سلم الجيش الفرنسي في القاهرة سلاحه (٢٧ يونيه سنة ١٨٠١) وسلم بعده بشهرين جيش مينو في

= وارتاح الفريقان الى يوم ٢٥ منه حيث وصلت للانجليز نجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا. ومن ثم ذهبت قوة انجليزية بقيادة الكولونيل سبنسر فاحتلت بور سعيد بعد أن استنجدت حاميتها بالجنرال بيليار في القاهرة فاعتذر بقلة جنوده فاستغاثت بمينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع.

واصبحت الجيوش الفرنسية مقسمة الى قوات لاتقوى على الدفاع. فالجنرال بيليار في القاهرة وقوته تبلغ ٥٠٠٠ وهو يتأهب لصد القوة العثمانية الزاحفة على القاهرة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا. وحامية الرحمانية وقد خارت قواها بعد سقوط رشيد. والجنرال مينو المحصور في الاسكندرية وقد قطع عنه الانجليز المياه كما قطعوا الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط.

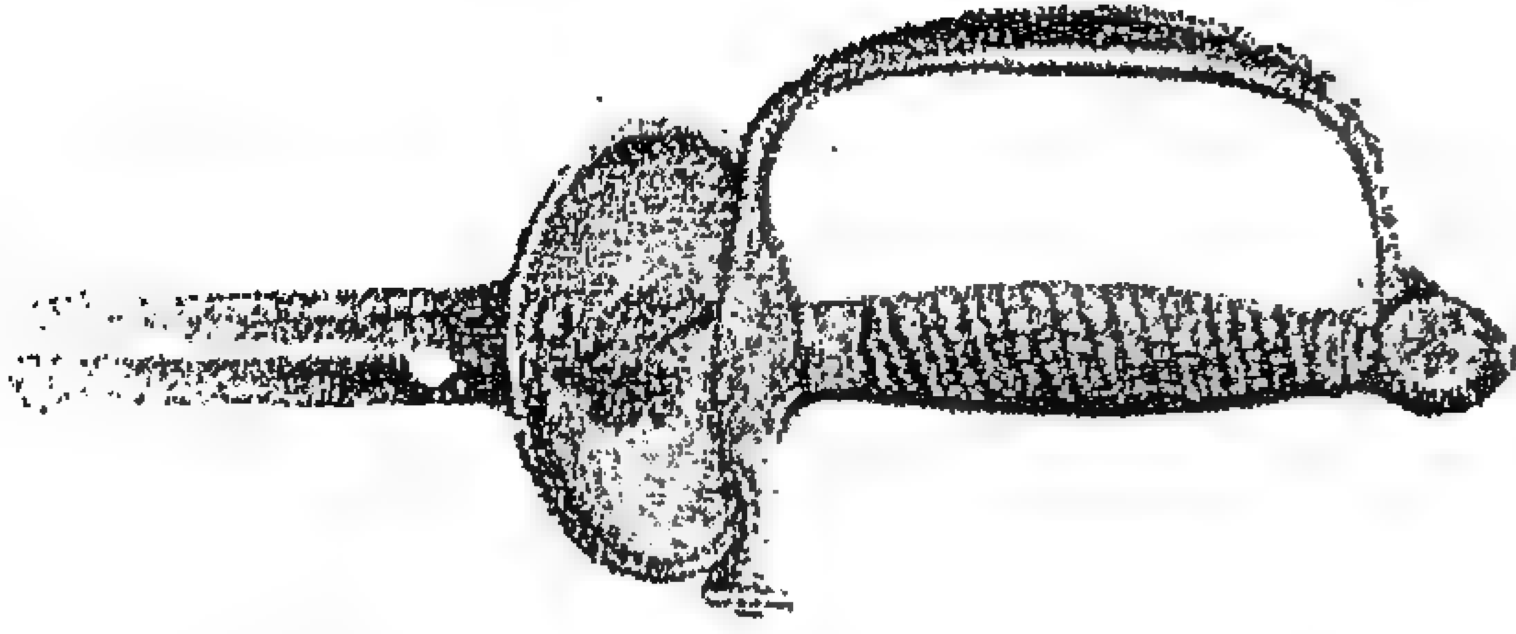
وفي ٨ مايو زحف الاتراك والانجليز بطريق النيل فاستولوا على العطف ثم على الرحمانية. وفرت حاميتها الى القاهرة. فعقد بيليار مجلسا حربيا للبت في الامر بعد ما كادت أن تحيط بهم جيوش الاعداء. فهتشنسون من جهة والصدر الاعظم من الجهة الاخرى. وكان هذا قد استولى على دمياط وزحف على القاهرة في ٣٠٠٠٠ حتى عسكر في بلبيس في ١١ مايو.

وكان مراد بك بعد محالفته للفرنسيين قد ذهب الى جوار ربه فتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي. فلما علم بقدوم الاتراك والانجليز نقض المحالفة.

وبحث المجلس الحربي برئاسة بيليار في الامر من جميع نواحيه. فرأى أن الجيش وهو لايزيد عن ١٢٠٠٠ نصفهم جرحى ومرضى لايترك أمامهم الا أحد أمرين. أما السير بهذا الجيش بطريق النيل لملاقاة مينو أو السير الى دمياط باعتبارها صالحة للحصار اذا طال.

ثم حدثته نفسه بمحاكاة كليبر وخرج في ٥٠٠٠ مقاتل في ١٦ مايو لملاقاة الاتراك والانجليز ولكن مالبث أن تقهقر أمامهم.

وفي ٣ مايو وصل هتشنسون بطريق فرع رشيد الى الجيزة بينما وصل يوسف باشا من الجهة الاخرى. فلما رأى بيليار نفسه محصورا في القاهرة عقد مجلسا حربيا أقر على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية أودمياط. ثم بعث رسولا الى المعسكر الانجليزي وبعد المفاوضة تقرر سحب الجيوش الفرنسية في القاهرة انسحابا قانونيا بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وأن يكون ذلك على نفقة الانجليز. وكتبت بذلك معاهدة أمضيت في ٢٥ يونيه ثم أبرمت في ٢٦ منه على أن تنفذ بعد ١٥ يوما. =


السيف الذى أهداه الجنرال ديزيه للمعلم يعقوب

الاسكندرية بشروط تشابه كثيراً شروط اتفاقية العريش التى لم تبرم . وقد تضمنت شروط الهدنة تسليم « الكتالوج » الفنى والآثار العلمية أيضاً . ولكن المصراوجيين أثاروا عاصفة احتجاج شديدة كانت نتيجتها احتفاظ فرنسا بهذه التحف. أما مصر نفسها فقد أعيدت إلى حظيرة الامبراطورية العثمانية ولكن الجنود البريطانيين لم ينسحبوا منها إلا بعد أن نشبت حرب أوربية جديدة فى سنة ١٨٠٣ وتبين وقتئذ


المعلم يعقوب القبطى*

= وفى ١٠ يولية برح بيليار القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ جندى قاصدين الى رشيد على أن يسافروا منها الى فرنسا . وفى ٧ أغسطس ركبوا السفن عائدين الى بلادهم .

وفى ٢ نوفمبر عقد مينو ومن معه من الجنود فى الاسكندرية معاهدة الانسحاب وانسحبوا فى خلال الشهر نفسه كانسحاب زميلهم بيليار .

وليس شك فى أن هذه المعاهدة لاتختلف فى شىء جوهرى عن معاهدة العريش السابقة التى عقدت فى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ أى بما يقرب من العامين · ولم تكن نتيجة تأخير تنفيذ المعاهدة الاولى الا زيادة سفك الدماء

وعلى هذه الصورة انتهت الحملة الفرنسية بعد أن لبثت فى مصر نحو ثلاث سنوات ونيف اكتظت بالحروب والثورات والفتن · وقد عاد الفرنسيون بخفى حنين تاركين المصريين وهم أشد ما يكونون تمسكا بعقيدتهم الوطنية . وبعد أن فتح بونابرت أعين انجلترا الى خطورة طريق الهند .

* ولد المعلم يعقوب القبطى فى سنة ١٧٤٥ فى ملوى ودخل خدمة سليمان باشا كبير =

أن الشجار مع تركيا من أجل مصر عمل بعيد عن الحكمة السياسية .

ففي هذا الفصل الأول من قصة مصر الحديثة يرى الانسان كيف أدركت عبقرية نابليون أهمية مركز مصر من الوجهة الدولية وكيف كان تشبثه بفتحها سبباً فى تغير مجرى التاريخ الاوربى فلولم تمنع قوة بريطانيا البحرية نابليون من إعادة انشاء الامبراطورية اللاتينية الشرقية لما تعرضت الحضارة الاوربية فى القرن التاسع عشر لهزة قيام الامبراطورية الفرنسية الفجائى ولا لعبء تدهور الامبراطورية العثمانية البطىء .

وقد قال نابليون بهذه المناسبه وهو فى منفاه فى جزيرة القديسة هيلانة « لو أننى استوليت على عكا لوصلت إلى الأستانة ولأسست أسرة فيها » . ولعله كان من سوء حظ انجلترا ومصر وأوربا جميعاً أنه أخفق فى مشروعه هذا .

على أن ما أحدثه نابليون من الفراغ سرعان ما امتلأ بمجازف آخر نهج منهجه واحتذى حذوه الا وهو محمد على (١) الذى أجمع المؤرخون

= الانكشارية لجمع ثروة عظيمة وقد حارب إلى جانب مولاه وكثيراً ما دخل فى المنازعات والحروب التى وقعت بين حزب مراد بك وجيش قبطان باشا سنة ١٦٨٦ ولهذه الصفات الحربية والادارية دخل يعقوب فى خدمة الفرنسيين بعد نزول بونابرت الى مصر . فالتحق بجيش الجنرال ديزيه وأبدى من ضروب البسالة ماجعل الجنرال يقلده سيف الشرف ثم دعاه كليبر لتنظيم مالية البلاد . ثم تسلم قيادة الفرقة القبطية بوظيفة رئيس ثم صار مستشارا لمدير الايرادات العامة وأخيرا منحه الجنرال مينو رتبة جنرال مساعد لبليار فى مارس سنة ١٨٠١ للدفاع عن القاهرة ضد الجيوش الانجليزية التركية فاصابه ما أصاب جيش بليار وسلم مع الفرقة القبطية عند تسليم المدينة فى يونية سنة ١٨٠١ وغادر القاهرة مع الفرنسين إلى فرنسا . والمعلم يعقوب هو الذى وضع مشروع استقلال مصر وقد وجدت منه نسخة فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية تحت رقم ٧٨ مجلد ٣٨

(١) قد رأيت كيفية انسحاب الحملة الفرنسية من الاسكندرية والآن نقص عليك باختصار الادوار التى اجتازتها البلاد الى أن ظهر فيها محمد على ملخصا عن بعض =

بلا استثناء على أنه منشىء مصر الحديثة بالرغم من أنه كان فى خلقه ونشأته أقرب الى أهل العصور الوسطى . وقد حقق للامة المصرية المقبلة — كما

= المصادر العصرية وأخصها كتاب « تاريخ مصر الحديث » « المعرب »

فقد تسلم يوسف باشا الصدر الأعظم زمام الحكم فى القاهرة باسم جلالة السلطان ومساعدة الجنرال هتشنسون بينما ظل حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية حاكم الاسكندرية . وعسكر الانجليز فى مصر القديمة بينما عسكر بقية المماليك تحت زعامة كبيريهم عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى فى الجيزة .

ودبر الصدر الأعظم وقبطان باشا مكيدة للتخلص من المماليك وأوهماهم باعداد وليمة لهم فى أبى قير فلما لبى المماليك الدعوة مالبثوا أن أدركوا الشرك الذى نصب لهم فحاولوا الفكاك منه فنجا البرديسى واثنان آخران وقتل بعض الزعماء هذا فى حين أن الصدر الأعظم فى القاهرة أرسل من رجاله من هاجم المماليك فى الجيزة وأحرقوا بيوتهم فالتجأوا الى الانجليز فلم يضنوا عليهم بالحماية .

وانسحب الجنود الانجليز من مصر نهائيا وبقيت البلاد يتنازعها العثمانيون والمماليك ولما كان لابد من تعيين وال فقد اتفق الصدر الأعظم وقبطان باشا على مطالبة الباب العالى بتعيين خسرو باشا واليا على مصر بصفته كخيا قبطان باشا . فلبى الباب العالى طلبهما » .

وما أن تولى خسرو باشا حتى حاول القضاء على بقية المماليك وقد أصبحوا تحت زعامة البرديسى والالفى . ولكن محاولته فشلت لان المماليك كانوا أصحاب الكلمة فى الصعيد بينما لم يكن يدين للباب العالى بالطاعة سوى القاهرة والاسكندرية .

ولما عجز خسرو عن دفع رواتب الجند ثاروا عليه فى ٢ مايو سنة ١٨٠٣ وأحاطوا بالخازندار فى بيته . فامر خسرو باطلاق النار عليهم فتوسط أركان حربه طاهر باشا فى الأمر وحاول حل النزاع بالحسنى . ولكن خسرو اتهمه بممالأة الثائرين . فاغتاظ طاهر وانضم الى العصاة فعلا وأمرهم بهدم الأسوار . فاستولى الرعب على خسرو وفر بحاشيته واسرته على ضفة النيل الشرقية الى المنصورة ومنها الى دمياط . وإذ ذاك خلا الجو لطاهر باشا فجمع القضاة وأعضاء الديوان فاختاروه قائمقام على مصر الى أن يبت الباب العالى فى تعيين الوالى بدلا من خسرو باشا .

وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب اثنان من الأغوات وهما موسى واسماعيل يشكوان الى طاهر باشا من تأخر مرتباتهما فاخذ يعنفهما فلم يطيقا على ذلك صبرا . فلما اشتد الخصام بينهم استلا سيفيهما وقطعا رأسه وألقياه من النافذة واشعلا النار فى القصر =

حقق من قبل معاصراه منشئآ أمتى الصرب واليونان — أول مرحلة فى سبيل السيادة الوطنية ، الا وهى الانفصال الأدارى عن الامبراطورية العثمانية . إلا أنه اختلف عنهما فى أنه لم يكن من أبناء الأمة الجديدة ولذا



المعلم يعقوب ومعه اثنان من كبار الطائفة القبطية

كانت سياسته شخصية أكثر مما كانت قومية وكان مثله كمثل نابليون عند ما طمح إلى اتخاذ مصر قنطرة لايجاد امبراطورية شرقية . لأن القاهرة كانت عاصمة الخلافة إلى أن نقلها السلطان سليم إلى الاستانة . فلم يك ثمة ما يحول سياسياً وجغرافياً دون اتخاذها — بسبب اشرافها على البرزخ بين آسيا وأفريقيا ولتحكمها فى المواصلات البحرية بين أوربا وآسيا — بدلا من الاستانة المشرفة على البرزخ بين أوربا وآسيا والمتسلطة على الممر البحرى بين الامبراطورية الروسية وأوربا . ولكن محمد على لم يكن يطمح حتى إلى هذا ولا كان اهتمامه بمصر ليبلغ إلى هذا الحد . وأغلب الظن أنه لو استطاع فتح الاستانة لجعلها كما أراد أن يجعلها نابليون مركز امبراطورية جديدة هناك بدلا من القاهرة .

= وهكذا انتهى أمر طاهر باشا صديق محمد على على يدى هذين الاغوين لا كما ذهب اليه المستر يانج .

وهنا أصبحت مصر بلا وال فسنحت الفرصة لمحمد على ليحتل القلعة برجاله ومن ثم بدأ نجمه فى الصعود وأخذ نوره يفيض على هذا القطر الذى مزقته الخلافات كما مر بك .

وقد فشل محمد على فى الوصول إلى الاستانة كما فشل سلفه نابليون وللسبب عينه . وكان محمد على كلما قارب الاستانة ازداد مركزه فى مصر حرجا وازدادت معارضة انجلترا له اشتداداً . على أنه كان أدنى إلى النجاح من سلفه لأن جيوشه وصلت فعلا إلى الاستانة بينما لا تزال ذريته ملوكا مستقلين يجلسون على عرش مصر . أما تعليل نجاحه بالرغم من نقص استعداداته إذا قيست باستعدادات نابليون فيرجع إلى ثلاثة أسباب رئيسية : أولها أنه كان مسلماً صميما ولم يك مجرد أحد المتشيعين للاسلام كما كان شأن نابليون . ثانياً أن الدول والباب العالى كانوا جميعاً منهمكين إبان زحف محمد على فى الكفاح النهائى للتخلص من نابليون . ثالثاً ان محمداعليا اكتسب ثقة المصريين وتأييدهم .



ارناؤوط محمد على

ويلوح أن ماروى عن مخاطرات محمدعلى لم يراع فيه ما أصابه من التوفيق فى توحيد صفوف الشعب وجعلها كتلة متراصة خلفه تمهيداً لانشاء دولة مصرية مستقلة عن الباب العالى وعن الدول . فمن أجل هذا يصح أن يقال أن مصر الحديثة أوجدت محمداً علياً بقدرما أوجدها هو .

وكان محمد على كبقية المصلحين الحديثين فى الامبراطورية العثمانية من مسلمى مكدونيا . وقد كان أبوه من رجال الأرانطة . وكان مولده فى «قوله» فى سنة ١٧٦٩ فعنى الباشا التركى بنشأته وشرع يدربه على أساليب الادارة التركية(١) . وقد أبلى أحسن بلاء فى جباية الخراج وأصاب بعض الثروة من

(١) لعل القارىء قد لاحظ فى كتاب المستر يانج أن المؤلف قد أجمل فى شرح بعض الشؤون التى يهم المصريين الاطلاع على تفاصيلها واسهب من الناحية الأخرى

الاتجار بالتبغ . ثم ما عتم أن ألحق بخدمة خسرو باشا الذى صار فيما بعد من ألد أعدائه وقد وفق إلى قيادة إحدى الفصائل الالبانية . ولما كان

فى بعض المواقف التى لا تعنيهم كثيرا ، ولذلك رأينا أن نفصل بعض ما أجمله ليكون الكتاب الحالى صورة صحيحة لتاريخ مصر فى العصر الحديث .

ولما كانت نشأة محمد على مؤسس الأسرة العلوية وسيرته المجيدة الباهرة وكيفية تغلبه على خصومه إلى أن أصبح والياً على هذا القطر الذى أصبح منذ ذلك الحين يتظلل برعاية هذه الأسرة الكريمة مما يهم المصريين جميعاً الاطلاع عليه فقد رأينا أن نقتبس مرة أخرى عن « تاريخ مصر الحديث » الترجمة الآتية : « المعرب »

محمد على باشا مؤسس الاسرة العلوية

١٨٠٥ — ١٨٤٨

نشأته وشبيبته

ولد محمد على باشا فى مدينة قوله من أب اسمه إبراهيم أغا وكان له من الأولاد سبعة عشر وقد توفوا جميعاً ماعدا صاحب الترجمة . وفى سنة ١٧٧٣ توفى الوالد وزوجته تاركا محمداً علياً وله من العمر أربع سنوات .

وسرعان ما كفله عمه طوسون أغا ولكنه قتل بعد ذلك فأصبح الغلام يتيما . ثم كفله «جربتجى براوسطة» صديق أبيه فلبث بين أولاده وأهله يتعلم ما يتعلمه الصغار فى ذلك الأوان كألعاب السيف والجريد وغيرهما حتى إذا بلغ أشده انخرط فى سلك الجهادية تحت إدارة مربيه . فأظهر فى جباية الضرائب ضروباً شتى من المهارة والبسالة جعلت جربتجى يرقيه الى رتبة بلوك باشى ويزوجه احدى السيدات ذوات الحطام والنشب . فترك الجهادية وتعاطى التجارة وخاصة تجارة التبغ باعتبارها أروج السلع وأكثرها انتشاراً فى بلاده . وأغرم بالتجارة وبرع فيها حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه وهذا سر عنايته بها وتشجيعه إياها عند ماولى أمر مصر فيما بعد .

وظل يزاول التجارة حتى سنة ١٨٠١ عند ماصمم الباب العالى على إخراج الفرنسيين من مصر بمساعدة انجلترا . فبعث اليهم عمارة حسين باشا قبطان كما بعث لهم تجريدة بالصدر الأعظم على نحو مامر بك .

وكان محمد على بين رجال العمارة وقد تجند فى جملة من تجند فى براوسطة بصفته معاونا لعلى أغا بن مربيه على ثلثمائة جندى البانى (أرناؤوط) .

ولما وصلت العمارة إلى أبى قير وهزمها الفرنسيون عاد على أغا إلى بلاده تاركا تحت قيادة محمد على الذى كان قد ترقى إلى رتبة بيكباشى .

الجنود الالبانيون بمثابة السلسلة الفقرية فى الجيش العثمانى وهم الدعامة التى كانت سلطة الأتراك فى مصر ترتكز عليها ، فقد كان من يتولى قيادة

= وأخيراً تمت للعثمانيين بمساعدة الانجليز الغلبة على الفرنسيين وشرعوا يهتمون بتوطيد سلطة الباب العالى فى البلاد .

وكان بين رجال التجريدة العثمانية جماعات من الأرناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجماعات لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . أما الانجليز بقيادة هتشنسون فظلوا فى الاسكندرية ريثما يولى الباب العالى والياً عثمانياً يكبح جماح المماليك الذين كانوا لايزالون يحاولون الاستقلال . فعين الباب العالى محمد خسرو باشا وكان فى الأصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذى سعى له فى هذه الولاية . وكانت معه أوامر سرية باعدام المماليك بأية وسيلة فشرع فى محاربتهم وكانوا فى الصعيد فاستغاثوا بالفرنسيين فلم يغيثوهم .

محمد على وخسرو باشا

وعادت حملة خسرو من الصعيد بالفشل . ثم حاربهم مرارا فى أماكن مختلفة وفى جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد على قد ترقى إلى رتبة « سر ششمة » وأصبح قائدا لأربعة الاف من الألبانيين . فأمره خسرو بمد حملته ، ولكن محمدا علياً وصل بعد أن كانت حملة خسرو قد دارت عليها الدوائر . ونسب قائدها هزيمته إلى تأخر وصول محمد على فحقد خسرو عليه وأصر على إعدامه سرا . فطلب اليه بموافاته فى منتصف الليل لمباحثته فى بعض الشؤون الهامة فأدرك محمد على الحيلة ورفض الدعوى .

ورأى محمد على أن ينجو من اشراك خسرو بالاتحاد مع المماليك وتمكن بواسطتهم من ارغام خسرو على الفرار إلى دمياط وعين بدله طاهر باشا . ولما قتل هذا احتل محمد على القلعة برجاله فقام احمد باشا والى الشرطة يطلب الولاية ولكن المماليك أخرجوه من القاهرة ذليلا وسار الجميع متحدين إلى دمياط فأسروا خسرو وجاءوا به إلى القلعة حيث حجروا عليه .

ولما بلغ الباب العالى ماحدث فى مصر ولى عليها على باشا الجزائرلى فلما وصل القاهرة بدأ يكيد للماليك ولمحمد على فما لبث أن دارت الدائرة عليه .

الألفى والبرديسى

وكان النزاع على أشده بين الألفى والبرديسى وكان أولهما محبوباً لدى الانجليز وقد سافر إلى انجلترا فعلا . فلما عاد إلى مصر حاول البرديسى الكيد له ولكنه سافر إلى الصعيد . وماكاد يخلوا الجو للبرديسى فى القاهرة حتى أثار محمد على ضده الجنود الألبانيين فطالبوه بمرتباتهم وجعلوا يتهددونه إلى أن غادر القاهرة الى الصعيد فى سنة ١٨٠٤ =

إحدى فصائلها يعتبر فى الواقع — وإن لم يكن بصفة رسمية — صاحب الكلمة المسموعة فى السياسة المصرية .

وما كاد الفرنسيون ينزحون عن الديار حتى بدأت الأحزاب السياسية المختلفة فى مصر تتشاجر فيما بينها على الزعامة . وكانت الأحزاب وقتئذ ثلاث شيع : المماليك والألبانيون والأتراك . وكانت انجلترا تؤيد الحزب الأول بينما كانت فرنسا تعضد الثانى . أما المصريون أنفسهم فكانوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل كانوا يوالون هذا الحزب حيناً ويشيحون عنه حيناً آخر .

أما المماليك فمع ذهاب هيبتهم ظلوا محتفظين بأبهتهم وبعددهم كاملة . كذلك كان لهم نفوذهم السياسى نظراً لاستيلائهم على الأراضى من جهة ونظراً لما ورثوه من الجهة الأخرى من الكفاية السياسية من عنصر الخرز الذى كان منه معظم زعمائهم ولكن سطوتهم كحزب قائم بنفسه كانت فى حكم الانتهاء . لأن الخرز كانوا بغيضين إلى المصريين . وقد كان مما يدعو إلى

= وبفرار هذين الأميرين خلا الجو لمحمد على وأصبح مستقلا عن المماليك ومساعدتهم فرأى الاستعانة بالأهالى على تحقيق أمانيه الأخرى . فجمع العلماء والمشايخ وقرروا الافراج عن خسرو باشا وإعادته إلى منصبه . ولكنه لم يمكث فيه إلا يوماً واحداً أخرج بعده إلى رشيد ومنها إلى الأستانة .

خورشيد باشا

ثم أشار محمد على بتنصيب وال عثمانى فوافقه العلماء على فكرته واختاروا خورشيد باشا وكان وقتئذ فى الاسكندرية على أن يكون هو (محمد على) نائباً عنه فى الأحكام بصفته قائمقام . وأرسلوا إلى الباب العالى يسترحمونه باقرار ما أبرموه فأجاب طلبهم بفرمان مؤرخ فى مارس سنة ١٨٠٤ .

وشرع محمد على فى القضاء رويدا رويدا على قوات المماليك فى عدة نواحى القطر إلى أن أصبحوا لا يزيدون عن ٥٠٠٠ — ٦٠٠٠ فارس بينما أخذت ماليتهم فى التدهور =

الدهشة أن السياسة البريطانية اختارت هذه الارستقراطية الفانية لتكون حليفة لها . أما الشخص الذى رشحه الانجليز ليكون « باشا » مصر فقد كان من أشد بكوات المماليك جشعاً وأكثرهم حباً للرياسة الا وهو ألفى بك وقد حدثنا «دياباستى» فى كتابه (الحوادث التاريخية المجلد الثامن) أن ألفى كان يمتاز بالكشك المتنقل الذى كان يحمله فى أسفاره وتشييده قصراً فخما فى القاهره ليهدمه فيما بعد على أن يعيده بعد ذلك سيرته الأولى مرة أخرى وقد تركت أبهته هذه أثراً كبيراً فى دوائر لندن حتى أنه تألفت شركة لتمويله مؤقتاً . ولكن محمداعلياً أصادر الأموال وأنفقها فى ضم الألبانيين إلى جانبه وإقصائهم عن خسرو «باشا» مصر وقتذاك (مايو سنة ١٨٠٣) . وفى الوقت نفسه أغرى الضباط الألبانيين بقتل طاهر صديقه ومنافسه الوحيد .

ولا حاجة بنا إلى الاسهاب فى تفصيل ما قطعه محمد على من المراحل للانفراد بحكم مصر . وقد يستحسن أن نجمل هنا ما قام به من جلائل

= وكان الجنود الألبان مطيعين لمحمد على مما أدخل الهم والحسد فى قلب خورشيد وجعله يستقدم جندا من الدلاة أو المغاربة ليكونوا عدته إذا جد الجد . واتفق أن كان محمد على فى الصعيد منهمكا فى مقاتلة المماليك فأدرك مراد خورشيد فعاد إلى القاهرة مما جعل خورشيد يتوجس منه خيفة . وأخذ الدلاة يعيثون فى البلاد فسادا حتى ضج الأهلون بالشكوى لخورشيد على غير طائل . فلما طفح الكيل أخذ العلماء والمشايخ يفكرون فى التخلص من خورشيد ومغاربته وعقد الولاية لمحمد على .

وفى يوم ٢ صفر سنة ١٢٢٠ هـ ورد لمحمد على مكتوب شريف بولاية جدة فألبسه خورشيد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وهو يعلل نفسه بقرب التخلص منه . ولما أخذ محمد على يتأهب للخروج إلى جدة إذا بالجند تجتمع لتطالبه « بالعلوفة » فقال لهم « هاهو الباشا طالبوه بها » . وتولى عنهم عائدا إلى داره فى الأزبكية (بالقرب من أوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا حبا له بقدر ما ازداد كرههم لخورشيد باشا .



ساكن الجنان محمد على باشا منشىء الاسرة العلوية

الأعمال للتخلص من مزاحميه الرئيسيين . فلقد كانت قد تمت له قيادة القوة العسكرية الوحيدة التي كان يمكن الاعتماد عليها ألا وهي الفصيلة الالبانية ولكن لم تكن تمت له بعد السيطرة على الحزب السياسي الوحيد الذي يعتد به الا وهو حزب المماليك . فرأى أن يكلف البرديسي زعيمهم بمضاعفة الضرائب ليتسنى دفع مرتبات الالبانيين . فثار أهل القاهرة عليه فهدأ محمد علي ثورتهم بان أمر البرديسي برد أموالهم إليهم . وبعد أن أصبح بعمله هذا بطلا محبوباً من الشعب طرد البرديسي ومن معه من المماليك وحل هو محلهم . فهال الأتراك ازدياد نفوذه هذا فأمروه بمغادرة مصر هو ومن معه من الالبانيين ولكن سرعان ما أثار فتنة جديدة اضطر معها الوالي الجديد « خورشيد باشا » الى سحب هذا الأمر . على أن خورشيد دبر حيلة لابعاد محمد علي عن القاهرة بأن كلفه الخروج لمقاتلة المماليك في الأرياف . ثم انتهز فرصة تغيبه واستولى على العاصمة بمساعدة

= وبعد أيام ثلاثة ذهب رهط من العلماء والمشايخ الى دار محمد علي منادين بصوت واحد « لا نقبل خورشيد واليا علينا » فقال لهم « ومن تريدون إذن » ؟ فقالوا « لا نريد أحداً سواك » فتظاهر أولا بالامتناع وجعل يكرر لهم النصح بالاذعان والتزام السكينة فلما ازدادوا إلحافا واصرارا لم يسعه إلا القبول . فأحضروا له الكرك والقفطان وألبسوه إياهما وبعثوا الى خورشيد بأن يغادر القلعة فأبى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالي بما أجمعوا عليه من الرأي . فورد الفرمان بولاية محمد علي بتاريخ ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ الموافق ٩ يولية سنة ١٨٠٥ وبعزل خورشيد الذي سرعان ما غادر القلعة راجعا الى الاستانة .

رواج الدسائس لخلع محمد علي

على أن المماليك وعلى رأسهم ألفي بك لم ينفكوا عن الدس لمحمد علي . وقد حاول زعيمهم أن يغري انجلترا بالتدخل في شؤون البلاد للتخلص من محمد علي ووعدها بوضع مفاتيح القطر في يدها اذا ارتاح باله من هذا المزاحم الخطير . فراحت تلح على الباب العالي بارجاع سلطة المماليك الى البلاد ضامنة أمانة الألفي وخضوعه لأوامر الدولة . فأصغى الباب العالي لاغرائها وعفا عن المماليك باسم كبيرهم الألفي . وكان ذلك =

فصيلة من الجنود الأكراد . ولكن هؤلاء الجنود كانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد لهم وجوه هى أشبه بوجوه الطيور الجارحة وسرعان ما جعلوا أهل القاهرة يترحمون على أيام الالبانيين مستعبديهم السابقين . وقد ذهب وفد للمطالبة بارجاع محمد على إلى العاصمة فأجيب إلى طلبه . ثم طلب عزل خورشيد وفعلا انتخب محمد على والياً مكانه . فحاصر خورشيد فى القلعة ولكن هذا الأخير صدرت الأوامر باستدعائه واحتل محمد على القلعة فى (أغسطس سنة ١٨٠٥) ثم صدر فرمان بجعله والياً على مصر . وقد أعلن هذا وسط الهتاف والسرور العام (نوفمبر سنة ١٨٠٥) وسرعان ما انقلب هذا الهتاف إلى رضى صادر من أعماق القلوب عند ما افتتح محمد على أعماله بحل مشاكل الدولة المالية بالاستيلاء على أملاك الأقباط الذين أثروا اثراء كبيراً بعد أن كانوا يقومون للمماليك بوظيفة جباية الضرائب واقراضهم النقود .

= فى غرة ربيع آخر سنة ١٢٢١ هـ وبعد أسبوعين وصلت عمارة عثمانية تقل موسى باشا واليا على مصر ومعه خط شريف الى محمد على بالانتقال الى ولاية سلانيك واعادة المماليك المصريين الى مراكزهم فى الامارات والأحكام .

على أن محمدا علياً صمد للأمر بحزمه المعروف لجمع العلماء والمشايخ وبعض المماليك الذين انضموا اليه واستكتبهم كتابا الى الباب العالى بالتماس بقاء محمد على واستدعاء موسى باشا وأرسلوا نسخة من هذا الكتاب الى قائد العمارة التى جاءت بموسى باشا . ولكن القائد رفض الكتاب وأصر على اخراج محمد على باشا . وهنا سعى سفير فرنسا فى الاستانة حثيثا ومازال بقبطان باشا حتى أقنعه بوجوب بقاء محمد على . فأرسل الى العلماء يكلفهم بتكرار الطلب وارساله مع ابراهيم بك بن محمد على . وفى ٥ شعبان سنة ١٢٢١ أقلعت العمارة الى الاستانة وعلى ظهرها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك.

وفى أواخر هذا الشهر أى فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وردت ارادة شاهانية بتثبيت محمد على باشا على ولاية مصر مع عدم التعرض للمماليك . وفى الشهر التالى مات عثمان البرديسى . وفى ١٩ القعدة سنة ١٢٢١ مات محمد الألفى واذ ذاك تولى شاهين بك رئاسة المماليك . ولكن شوكتهم أخذت فى الضعف والانحلال وبذا خلا الجو لمحمد على .

وكانت الامبراطورية العثمانية بحيث أنه إذا سهل على أحد تجار التبغ أن يصير والياً لاحدى الولايات فى خلال سنوات قلائل لم يكن من السهل عليه الاحتفاظ بهذا المركز مدة ستة أشهر. لأن قبطان باشا ما لبث أن جاء ذات يوم تصحبه عمارة تركية ويحمل فى جعبته فرمانا شهانياً بنقل محمد على الى سلانيك. ولكن أهالى الاسكندرية والقاهرة أظهروا شدة تمسكهم به مما جعل الباشا يقنع بأخذ رشوة قدرها



محمد على يسير فى شوارع القاهرة بعد توليته الحكم

الانجليز يقاومون محمدا عليا

= على أن الحكومة البريطانية ما لبثت أن رأت فى تثبيت محمد على باشا مساسا بمصالحها فى مصر فجردت حملة من ٨٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر لاعادة سلطة المماليك وكانوا قد تشتتوا فى طول البلاد وعرضها . فوصلت التجريدة الى الاسكندرية فى ١٧ مارس سنة ١٨٠٧ واستولت على المدينة بعد بضعة أيام ومكثت فيها زهاء ستة أشهر لا تستطيع التقدم خطوة واحدة الى الامام ثم أرسلت فرقة منها الى رشيد فانقض عليها الارانطة ومزقوها شر ممزق وجاءوا بالاسرى الى القاهرة.

وفى يوم ٥ جمادى الآخرسنة ١٢٢٣ بويع السلطان محمود الثانى بالخلافة بدلا من السلطان مصطفى . وسرعان ما انسحبت الحملة الانجليزية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) =

٤٠٠٠ كيس وهى الشطر الأكبر من ثروة المدعو جرجس الجوهرى المالى القبطى وأحد الزراع الذين يؤدون الضرائب وقد سبق أن جرده محمد على من أملاكه . ويدل هذا العمل على أن الاستانة لم يكن يهمها من أمر القاهرة سوى الحصول على نصيبها من سلب مصر واعتقادها أن مجال الربح فى عهد محمد على قد يكون أوسع مما كان فى عهد المماليك .



صورة المعلم جرجس الجوهرى

وبعد أن توصل محمد على إلى اتفاق عملى مع الأتراك وجه اهتمامه إلى تخليص مصر من الانجليز وهم الذين كانوا ما يزالون يمدون بأموالهم زعيمى المماليك البرديسى والألفى فى غزواتهما ، الأول فى الصعيد والثانى فى الدلتا . ومن الغريب أن الزعيمين المذكورين توفيا فى ساعة واحدة « بعسر الهضم » كما قيل . . ! فلم يبق للانجليز بعد ذلك إلا أن يعتمدوا فى القتال على أنفسهم . وقد حاولوا مفاجأة الأستانة بعمل جرىء ففشلت محاولاتهم. وإذ ذاك قصد الفيس أميرال لويس ثغر الاسكندرية ومعه قوة عسكرية صغيرة تبلغ ٤٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال فريزر (١٧ مارس

= من مصر بعد عقد اتفاق الصلح مع محمد على الذى رضى عنه جلالة السلطان وأدخل الاسكندرية ضمن ولايته .

وتوسط بعضهم فى الصلح بين محمد على وبين المماليك فتم ذلك وجاء شاهين بك الى القاهرة يحمل الهدايا فأكرمه محمد على وشيد له قصرا فى الجيزة وتبودلت الزيارات مع المماليك .


ساكن الجنان السلطان محمود

سنة ١٨٠٧) ولكن المماليك فى الدلتا كانوا قد تشتت شملهم كما تقهقر من كان منهم فى الصعيد إلى أسيوط . ومع ذلك فان الانجليز أنزلوا جنودهم إلى البر واحتلوا رشيد . ولكن سرعان ما أرغمت حاميتهم على تسليم سلاحها بينما أجهز محمد على فى ميدان القتال على باقى الحملة وقتل نصف رجالها . ثم نساق إلى سوق الرقيق فى القاهرة نحو ٥٠٠ من الأسرى وسط عواميد خشبية علقت فوقها خمسمائة من رؤوس القتلى الانجليز. وأخيراً جلا الانجليز عن الاسكندرية (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) وعقدوا مع مصر صلحا منفرداً . وهكذا فان محمد على الذى ساعد الانجليز فى سنة ١٨٠١ على قهر الفرنسيين تمكن الآن وبدون أية مساعدة من أن ينزل بالانجليز خزيا لايذكر بجانبه مانزل بالفرنسيين من قبل . ومنذ ذلك الحين أصبح يلقب بحامى الأسلام وهازم الأجانب الذين دوخوا الأتراك والمماليك من قبل . ولكن السيادة البحرية جعلت هذه الهزيمة عديمة الأثر فى الموقف الأوربى العام فلم تعرف أنباؤها فى الخارج بسبب الحصر البحرى . ولقد حدثنا « دريو » عن هذه التقارير التى كان يبعث بها قناصل فرنسا فى مصر فيما بين ابريل واكتوبر سنة ١٨٠٧ ولكنها لم تفقد بل هى بلا شك محفوظة فى هويت هول .

والآن وقد خلا بال محمد على من كافة أعدائه فقد رأى أن يتخلص أيضا من العدو الأخير ألا وهو المماليك الذين لم يطردوا نهائياً من الصعيد

إلا فى سنة ١٨١٠ ، ولما كان محمد على قد اعتزم بعد ذلك أن يخرج فى إحدى غزواته فى بلاد العرب فقد عقد نيته على الاجهاز أيضاً على المماليك جملة واحدة بصفتهم حزبا(١) ، فأرسل يدعو رؤساءهم ويبلغ عددهم ٤٠٠ للحضور إلى القاهرة لمشاهدة الحفلة التى سوف تقام بمناسبة رحيل

---

(١) مذبحة المماليك من الحوادث التى كان لها أثرها فى تاريخ مصر ولذا رأينا أن نبين تفاصيلها .

مذبحة المماليك

ما كاد الأمر يستتب لمحمد على فى مصر حتى بدأ ينظم شؤون البلاد الداخلية وينشىء جيشاً محترماً قوى العدد والعدد . وبينما هو ماض فى اصلاحاته إذا بالسلطان محمود يكلفه بارسال تجريدة عسكرية إلى شبه جزيرة العرب لقمع الحركة الوهابية التى كانت قد استفحلت وعظم خطرها حتى أصبح يخشى منها على كيان الامبراطورية العثمانية نفسها.

فصدع محمد على بالأمر وأخذ فى اعداد المهمات اللازمة للحملة التى تقرر أن يرسلها تحت قيادة ابنه طوسون باشا .

بيد أنه فكر فى أمر المماليك وخشى على أمن البلاد منهم فيما لو سارت الحملة قبل أن يفرغ من أمرهم ولذا بيت رأيه على اهلاكهم جميعاً قبل مسير الحملة .

وأنت تعرف أن المماليك بعد أن اضمحل شأنهم كانوا قد قنعوا بالتمتع بأرزاقهم وممتلكاتهم وتفرقوا فى أنحاء القطر فمنهم من سكن الصعيد ومنهم من أقام فى القاهرة . وكان زعيمهم شاهين بك قد أذعن لمحمد على وتصافيا فأقطعه محمد على أرضاً بين الجيزة وبنى سويف والفيوم فالتجأ اليها .

أما قواد الحملة المراد تسييرها ضد الوهابيين فقد غادروا القاهرة فى فبراير سنة ١٨١١ وعسكروا فى الصحراء بالقرب من قبة العزب ولبثوا ينتظرون اتمام تجهيز الحملة ومعها طوسون باشا .

ثم تحدد يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله إلى قبة العزب ونادى المنادون فى المدينة معلنين ذلك الخبر ودعى الأعيان والوجهاء ومن ضمنهم المماليك لمشاهدة حفلة الوداع وطلب إليهم الحضور بالملابس الرسمية .

وفى اليوم المحدد وهو يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١ احتشد الناس عند القلعة وحضر شاهين بك فى جمع من مماليكه فبالغ محمد على فى استقبالهم والترحيب بهم .

التجريدة العربية (فبراير سنة ١٨١١) ولكن ابراهيم زعيمهم المسن كان أحرص من أن يترك حصنه فى بنى سويف ، بل كان أشبه بالثعلب المذكور فى الخرافة . ذلك أنه اكتفى بارسال الرد مصحوبا بقائمة بأسماء من جرتهم خطواتهم إلى عرين الأسد . ولكن شاهين الشاب خليفة ألفى بك خدع بأمل العودة لرؤية مباهج القاهرة بصحبة حاشيته وعددهم ٤٠٠ من البكوات . فبالغ محمد على فى استقبالهم فى القلعة وقدم لهم أقداح القهوة وأكب على مباسطتهم بأطيب الحديث والسمر . ثم بدأ الموكب بعد ذلك

= ثم أديرت أقداح القهوة . ولما حانت الساعة المعينة أمر محمد على بالمسير فسار الموكب وكل فى مكانه منه جاعلين المماليك إلى الوراء يحيط بهم الفرسان والمشاة .

ولما اقتربوا من باب العزب وهو أحد أبواب القلعة فى مضيق بين هذا الباب والحوش العالى أمر محمد على فأغلقت الأبواب وأشار إلى الجنود الألبان (الأرناؤوط) فهجموا بغتة على المماليك فذعروا وحاولوا الفرار بالتسلق على الصخور ولكنهم أخفقوا فى هذه المحاولة لأن الألبان كانوا أسبق منهم ففوتوا عليهم غرضهم لتعودهم على تسلق الصخور .

أما المشاة فقد اقتحموا مؤخرة المماليك وفتحوا عليهم وابلا من الرصاص فحاول هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق أخرى ولكن تعذر عليهم ذلك لصعوبة المسلك على الخيول ، ولما ارتج عليهم ترجل بعضهم وحاولوا الفرار سعياً على الأقدام والسيوف مشهرة فى أيديهم . ولكن الجنود تداركوهم بالرصاص من النوافذ فقتل شاهين بك أمام ديوان صلاح الدين .

ثم نودى فى المدينة بطلب القبض على المماليك وكان كل من جيء به إلى القلعة يلقى حتفه فى الحال .

وبلغ عدد من دعى من المماليك إلى الوليمة ٤٠٠ لم ينج منهم إلا اثنان أحدهما أحمد بك زوج ابنة ابراهيم بك الكبير وكان متغيباً فى إحدى القرى . والثانى أمين بك وقد حضر إلى القلعة متأخراً فانتظر عند باب العزب ريثما يخرج الموكب . فلما أغلقت الأبواب وسمع اطلاق الرصاص أدرك الحيلة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا .

والشائع على الألسن أن أمين بك هذا كان داخل القلعة فلما نشبت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة بالرسم المذكور فى (ص٧٣) . ولكن الأقرب إلى الحقيقة أن هذه الاشاعة مبالغ فيها =



أمين بك المملوك الشارد

= ثم نودى فى الأسواق بأن شاهين بك زعيم المماليك قد لقى حتفه وراح الناس ينهبون بيوت المماليك .

وفى اليوم التالى نزل محمد على من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة آمرا الناس بوقف النهب وانذار من يخالف الأمر بالقتل . وقد قتل فى ذلك اليوم ٢٣ من بكوات المماليك عدا مئات من قتل منهم فى الأقاليم .

ونزل طوسون باشا فى اليوم التالى إلى الأسواق ومعه بعض الجنود لتسكين القلوب ووقف حركة النهب بينما دفن قتلى المماليك فى حفرة حفرت لهم فى القلعة .

فسار فيه المماليك وسط صفين من الألبانيين والأتراك حتى وصلوا إلى درب لافكاك لداخله . وهنا أطلق الجنود النار عليهم فاستبسل بعضهم وخلعوا معاطفهم وحايهم وصمدوا للقتال الى أن خروا مضرجين بدمائهم بينما تلقى البعض الآخر ما حل بهم بجلد ووقار وقد وافاهم حتفهم وهم فى الصلاة وهكذا قتلوا على بكرة أبيهم . وبينما كان هذا يجرى هنا طاحت رؤوس الف منهم فى القاهرة وفى الأرياف وانتهبت قصورهم .
ألا ان للشرق حقا طريقته المختصرة الناجعة للتخلص من الطبقات الحاكمة التى ينزلها القضاء عن كراسى الحكم ! وقد دخل على محمد على وهو فى مخدعه الخاص طبيبه الخاص فألفاه ينتظر وصول الأنباء فحياه بقوله : « إن هذا اليوم حقاً ليوم جليل الشأن لسموكم » . فلم يرد محمد على إلا بأن طلب قدحاً من الماء دون أن يفوه بكلمة واحدة لأن الرجل لم يكن يوماً رجل أقوال بل رجل أفعال .



محمد على بعد مذبحة المماليك

وبعد أن تم إبعاد الفرنسيين والبريطانيين والأتراك والمماليك عن مصر لم تبق فيها إلا سلطة أجنبية واحدة هي الجنود الألبان الملتفون حوله. وسنرى فيما بعد كيف أنه تخلص منهم بدورهم بمجرد أن أصبح فى وسعه أن يحل محلهم أورطا مصرية وسودانية. ولقد قدم محمد على خدماً جليلة أخرى لا تقل عن سابقاتها بأن خلصها بسرعة وبلا مجهود شاق من المخاطرين الاغراب ممن كانوا قد توطنوا فيها. وهؤلاء الأغراب مع أنهم لم تمتد إقامتهم فى مصر بصفتهم طبقات مختلفة، ومع أن الباشوات الأتراك



خروج موكب محمد على باشا من القلعة

والمماليك وحثالة الشراكسة والباشبوزق الألبان لم يكونوا فى البلاد بعد ذلك كطبقات تتنازع السلطة فيما بين بعضها وبعض، فان من ظل من بقاياهم على قيد الحياة سرعان ما اندمجوا فى بعض لتكوين طبقة حاكمة جديدة. لذلك صار زمام الحكم فيما بعد فى السياسة المصرية بيد أوتقراطى يستند أولا الى تعضيد طبقة أرستقراطية شرقية نسميها للسهولة «الارستقراطية التركية»، وقوامها الطبقات الوسطى من الأرمن واليهود والأقباط. وسنرى

أنه بمعرفة أخلاق من جاء فيما بعد من الساسة المصريين ينبغي أن نعرف بالضبط إلى أى عنصر من هذه العناصر كانوا ينتمون مع العلم بأن الناس كثيراً ما يسمون أهالى جورجيا بالجراكسة مع أنهم فى الواقع عنصران مختلفان اخلاقا وكفاءة .

وقد اعتاد الناس أن يعزوا الى محمد على أنه مدن مصر على النمط الأوربى . ولا ريب فى أنه استغل التجارب الأوربية — بقدر ما كان



زوجة محمد على باشا* وأم ابراهيم باشا تصل الى مصر آتية من قوله

يفهمها — لتعزيز مركزه وتوطيده . ولكنه ظل مع ذلك أوتقراطيا اسيوياً كما أن نظام حكومته كان شرقياً بحتاً اللهم إلا إذا استثنينا العنصر الشعبي الوحيد وهو حق التصويت على النمط الاسيوى — وهو عدم إقامة العراقيل فى سبيل الاتصال بالحاكم وعرض الأمر عليه . ولذلك

تعلم محمد على القراءة والكتابة العربية فيما بعد ليكون على اتصال مباشر بأرباب الحاجات . وقد قال عن نفسه مرة « ان الكتب الوحيدة التى تهمنى مطالعتها هى وجوه الناس وهى لا تخدعنى أبداً ». وكان يتكلم التركية باعتبارها لغة الطبقة الحاكمة . ثم أنه كان شديد التمسك بفضائل ونقائص الجنس الألبانى وهو الجنس الذى مد أوربا بعدد من رجالها السياسيين. وكان من حيث التعصب كالاتراك سواء بسواء يضاف إلى ذلك أنه كان يمقت العرب كعنصر ويحتقر الأقباط من أجل دينهم .

أما الدستور الذى أدخله فى سنة ١٨٢٦ فلم يكن شيئاً آخر عدا الديوان المعروف بعد أن أعيد تنظيمه فصار فى وقت واحد مجلساً للدولة ومجلساً خصوصياً ومجلساً للوزراء[1] . ولقد خفض عدد المديريات إلى ١٢

---

(١) ليس من المستطاع طبعاً أن نأتى على كل ما قام به هذا العبقرى النابغة من الاصلاحات وجلائل الاعمال ولكن هذا لا يمنع من الاشارة هنا الى بعض تلك الاصلاحات ونبدأ بحديث الاصلاح الادارى تلخيصاً عما كتبه مؤلف « تاريخ مصر الحديث »

الاصلاح الادارى

فبعد أن دانت لمحمد على الامور شرع فى انشاء الدواوين ومنها ما يسمونه ديوان المعاونة وكانت مهمته النظر فيما تعرضه عليه الدواوين الأخرى والمديريات وسائر الجهات . ثم يأتى بعد ذلك ما يسمونه بالديوان الخديوى وكانت مهمته خاصة بأعمال ديوان الداخلية والخارجية والضابطة. وأنشأ بعد ذلك ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة كما أنشأ ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الأوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس . وقد عهد رحمه الله بادارة معظم هذه الدواوين الى مديرين أورؤساء مصريين وكانت جميعها ترجع فى أحكامها الى الديوان الرئيسى وهو ديوان المعاونة .

وأنشأ للقضاء مجالس ونظم البريد وقضى بحمله برا على يد السعاة وبواسطة السفن بحرا . وأنشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة أبنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة مع جعل المسافة بين البناء والآخر قصيرة ليتسنى فهم الاشارة .

وصارت بمثابة حكومات. ولكن المدير وصاحبه المأمور لم يكن بينهما وبين لقبيهما الفرنسيين الجديدين وهما الحاكم ومدير الشرطة أى شبه مطلقاً. وكان الموظفون العاملون هم عين الموظفين الوادعين الذين لاغنى للادارة عنهم ألا وهم الأقباط. وقد ظلت الحكومة كما كان العهد بها من قبل أى حكومة مالية تضائية. أما النظام المالى فقد سار سيرته المألوفة من قبل أى بالكرباج الممزوج أحياناً بالبقشيش. وليس ريب فى أن إحدى مزايا النظام الجديد الكبرى كانت أن حل محمد على واحد محل عشرين من المماليك.

على أن المعاهد السياسية إذا كان لم يطرأ عليها تغيير ما فان الشؤون الاقتصادية قد أدخلت عليها تجديدات مهمة. فارتكانا على قواعد النظام الاسلامى القديم الذى لا يميز بين ما هو ملك للفرد وبين ما هو ملك للمجموع ولا بين ماهو نصيب المنتج من المكسب وبين نصيب الدولة منه، كان محمد على نفسه المالك الاسمى الوحيد والزارع دافع الضريبة الوحيد والتاجر الوحيد الذى كان يعامل الأجانب. وهكذا تحول نتاج البلاد وممتلكاتها إلى يد الحكومة التى أحلت لنفسها حق الاشراف عليه.

والعجيب أن هذه الثورة الاقتصادية التى لا يوجد ما يشابهها فى الأزمان الحديثة إلا ما هو حادث فى روسيا الشيوعيه الآن لم تحدث إلا استناداً إلى أصح تعاليم الشريعة الاسلامية. ولا نقصد بهذا أن محمدا عليا كان يسمح بأن تقف تلك التعاليم فى سبيل تحقيق غاياته العلمانية. خذ

= أما الامن العام وتوطيده فقد أنشأ له فرقة الضابطة ووزعها فى أنحاء البلاد لتأمين السبل. وبذا اطمأن الأجانب على أرواحهم. لا بل لقد أصبحت المواصلات التجارية سهلة ومأمونة وخاصة بين انجلترا والهند عن طريق البحر حتى استعاضت بها بريطانيا عن طريق رأس الرجا الصالح.

مثلا على ذلك أنه أبعد العلماء عن إدارة الأوقاف التى أصبحت فيما بعد ملكا لأفراد أسرته. ومن الناحية الأخرى امتدت يد الاعتداء إلى الممتلكات الشخصية من جهة المبدأ ولكن الاعتداء لم يكن بليغاً من الناحية العملية. ولقد صودرت بطبيعة الحال أملاك المماليك الشاسعة. ولكن كل ماكان مطلوباً من أرباب الأطيان الاخرين هو أن يسلموا إلى الدولة كل ماتمتلكه أيديهم فتعوضهم عنه بملك قيم جديد يدفعون عنه ايجاراً تافها جداً. وقد ظل للنواحى زمامها ومسحت الأرض مسحاً عاماً من جديد مما ترتب عليه تحديد زمام كل قرية على أن يوزع العمدة هذا الزمام بين الأهالى.

وكانت النية متجهة بادىء ذى بدء الى استخدام مايتجمد من هذه العملية التجارية من الارباح فى سبيل استمرار التحسن الزراعى والصناعى. ولكن الشؤون العسكرية التهمتها كلها فى النهاية. ولاجدال فى أن الفلاح وهو آمن على ماتمتلكه يداه وعلى حصته فى المحصول كان أيسر حالا مما لو كان يبيع غلته بنفسه ويدفع ماعليه نقداً.

على أن أهم ماقام من المصاعب فى سبيل تسيير دفة هذه الدولة الاشتراكية كان فى العثور على الاشخاص الملائمين لهذه الادارة الجديدة. لان محمدا عليا لم يحاول أن يمرن أحداً من المصريين ولكنه لجأ فى أعماله التجارية مع الخارج الى الاشتراك مع قناصل الدول الاجنبية الموجودين فى مصر. وبديهى أن من آثار هذه الطريقة انها جعلت مندوبى الدول المحليين طوع بنانه. وقد نصت معاهدة سنة ١٨١٨ المعقودة بين الدول العظمى والباب العالى على ترك تجارة مصر حرة ماعدا بعض مكوس تافهة ظلت على مقدارها الاصلى ولكن محمدا عليا بمساعدة شركائه القناصل ابتكر عدة حيل مكنته بأن يزج بما لدولته من احتكارات بين سطور المعاهدة.

وغير خاف أن تنمية صناعات جديدة لم يكن بالعمل الهين إذا قيس بالتملص من التعهدات الدولية . فالمصانع التى انشئت لتكون كانموذج ينسج على منوالها كانت منبع خسارة هائلة منذ أنشائها ولو أن هـذه الحقيقة لم تدرك بادئ ذى بدء لعـدم وجود طريقة منظمة لرصد الحسابات. وقد عدل عن المشروعات التى تكلف الخزانة نفقات طائلة واحدا بعد الآخر لان الحرب كانت تستنفد أموال الدولة أولا بأول . على أن التحسينات الدائمة المهمة قد أدخلت على الزراعة وهى بلا ريب صناعة مصر الحقيقية(١)

---

(١) لمـا كانت أعمال محمد على فى هذا الباب مما يشهد بعبقريته فلنجمل هنا بعض ما قام به رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه

الاصلاح الزراعى

كانت بكورة أعمال محمد على فى هذا الباب أنه أمر بمسح كافة الأراضى المنزرعة فى مصر وقسمها إلى مديريات وقسم كل مديرية إلى مراكز وأقسام، وهذه إلى نواح وعين فى كل منهـا من يقوم بادارة أمورها هذا عدا من عينهم لجباية الضرائب . وقد وزع أراضى كل ناحية على سكانها وبذا أصاب كل فلاح قادر على العمل نصيباً يقوم بأوده .
وجعل لمشايخ البلاد جانبا من الأرض أعفاه من الضريبة فى مقابل نفقات ضيافة جباة الأموال الأميرية الذين كانوا يمرون فى بلادهم وما كانت تكلفهم به الحكومة من المهام والشؤون .
وقد رأى بعد أن ارتاح باله من الاعمال العسكرية أن يلحظ الفلاحين بعين رعايته. فعهد إلى ضباط الجيش القدماء بأمر البلاد من الناحية الزراعية وفوض اليهم تعميرها واصلاحها بأنفسهم . ومع ذلك لم يشأ حرمان الفلاح من ثمرة أتعابه بل قضى أن لا تسلم الاراضى للضباط أو المتعهدين متى كانت رائجة وقادرة على أداء الاموال المستحقة للخزانة فى مواعيدها . أما الاطيان الكاسدة فهى التى تحال إلى هؤلاء المتعهدين باختيار أربابها والمتعهد هو الذى يقوم بأداء المطلوب للحكومة . فراجت الزراعة بهذه الواسطة وتحسنت تحسناً عظيما وظلت الاراضى فى أيدى المتعهدين إلى زمن عباس باشا الأول وهو الذى استردها منهم .
وقد زادت بهذه الطريقة مساحة الاراضى الزراعية فى أيامه عما كانت عليه فى عهد المماليك . فقد كانت فى العهد الأخير لا تزيد عن المليون وبعض المليون فدان ولكنها

مثال ذلك ان صانعا ميكانيكيا فرنسياً جيء به لانشاء الأنوال فاقترح زراعة القطن الأجنبي وقد بلغ فعلا ماصدرته مصر فى سنة ١٨٣٨ نحو ٦٠٫٠٠٠ بالة . ثم أن أحد الهنود أدخل إلى مصر زراعة الأفيون والنيلة. ونشط الأرمن فى زراعة تيل القنب الذى كان يستعمل إلى ذلك العهد كمخدر. ولكن محمدا عليا خصص الايراد الناتج من هذا لأسطوله . وقد



يوسف أفندى مدير حدائق شبرا
وهو الذى أدخل زراعة اليوسف أفندى
فى مصر فسمى باسمه *

= بلغت فى عهد محمد على فى سنة ١٨٢١ نحو المليونى فدان . على أن الامر لم يقف عند هذا الحد . بل أخذت المساحة تتسع تدريجا بما ابتكره محمد على من الوسائل لتسهيل الرى وشق الترع وأنشاء الجسور والقناطر والسدود الخ . وبهذا بلغت مساحة الأراضى المزروعة فى سنة ١٨٤٠ نحو ٣٫٧٩١٫٢٢٦ فدان كما فصله الدكتور كلوت بك فى كتابه عن محمد على .

ثم رأى خصب التربة المصرية فشرع يزرع فيها المحاصيل التى لم تكن معروفة فيها من قبل . فجاء إليها بتقاوى القطن الامريكى ثم نبات النيلة من الهند ونبات الأفيون من أسيا الصغرى وجاء بالخبراء العارفين بزراعتها وأكثر من غرس الحدائق والاشجار فى القاهرة وضواحيها تلطيفا لحرارة الجو واستزاده للغيث – مثال ذلك مغارس الليمون فى شبرا والحدائق فى الروضة وحديقة الازبكية مكان البركة المعروفة .

وأنشأ السدود فى أبى قير وغيرها من الجهات وشق كثيرا من الترع وعمل على تطهيرها وأنشأ الترع الصيفية لتنمية الزراعة الصيفية وعهد إلى المهندسين بأعمال الرى وأرسل عدداً من الشبان إلى أوروبا لدراسة فن الزراعة واتقانه .

وليس ريب فى أن أهم مشروعاته فى هذه الناحية القناطر الخيرية . وقد دفعه إلى بنائها =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .


لينان باشا دى بلفون مهندس القناطر الخيرية *

تضاعفت أجور صغار العمال أربعة أمثالها بينما لم ترتفع أسعار الحاجيات إلا قليلا . نعم إن أثمان الواردات تضاعفت بسرعة فبلغ ثمن البن مثلا ضعفى ما كان عليه بينما ارتفع ثمن السكر إلى عشرة أضعافه ولكن ثروة البلاد العامة تضاعفت أيضا بسرعة . خذ مثلا على ذلك أن ضرائب الأطيان التى بلغت فى سنة ١٨٢١ نحو ٦٥٠٠٠٠ جنيه فانها قد بلغت ضعفيها فى خلال عشرة أعوام من ذلك التاريخ . كذلك تضاعفت إيرادات الجمارك وازدادت أرباح التجارة [1] من ١٠٠٠٠٠ جنيه إلى أربعة أمثالها فى خلال المدة

= ما رآه من ضياع مياه فرعى النيل هدرا . ففرع رشيد تذهب مياهه فى أراض غير صالحة للزراعة. بينما فرع دمياط لا تكفى مياهه لرى الاراضى الصالحة التى يمر بها فى أيام التحاريق. ثم أن الصعيد تشح فيه المياه فى وقت التحاريق لارتفاع أرضه وقد لا ترتوى إلا فى زمن الفيضان . فأمر بانشاء القناطر الخيرية على عرض فرعى النيل وأن تجعل لها بوابات حديدية تغلق وتفتح عند الاقتضاء . وهى وسيلة للانتفاع بها بما يزيد من مياه فرع رشيد باضافته إلى مياه فرع دمياط . ثم إذا جاء الفيضان قليلا أغلقت قناطر الفرعين فترتفع المياه فى الصعيد فترتوى أراضيه. وفى أيام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض متعطشة إليها .

الاصلاح التجارى

(١) بعد أن كثرت حاصلات البلاد عنى محمد على بتنشيط التجارة ورأى أن لا بد من إنشاء ميناء تأوى اليه السفن التجارية فآثر الاسكندرية على دمياط ورشيد وشق فيها ترعة المحمودية نسبة للسلطان محمود الثانى فعظمت حركة نقل البضائع بين الاسكندرية وداخل القطر وأصبحت لهذه الميناء أهمية كبيرة وقصدها التجار من كافة أنحاء العالم . ثم أصلح مرفأ بولاق وسهل أمام الأجانب سبل التوطن فى مصر مما زاد حركة التجارة نشاطا =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .

الآنفة الذكر أما إيراد الدولة الذى كان فى سنة ١٨٢١ دون المليون جنيه فقد أصبح الضعف فى خلال العشرة الأعوام التالية ثم بلغ ضعفى ذلك أيضاً بعد خمسة أعوام أخرى .

على أن ما وضعه محمد على من نظام محتكرات الدولة أدى إلى تنمية طرق جديدة للانتاج دون ان يثبط ذلك من المشروعات الفردية (١)



بوغوص بك *

ولم يختل هذا النظام إلا بعد أن ضربت الرشوة أطنابها وبعد أن اضطرت الدولة بسبب ما تكبدته من نفقات الحروب الأجنبية إلى انتهاز الفرص

= وقد رأى توطيدا لاعماله التجارية هذه أن ينشىء مجلسا تجاريا مؤلفا من وطنيين وأجانب للحكم فى القضايا التجارية.

احتكار حاصلات البلاد

(١) وقد عمل محمد على على تصريف حاصلات البلاد بنفسه فاحتكر الحاصلات والمصنوعات وتولى بيعها رأسا للتجار السوريين والاوروبيين واليونان والارمن . وكان يتتبع حركة الاسعار فى الأسواق كسائر التجار فتارة يكون الكسب من نصيبه وطورا يكون بالعكس. وكان يبيع البضاعة تسليم الاسكندرية وينقلها على نفقته بواسطة السفن فى وقت الفيضان. وكانت له فى بولاق وكالات تخزن الأقطان والسكر والكتان والحناء وعلى تلك المخازن وكلاء لايسلمون منها شيئا إلا بأمر الباشا . وكان يدون أرباحه من هذه التجارة فى دفاتر حكومته .

وقد ذكر كلوت بك أن ميزانية سنة ١٨٣٣ بلغ الدخل فيها ٦٢٫٧٧٨٫٧٥٠ فرنكا منها نحو ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنكا من التجارة وبلغ الخارج ٤٩٫٩٥١٫٥٠٠ فرنكا ثلثها لنفقات الجيش وكان من أكبر أعوان محمد على فى المسائل التجارية والمالية بوغوص بك الارمنى المتوفى سنة ١٨٤٤ .

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .

للعمل بالربا الفاحش. كذلك شرع الفلاح يحدد نتاجه بعد أن هبطت حصته فيه إلى السدس وبعد أن دفع إبراهيم ثمن هذا السدس بدلا من النقود عسلا أسودا رديئا جاء به من مصانع السكر الخاصة به وبعد أن اختلت الموازين وتلاشت الثقة بسبب الغش.

وهذا ما حدا بمحمد علي إلى تسخير عمال الزراعة في العمل في مزارع الحكومة وهو حل منطقي يحتمله المصريون بصبر لا تقوى عليه اية أمة أوربية. ولم يكن محمد علي برغم ما أسداه إياه شركاؤه الأجانب من المساعدة في تنمية ما طمحت إليه الدولة من مشروعات تجارية عظيمة موفقا كل التوفيق. بل أنه تعرض بين آن وآخر إلى خسائر فادحة. مثال ذلك أنه باع في سنة ١٨١٦ مليون بوشيل من القمح (والأردب يعادل ١٠ بوشيل) بسعر البوشيل ٣ شلن ونصف. على أن عجزه عن تسليم القمح للمشترين إلا بعد هبوط سعر البوشيل إلى شلن ونصف جعل ربابنة السفن يرفضون تسلمه بل تركوه عرضة للتلف على الميناء. ولكن كان النظام على وجه العموم مفيداً للدولة وغير مرهق للفلاح. وكان بين ما أدت إليه من نتائج هذه التجارة التي باشرتها الحكومة شق ترعة المحمودية لتصل نهر النيل بالاسكندرية مما وفر على سفن الغلال مؤونة السفر إلى رشيد للوصول منها بطريق البحر إلى الاسكندرية.

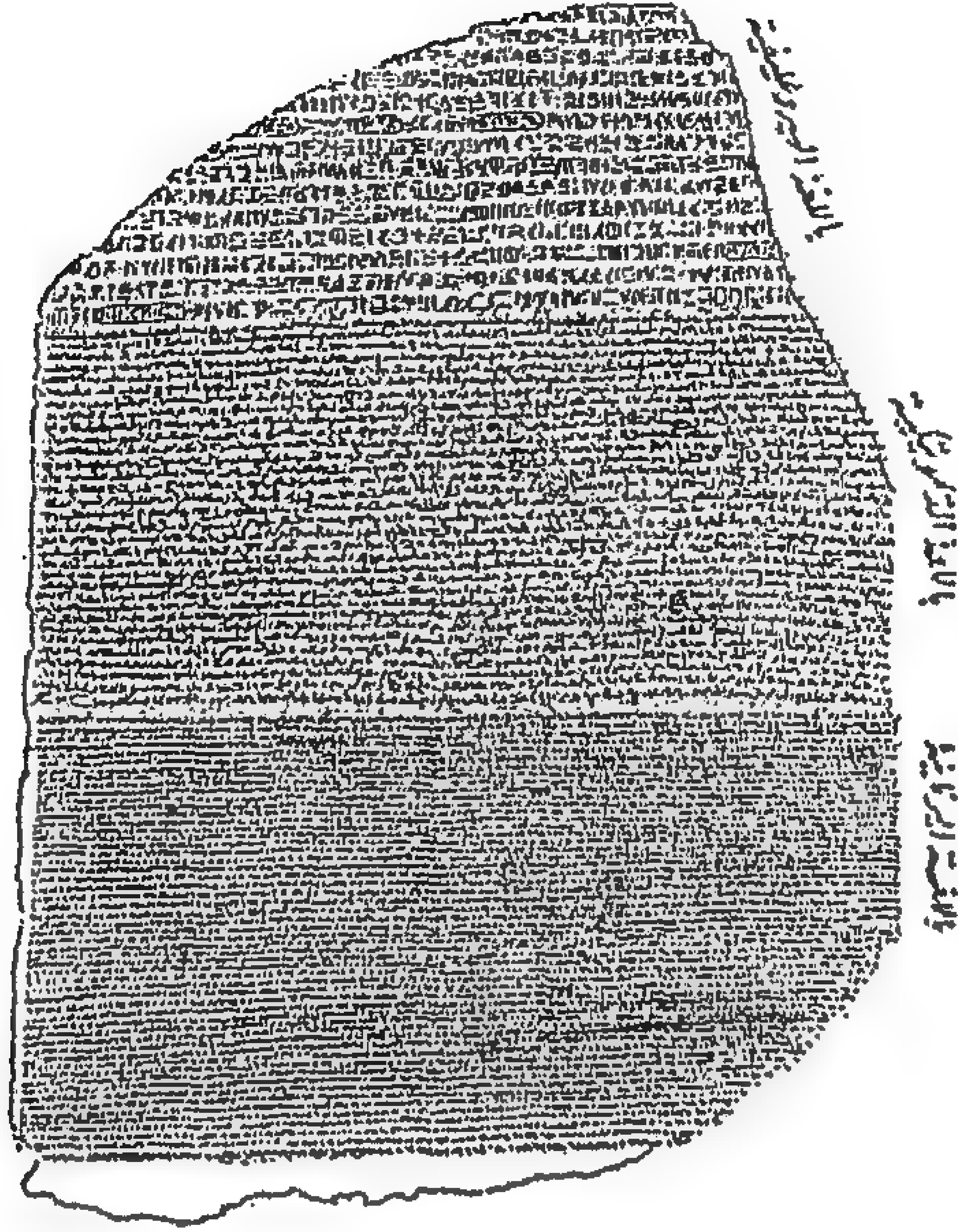
ومن الغريب أن هذه الاشتراكية التي لا تجد حتى في وقتنا الحاضر أي تأييد في الخارج متى كانت وليدة ثورة شعبية قد استقبلتها الصحف الأوربية منذ قرن مضى أحسن استقبال وعدتها من أكبر آثار ذلك الملك المجازف ولا زلنا نذكر تلك الرنة المألوفة التي كانت تجرى في البلاغات الرسمية لذلك العهد. خذ مثلا ما كتبه القنصل باركر في سنة ١٨٣١ اذ قال مانصه: «عند ماهبطت مصر سنة ١٨٢٦ كان من رأى الجميع أن الوالى

لن يظل على العرش أكثر من ستة أشهر أخرى وأنه سائر حتما إلى الخراب بسبب ما يقدم عليه من مشروعات جنونية لا تتناسب بتاتا مع موارده. ومع ذلك فان ما كان يظن وقتئذ أنه مشروعات مستحيلة التنفيذ لم تبلغ ضخامتها خمس ضخامة ما نفذ فعلا من المشروعات منذ ذلك الحين كلا ولا بلغت عظمتها عشر عظمة ما هو معروض الآن على بساط البحث من المشروعات . ولما كنا والحالة هكذا قد شهدنا انجاز بعض المشروعات كما شهدنا تقدما كبيراً فى سبيل إنجاز البعض الآخر مما كان يعتبر إلى أربع سنوات خلت ضربا من المستحيلات أو حلما من أحلام رجل مسلوب العقل فان من الانصاف أن نسلم بأننا نجهل كل الجهل مدى ما لدى هذا الرجل من موارد يلوح إلى أنها تكفى لتنفيذ مشروعاته » [1]

أما المساعدة الفنية الأجنبية فكان اعتماد محمد على فيها على الفرنسيين وهم الذين كانت امبراطوريتهم فى شمال أفريقيا حتى ذلك الحين عبارة عن مجرد حملة تأديبية موجهة ضد الجزائر بعكس سلطة بريطانيا البحرية التى كانت واقفة على الدوام بالمرصاد عند مدخل مصر الأمامى وهو الاسكندرية ومدخلها الخلفى وهو السويس. ولكن الفرنسيين رغم ذلك كله ما برحوا يهتمون بمصر إهتماماً عمليا . فلا تنس علو كعبهم فى فن الحرب

---

(١) لعلك سمعت الشىء الكثير عما أنشأه محمد على من الصناعات المختلفة التى عفت آثارها مع ما توخاه رحمه الله من إنشاء المعامل واستجلاب الصناع من الاقطار الاوربية . وكان مما أنشأه معامل عديدة لحليج القطن ونسجه وللنيلة وصنع الطرابيش التونسية والورق والغزل وأنواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف ومعامل الاسلحة المختلفة . « المعرب »



حجر رشيد

وهكذا صار شمبليون (١) أبا المصراوجية بدلا من منافسه يانج ، بينما أن

---

(١) قد رأيت مما مر بك أن بونابرت عند ما هبط مصر اصطحب معه عددا من المصرلوجيين الذين يرجع إليهم الفضل فى وضع أساس نهضة بلاد النيل من الناحية العلمية والثقفية . كذلك رأيت أنهم ظلوا يواصلون أعمالهم فى مصر حتى بعد انسحاب الحملة الفرنسية . بقى أن تعلم أن أولئك المصرلوجيين وجهوا اهتمامهم إلى دراسة اللغة القبطية ليتوصلوا عن طريقها إلى حل الرموز الهيروغليفية . وقد نحا شمبليون نحوهم فى سنة ١٨١٨ فى دراسة تلك اللغة ودراسة جغرافية مصر القديمة وكل ما كتب قديماً عن مصر والمصريين . وبينما هو جاد فى دراسته عثر على الكتابة اليونانية المرسومة على المسلة المصرية التى وجدها بلزونى الايطالى فى جزيرة البربة وأرسلها إلى أوروبا لفك طلاسمها . فتبين لشمبليون أن الكتابة اليونانية هى ترجمة الكتابة المصرية . ومما لفت نظره فى الكتابة اليونانية أعلام وأسماء أعلام لا تترجم بينما وجد فى الكتابة المصرية نقوشاً محاطة بخط اهليلجى . وقرأ فى الكتابة اليونانية اسم بطليموس مكررا مراراً فحكم بأن النقوش الهيروغليفية المذكورة هى اسم بطليموس . ثم ازداد اقتناعاً برأيه هذا عند ما رأى اسم بطليموس هذا واردا فى الكتابة اليونانية على الحجر الرشيدى ويقابله فى الكتابة الهيروغليفية هناك نقوش محاطة بخط اهليلجى كالنقوش التى على المسلة تماماً =

الكولونيل سيف الذى حاربنا ملاحا فى موقعة الطرف الأغر ثم قاتلنا

ـــو من ثم أخذ شمبليون يتوسع فى مقابلة النقوش الهيروغليفية بما على المسلة من الكتابة اليونانية مستعيناً بمادرسه من اللغة القبطية إلى أن توصل إلى حل الرموز الهيروغليفية وأصبح هو صاحب الفضل الأول فى حل طلاسم تلك اللغة. هذه هى خلاصة ماأورده صاحب «كتاب تاريخ مصر الحديث». «المعرب»

وإليك ترجمة ماهو منقوش على الحجر الرشيدى نقلا عن كتاب «تقويم النيل» لمؤلفه سعادة المربى الكبير أمين باشا سامى.

ترجمة الكتابة التى على الحجر

فى اليوم الرابع من شهر خانيكس من السنة التاسعة الموافق لليوم الثامن عشر من شهر امشير عند المصريين قد صار بطليموس (ايبفانيس) الصغير ملكا وظهر بمظهر والده على سرير ملكه وهو سيد البلادين البحرية والقبلية المتصف بالقوة والبأس المدبر لأمور بلاد مصر المسدى إلى أهلها النعم الكثيرة صاحب الاحساسات الشريفة بالنسبة لآلهة البلاد بما أظهره من علامات الاحترام والتعظيم لها وفعل الخيرات فى معابدها. وهو الذى ظفر بأعدائه وصير الناس سعداء. كما أنه صاحب الأعياد التى استمرت ثلاثين سنة. وقد اختاره الاله (يتاح) (فتاح) وقواه الاله (رع) ولذا ظهر بمظهرهما فى البلاد البحرية والقبلية. وهو صورة الاله (آمون) وابن الاله (رع) بطليموس ايبفانيس دامت حياته محبوباً من الاله (فتاح) بن بطليموس وارزينا كاهن الاسكندر والآلهة المدافع عنهم (حورس) الذى أخذ بثأر والده (أوزيرس).

هذه الكتابة هى صورة محضر كتب بحضور رؤساء كهنة البلاد وحضور كتاب اللغة المقدسة (الهيروغليفية) والكهان المصريين وغيرهم تذكاراً لجلوس الملك بطليموس المحبوب عند الاله (فتاح) على كرسى الملك وحصل اجتماع فوق العادة فى مدينة منفيس وشهد الحاضرون بفضل بطليموس ونوهوا باحترامه للآلهة وافاضته الخير على المعابد وأهل البلاد القبلية والبحرية. ولذا رأوا من الضرورى كتابة هذا المحضر على حجر صلب وأن تكون كتابته بلغة الآلهة (الهيروغليفية) ولغة المكتوبات الاعتيادية (الديموتيكية) ولغة اليونان وان يوضع فى معابد الدرجة الأولى والثانية والثالثة بجوار تمثال الملك بطليموس وبجوار تماثيل كبراء الآلهة.


سليمان باشا الفرنساوى *

فيما بعد جنديا فى موقعة ووتارلو قد صار اسمه سليمان باشا (١).

فشرع فى تنظيم الجيش المصرى وكاد يزج بنا فى حرب أخرى مع الفرنسيين.

وثمت رجل فرنسى قدير آخر هو كلوت بك الذى أخذ على عاتقه القيام بمشروع بعيد المدى وهو

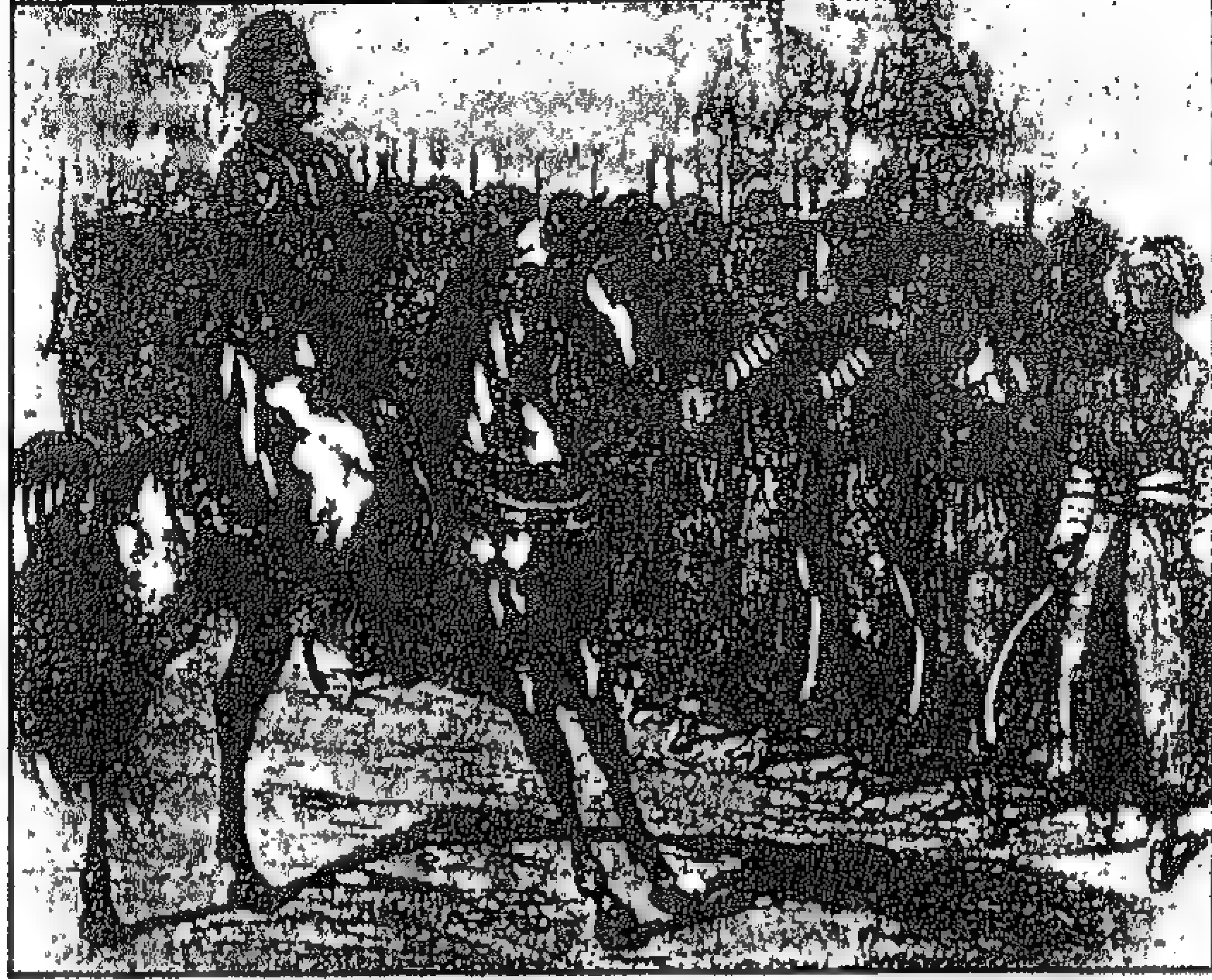
(١) الكولونيل سيف أو الجنرال سليمان باشا الفرنساوى (كما أصبح يعرف بهذا اللقب فيما بعد) هو صاحب الفضل بلا مدافع فى تدريب الجيش المصرى على النظام الفرنسى فى عهد محمد على . ولابد قبل الخوض فى حديث الكولونيل سيف أن نقف بك قليلا أمام الاصلاحات العسكرية التى أراد مؤسس مصر الحديثة أن يدخلها على جيشه قبل أن تتيح له الفرصة للتعرف بالكولونيل سيف . وقد كتب بهذه المناسبة صاحب « تاريخ مصر الحديث » فصلا شيقا فى هذا الموضوع نلخصه فيما يلى :

« المعرب »

لقد رأيت أن القوة العسكرية التى تولى محمد على أمرها عند ما هبط مصر كانت خليطا من الألبان (الأرناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية والغلونجية وغيرهم ولم يكن لهؤلاء نظام عسكرى عدا النظام العتيق الذى انتقل مع الزمن من الاجداد والآباء إلى الابناء والاحفاد . وكم كابد محمد على من المصاعب فى حمل أولئك المرتزقة على اتباع التدريب العسكرى الفرنسى الذى ابتكره بونابرت . ولكن الأرانطة عدوا ما أقدم عليه محمد على من البدع وهو لذلك ضلاله وكل ضلالة فى النار فثاروا عليه فرأى من الحكمة أن يلجأ إلى تنفيذ رغائبه فيهم تدريجاً .

فاختار بعض فتيان المماليك وأرسلهم إلى الصعيد لتعلم أساليب الفن العسكرى الحديث على بعض الأساتذة الافرنج . وفى سنة ١٨٢٥ أنشأ فى قصر العينى مدرسة أعدادية أسماها المدرسة التجهيزية الحربية أدخل فيها نحو ٥٠٠ طالب من أبناء المماليك وأبناء الاتراك والاكراد والالبان والارمن واليونانيين دون أن يكون فيهم ابن وطنى واحد. ==

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون .



سليمان باشا يؤنب المماليك لأنهم أخفقوا فى اصابة صدره
ويلح عليهم فى إطلاق النار عليه مرة أخرى

فتعلموا القرآن والنحو وأداب اللغة التركية والفارسية والعربية بينما كانت لغة التدريس هى التركية . وتعلموا أيضاً الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية لأن ساتذتهم كانوا إيطاليين .

وقر قرار محمد على على أن يرسل بعض أولئك الطلبة إلى ليفورن وميلانو وفلورنسا وروما لدرس الحركات العسكرية وصناعة بناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية . كما أرسل طلبة آخرين إلى انجلترا لدرس الميكانيكا وسلوك البحار ونواميس السوائل . وإذ نظم الجند رأى أن الضرورة تقضى بانشاء مدرسة طبية لاخراج أطباء الجيش. فأنشأ تلك المدرسة فى سنة ١٨٢٥ واختار تلاميذها من أبناء الأرياف أو تلامذة الأزهر خلافا للمدرستين الحربية والتجهيزية .

وأراد محمد على استعجال ثمار جهوده فى هذا الصدد فأرسل فى سنة ١٨٢٦ أربعين تلميذا من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية إلى فرنسا لاتقان الفنون الحربيه والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يجعله يستغنى فيه عن المعلمين الأجانب لأن الوطنيين كانوا إلى ذلك الحين قاصرين على درس العلوم فى الأزهر وهى لا تعدو العلوم الدينية واللغوية . ثم أنشأ مدرسة الطوبجية وأنشأ فى القاهرة مصانع لصب المدافع وكافة حاجيات الجند .

وفى هذه الأثناء ظهر على المسرح الكولونيل سيف وهو من أهل ليون وقد ولد

تهذيب الأمة المصرية وتعليمها . ويؤخذ من أقوال الثقات المعاصرين

= فيها فى سنة ١٧٨٧ وسمى يوسف سيف. وكان أبوه صانعاً رقيق الحال فأراد الاستعانة فى صناعته بولده يوسف . ولكن هذا كان ميالا إلى العمل من نوع آخر أرقى من ذلك. فتمرد على أبيه فعاقبه هذا بادخاله فى سلك الملاحة الحربية فى سنة ١٧٩٩ وهو بعد فى سن الثالثة عشرة . وكم كان اغتباط يوسف بركوب متن الأخطار وعبور البحار إلى أن وقعت معركة الطرف الأغر فى سنة ١٨٠٥ بين الأسطولين الانجليزى والفرنسى . وقد أظهر الفتى يوسف من ضروب البسالة ما دل على حسن استعداده للشؤون العسكرية . وبدلا من أن ينال مكافأة على بسالته هذه حكم عليه بالاعدام لأنه تشاجر مع أحد رؤسائه فانتقل العتاب إلى الملاكمة . وكان يوسف خشن الطبع عنيف الخلق فصبر حتى اعتدى عليه رئيسه وجرحه فانهال عليه يوسف ومازال يضربه حتى كاد أن يقضى عليه .

على أن المقادير بعثت إلى يوسف بالمدعو الكونت بول دى سيغوريقال، وكان يوسف خلصه من الموت مرة فتوسط فى الغاء الحكم العسكرى وإرسال الشاب إلى صفوف الجيش الفرنسى بايطاليا .

ووقع سيف أسيراً بأيدى النمساويين فى أثناء الحرب الفرنسية النمساوية وظل عامين فى الغربة . ثم انخرط فى حملة نابليون على روسيا وأظهر من الشجاعة والاقدام ما لفت إليه نظر بونابرت بصفة خاصة. فأراد مكافأته بنيشان الليجيون دونور. فلما دعاه إليه لمح منه استخفافا بهذا النيشان فحنق عليه وحرمه منه . على أنه ما لبث أن رقاه إلى رتبة كولونيل بعد عودة تلك الحملة المنكودة الحظ .

ولما أفل نجم بونابرت وطوحت به يد القدر إلى جزيرة القديسة هيلانة خرج سيف من الجندية وعكف على التجارة التماساً للعيش وكان حظه منها قليلا . ومالبث أن سمع بأن العجم فى حاجة إلى ضباط حاذقين فى تدريب الجند فذهب إلى صديقه الكونت السالف الذكر يستكتبه كتاب توصية إلى الشاه فنصح له الكونت بالتوجه إلى محمد على باشا فى مصر .

فجاء إلى القاهرة فى سنة ١٨١٩ مزودا بكتاب توصية. فأكرم محمد على وفادته وبعث به إلى السودان للبحث عن بعض المعادن . ولكنه عاد بلا جدوى إلى القاهرة فى يوم عودة الجيوش المصرية مظفرة من الحرب الوهابية .

وإذ ذاك عهد محمد على إلى سيف بتدريب الجيش المصرى على أسس النظام العسكرى =



محمد علي باشا في موكبه
وخلفه سليمان باشا الفرنساوي ثم ابراهيم باشا

ان نظام التعليم فى مصر لم يكن فى سنة ١٨٣٠ يختلف كثيرا عنه فى غرب أوربا فقد كانت هناك وزارة للمعارف وإدارة باهرة تضم مدارس ابتدائية وثانوية وفنية ويقال أن عدد تلاميذ هذه المدارس الأخيرة بلغ على الأقل ٩٠٠٠ تلميذ (١)



كلوت بك *

بيد أنه يلوح أن قيمة محصول هذه الادارة كانت موضع شك . فان

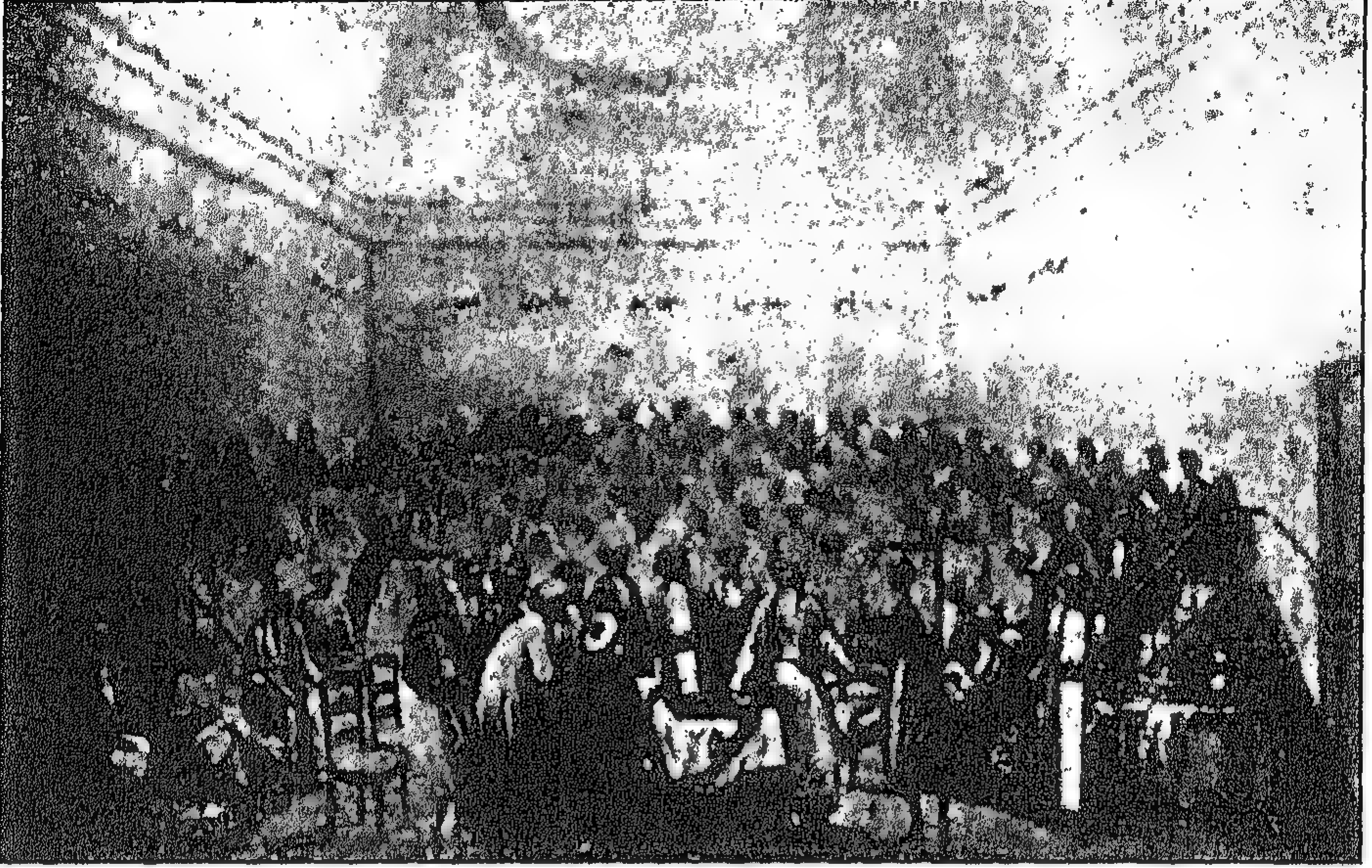
= الفرنسى . فقام الكولونيل بهمته أجل قيام وحارب تحت علم الحكومة المصرية فى حروب المورة و سوريا وتوفى بمصر سنة ١٨٦٠

على أن محمدا عليا لم يكتف بما تقدم من الاصلاحات العسكرية بل أنشأ فى الاسكندرية ترسانة جاء إليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية وأسس فيها مدرسة جلب إليها الأساتذة من فرنسا وانجلترا وبنى حول الاسكندرية حصنا منيعاً كما بنى الحصون فى مختلف الجهات .

(١) الآن وقد وصلنا إلى ذكر كلوت بك فلا نريد أن نعتذر للقراء عن كثرة الاقتباس مما كتبه الغير عن محمد على باشا . فقد رأينا ورأى القراء معنا أننا أمام سيل جارف من الاصلاحات قام بها ذلك العبقرى الفذ مما لم يتسع له كتاب المستر يانج الذى عربناه هنا . فانصافا للحقيقة وتنويراً للاذهان لم نر مناصا من استخراج هذه المعلومات النفيسة التى ظلت مدفونة فى بطون الكتب مهما اتهمنا البعض بالتطويل . وإليك صفحة أخرى من صفحات محمد على الناصعة عثرنا عليها فى كتاب « مشاهير الشرق » للمرحوم مؤسس الهلال بمناسبة ذلك العصامى الكبير كلوت بك رأينا أن نلخصها هنا لا لمعرفة بعض ما أسداه محمد على من الفضل لهذه البلاد فحسب بل وليرى القارىء مثلا صالحا من أمثلة الاعتماد على النفس يضربه لنا كلوت بك « المعرب »

عند ما رأى منشىء مصر الحديثة محمد على الكبير أن ما وضعه المصرلوجيون فى إبان الحملة الفرنسية من البذرة الصالحة فى تربة مصر لا سبيل إلى نموه ان لم يتعهده بالسقاية — وقد رأيت فيما مر بك مبلغ عنايته بها — التفت إلى الناحية العلمية فرأى =

* هذه الصورة مهداة للمعرب من سمو الأمير عمر طوسون.



كلوت بك يلقي أول درس في التشريح على تلاميذه في مدرسة الطب بمصر سنة ١٨٢٧

أن يستقدم من أوربا للاصلاح العلمي النطاسي الشهير الدكتور كلوت بك . وكان قد أراد في بداية الامر أن يعني الدكتور بتطبيب الجيش منعاً لتفشي الامراض وما لبث ان امتد نشاطه إلى نواح أخرى .

ولد أنطون برطلمي كلوت في مدينة جرينوبل بفرنسا في سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين ونشأ نشأة الشظف والعسر واغرم منذ نعومة أظفاره بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وفي سنة ١٨١١ توفي والده بعد أن نزح إلى برينول . وكان للوالد صديق اسمه الدكتور سابيه فلمح مخايل النجابة على الغلام انطون فاتخذه مساعداً له في أعماله الطبية وللتمرن على الجراحة. فانكب أنطون على كتب الطب والجراحة يستوعب مافيها في أوقات فراغه ثم رأى أن برينول تضيق بما يجيش في نفسه فسافر إلى مرسيليا برغم نصيحة والدته إذ كان وحيدها . ولكنه لم يصادف فيها إلا الخيبة فهم بالالتحاق باحدى السفن بصفته جراحا لملاحيها وسدا لحاجته وكان ذلك وهو في سن التاسعة عشرة. ولكن لحسن حظ انطون رفضه الربان وغرقت السفينة في تلك الرحلة .

فدفعت الفاقة أنطون كلوت الى تعاطي مهنة الحلاقة فجعل يتردد على حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى. ثم عاد إلى بلده راغماً والتحق بالمستشفى بعد كثرة الالتماس

الفصول كانت تغص بتلاميذ باكين انتزعوا عنوة من أحضان والديهم الساخطين . ثم لا يعرف بالضبط ماذا كان مصير هؤلاء التلاميذ بعد مغادرتهم المدرسة ويجوز أن يعزى إلى ما قام به محمد على من التجارب التهذيبية قسم كبير من سرعة التطور السياسى فى مصر إذا قورنت بغيرها من الولايات الأفريقية التابعة للامبراطورية العثمانية .

على أن الفضل يعود بلا ريب للجيش فى أن هذه القوة المستبدة تقدمت بأكبر خدمة لايجاد أمة مصرية . وإذا كانت مصر قد ظلت طيلة

= وانكب على المطالعة حتى بز أقرانه وان كان الفقر مازال يصاحبه .

وفى سنة ١٨١٧ أتم دروسه وعين طبيباً صحياً بعد أن درس العلوم بنفسه وأتقن اللغة اللاتينية على أحد القسس ونال درجة بكالوريوس فى العلوم .

وفى سنة ١٨٢٠ أحرز درجة الدكتوراه بعد عناء ليس بعده عناء . ومن ثم أصبح قابضاً على المفتاح الذى يستطيع التعيش به . فعاد إلى مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الأيتام . ولكن أرباب السعايات تسببوا فى إقالته من هذا المنصب. فأكب على العمل مرة أخرى والف كتاباً عن استعمال آلات الولادة فى الأحوال الخطرة. ومن ثم أصبح دكتوراً يشار اليه بالبنان فى فن الجراحة وطبقت شهرته مرسيليا .

وفى سنة ١٨٢٥ اجتمع به المسيو تورنو أحد تجار الفرنسيين بمصر وكان قد عهد إليه محمد على باختيار طبيب بارع يليق بمنصب طبيب لجيشه . فحبب اليه الذهاب إلى مصر فاجاب عن طيبة خاطر. فلما هبط مصر رآى أمامه باباً واسعاً للعمل الصالح والاصلاح الطبى . وكان موضع ثقة محمد على الذى لم يكن يتأخر عن تلبية مايشير به عليه . فأسس بمشورته مجلساً صحياً ليستعين باعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية مرتبة على مثال المجالس الصحية الفرنسية . واتماماً للنظام العسكرى أنشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية . ولما كانت المستشفيات تحتاج إلى أطباء وتمورجية وغيرهم ممن كانت تفتقر البلاد اليهم أضطر كلوت بك أن يعلم كلا من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك . واشهر المستشفيات التى بنيت بمشورته مستشفى أبى زعبل وكان مقر الجند . وأنشىء فى المستشفى بستان للبنات .

القرون الوسطى كمجرد ولاية لا أكثر ولا أقل فسبب ذلك أن المصرى لم يألف القتال منذ نشأته كلا ولا خطر ببال غيره بتاتا أنه سوف يضطر يوماً ما إلى القتال. بيد أنه كان لابد من إيجاد جيش على الطراز الأوربى كدعامة أولى لتوطيد النظام الجديد وهو ما شرع محمد على فى تحقيقه

= وفى سنة ١٨٢٨ أسس المدرسة الطبية فى القرية المذكورة . وقد أراد أن لا يقصر الطب على الجيش بل أن يتعلمه أبناء البلاد . وكان فى أول عهد هذه المدرسة يقوم هو بالقاء الدروس بواسطة المترجمين. وبذلك ترجمت عدة كتب نفيسة فى الطب والجراحة والعلوم الطبيعية وغيرها . ولئن كان التشريح أمراً منكرا فى نظر الأهالى إلا أن كلوت بك حصل على إذن بالتشريح سرا وإن كان ذلك لم ينجه من محاولة أحد الأهالى قتله خلسة بخنجر ولكنه لم ينجح .

وفى سنة ١٨٣٢ سافر كلوت بك فى ١٢ من تلامذة مدرسته هذه لامتحانهم فى باريس فامتحنتهم الجمعية العلمية الطبية وخرجوا من الامتحان بأرقى الشهادات وأسماها . وها هى أسماؤهم .

أحمد الرشيدى وحسن الرشيدى ومحمد منصور وابراهيم النبراوى وحسين الهياوى وعيسوى النحراوى ومصطفى السبكى ومحمد الشباسى ومحمد السكرى ومحمد الشافعى وأحمد بخيت ومحمد على البقلى .

ولشد ما كان سرور كلوت وابتهاجه بنجاح تلاميذه لأنهم كانوا بمثابة النواة فى نشر الفوائد الصحية والطبية فى مصر . وها نحن ننشر فى الصفحة التالية صورة أحدهم المرحوم محمد على باشا البقلى الجراح الشهير .

وفى سنة ١٨٣٨ نقلت المدرسة الطبية من أبى زعبل إلى القاهرة وهى المعروفة بمدرسة قصر العينى . وأنشئت فيها فصول درس القبالة يتعلمها النساء مراعاة للتقاليد الشرقية . وأنشأ لهن مستشفى خاصا بهن مما كانت له أكبر فائدة فيما بعد نظرا لتحجب النساء وعدم السماح للأطباء بالكشف عليهن عند الوضع .

وأنشأ بعد ذلك الاستشارات الطبية فى القاهرة والاسكندرية وألحق بكل منها « أجزاخانة » ولشد ما كانت عناية كلوت بك بدفع غائلة وباء الكوليرا فى سنة ١٨٣٠ مما جعل محمدا علياً ينعم عليه برتبة « بك » فكان أول من نال هذه الرتبة من الأجانب. كذلك أنعمت عليه الحكومة الفرنسية برتبة أوفسييه دى ليجيون دونور . كما أهدته =

بادىء ذى بدء باستخدام رجاله الألبانيين باعتبارهم أقرب العناصر الحربية إليه . ولكن سرعان ما تبين أن تدريب الباشبورق الألبان أشق بمراحل من تنظيم طلبة المدارس الأقباط . فلا غرو أن محاولته تنظم هؤلاء المأجورين



الدكتور محمد على باشا البقلى الجراح الشهير

وجعلهم جنودا نظاميين كان نصيبها من الخيبة والفشل نصيب المحاولة الأولى التى قام بها السلطان محمود الثانى لتنظيم الجنودية الانكشارية . من أجل هذا لم يتمكن محمد على من كبح جماح الفتنة التى سببتها محاولته هذه إلا بهدم السدود وغمر القاهرة بالمياه . على أنه بعد توزيعه الألبانيين بين حاميات الجهات وتشتيت صفوفهم فى حملات الصحراء ومزجهم ببعض بقايا المماليك — بعد هذا كله حاول من جديد أن يشكل منهم جنوداً نظاميين فاستطاع

= الدول الأخرى عدة نياشين لمعالجته رعاياها أثناء الوباء المذكور .

وعاد إلى باريس سنة ١٨٤٠ بعد مرافقته لابراهيم باشا فى غزوة سوريا . ثم رجع إلى مصر وظل بها الى أن انتقل محمد على إلى الرفيق الأعلى وتوفى ابراهيم فعاد إلى مرسيليا فى سنة ١٨٦٠ وتوفى بها فى سنة ١٨٦٨



أول بعثة أرسلها محمد على إلى أوروبا وترى أسماؤها فى الهامش *

أن يكون بعض أورط من هذا الخليط فعلا . على أن وجود أولاده وسط

= والآن وقد وصل بنا الحديث إلى ذكر الأرسليات فمن ذا الذى لم يسمع بالارساليات العلمية العظيمة التى أوفدها عزيز مصر محمد على إلى الأقطار الأوربية للاغتراف من معين معارفها وعلومها ؟ وإذا كنا قد اقتبسنا بعض ما خطه المنصفون عن أعمال محمد على وضروب اصلاحاته فنرانا مسوقين هنا إلى أن نتمم الفائدة ونضع أمام القارىء صورة من أعماله فى سبيل رفع شأن العلم ملخصاً عما كتبه صاحب « تاريخ مصر الحديث » . ونحسب أننا لسنا فى حاجة إلى الاعتذار عن الاسهاب فى الاقتباس فان ما أسداه محمد على إلى مصر من الناحية العلمية جدير بأن يسجل بماء الذهب وهى والحق يقال صحيفة من نور باقية أبد الآبدين . فالق الينا بالك لتشهد هذه المعجزات التى قام بها ذلك العبقرى الكبير « المعرب »

* فى الصف الأعلى من اليمين الى اليسار : مصطفى محرمجى مهندس قناطر وجسور ورفاعة بك رافع ناظر مدرسة الألسن وحسن بك ناظر البحيرة ومحمد بيومى مدرس بمدرسة المهندسخانة والصف الثانى محمد على مدرس بمدرسة الطب ومحمد شباسى مدرس بمدرسة الطب وعلى باشا مبارك (فى الوسط) ووادى بن كلهو ولد فى ليمو ومختار بك ناظر المعارف والصف الأسفل محمد بك السكرى مدرس بمدرسة الطب وأمين بك ناظر الكهرجلات ومظهر بك مهندس قناطر دجوه ومحمد شافعى ناظر المدرسة الطبية



مصطفى مختار بك
وهو أول ناظر للمعارف من تلامذة
بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا



يوسف بك حكيكيان
ناظر مدرسة المهندسخانة من سنة ١٨٣٤
الى سنة ١٨٣٨ بفرنسا

الصفوف بمرتبة جنود بسيطة لم يمنع استمرار أزيز الرصاص بالقرب من آذان المدربين الفرنسيين. لهذا رؤى أنه يستحسن أن يحل محل الألبان سودانيون. وقد جعل ابراهيم يسوقهم أمامه إلى القشلاقات حيث ظلوا معتقلين فيها إلى أن ماتوا ميتة الضوارى فى أقفاصها. ويقال أنه من بين ٢٠٠٠٠ سودانى وجد نحو ٣٠٠٠ ارتضوا حياة



رفاعة رافع بك أول ناظر لمدرسة اللغات والالسن

ـــ ألف محمد على مجلساً للمعارف العمومية غايته تعليم خدمة الحكومة الملكيين والعسكريين مايؤهلهم للقيام بأعمالهم . وفتح عدة مدارس لتعليم الشبان من أهل البلاد وبعث بعضهم إلى أوربا لاتمام دروسهم وبلغ عدد من أرسلهم إلى أوربا فى زمنه ٣١٩ تلميذا أنفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه .



لمبير بك ناظر مدرسة المهندسخانة من سنة ١٨٣٨ الى ١٨٤٩



حسين باشا الاسكندرانى ناظر البحرية من تلاميذ بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

= وقد رأيت أن المدارس فى مصر كانت فى بداية أمرها تابعة للعسكرية فاغتنم محمد على فرصة عودة بعض طلبة احدى الارساليات من أوربا فى سنة ١٨٢٦ وأنشأ مجلساً خاصاً بالمدارس سماه ديوان المدارس برئاسة مختار بك أحد الطلبة العائدين من أوربا . وكان من أعضائه : كلوت بك وكيانى بك وأرتين بك (والد يعقوب أرتين باشا) وهكيكيان بك وأرين بك ورفاعة بك وبيومى أفندى ولمبير وهامون وروزل (سكرتير)

وليس يفوتنا هنا أن نذكر أن محمدا عليا ساوى فى هذا المحل بين الفرنسيين والأرمن والمصريين وكان هم هؤلاء متجها نحو انشاء دولة اسلامية عربية فى مصر عدا الدولة الاسلامية التركية .

وبعد أن تألف ديوان المدارس استأذن أعضاؤه محمدا عليا فى الاكثار من المصريين فى المدارس فأذن لهم ، فأنشأوا مدارس ابتدائية وثانوية فى كافة انحاء القطر على نمط المدارس الفرنسية حيث كانوا يعلمون المواد الآتية : القرآن والخط واللغة العربية والتركية والفرنسية ومبادىء الحساب والتاريخ والجغرافيا والرسم .

وكانت اللغة العربية هى طبعا لغة التدريس . وبعد سنوات قلائل أصبح عدد المدارس التابعة للديوان المذكور ٧٠ مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهى :

الجيش واستمروا يخدمون فيه . فلما أعيت محمدا عليا الحيل التجأ فى النهاية إلى تجنيد المصريين فجىء إليه بفقراء الفلاحين أو بالمغضوب عليهم من العمد وسيقوا طوائف طوائف إلى القشلاقات وفى أيديهم الأغلال. وقد توفى كثيرون منهم فى أثناء الطريق ولكن اقوياءهم صاروا فيما بعد خيرة الجنود المشاة . فلما أبصر زعماء الالبانيين ذات يوم ست أورط



عبدى شكرى باشا ناظر المعارف من سنة ١٨٥٠ الى ١٨٥٤ وهو من تلاميذ بعثة سنة ١٨٢٦ بفرنسا

إسم المدرسة	تاريخ تأسيسها	اسم المدرسة	تاريخ تأسيسها
مدرسة الموسيقى العسكرية	١٨٢٤	مدرسة طب الحيوان	١٨٣١
« الحربية فى قصر العينى	١٨٢٤	« التعدين	١٨٣٤
« الطب والصيدلة	١٨٢٧	« الهندسة	١٨٣٤
« الكيمياء العملية	١٨٢٩	« الزراعة	١٨٣٧
« المشاة	١٨٣١	« الولادة	١٨٣٧
« الفرسان	١٨٣١	« الادارة الملكية والحسابات	١٨٣٧
« الطوبجية	١٨٣١	« الألسن والترجمة	١٨٣٧
« البحرية	١٨٣١	« الصنائع والفنون	١٨٣٩

وبلغ عدد التلاميذ فى هذه المدارس ٩٠٠٠ كانت الحكومة تنفق على تعليمهم وطعامهم ولبسهم وسكناهم وكان التلاميذ يدخلون المدارس كرهاً .

هذا فيما يتعلق بالتعليم الثانوى أما التعليم العالى فان ديوان المدارس قرر عجز مصر عن القيام به لعدم وجود الاساتذة القادرين من جهة ولخلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم من جهة أخرى. ومن ثم قررت الحكومة ارسال البعثات الى أوربا مع اشتراط معرفة لغة البلاد التى يرسل اليها الطلبة. ولهذه الغاية أنشئت مدرسة مصرية فى باريس تولى ادارتها مصرى اسمه اسطفان بك ووكيله الارمنى خليل افندى جرا كيان



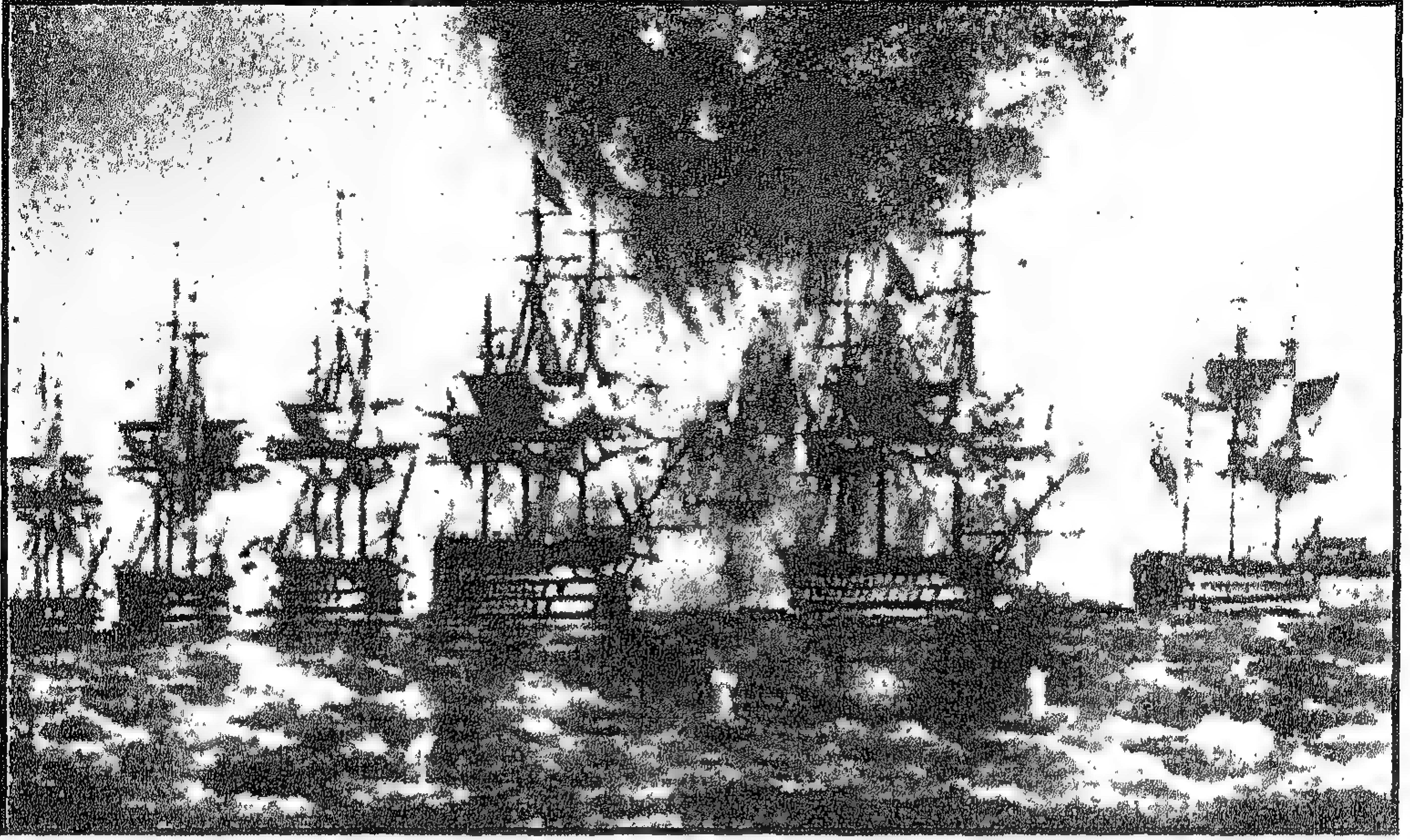
المرحوم الدكتور درى باشا الأستاذ الأول فى الجراحة بالقصر العينى

من الجنود النظاميين المصريين تجوب شوارع القاهرة يصحبهم ضباطهم الفرنسيون ايقنوا أن يومهم قد فات فغادروا مصر فى التماس مرعى صالح جديد .

وفى سنة ١٨٢٣ كان لدى محمد على ٢٠٠٠٠ جندى نظامى بلغوا فى سنة ١٨٢٦ نحو ٩٠٠٠٠ جندى. أما الطوبجية وهيئة أركان الحرب فقد رفعها المدربون الفرنسيون إلى المستوى الأوربى . ثم ان مصر بفضل المساعدة الفرنسية أصبح لها أسطول فى مياه البحر الأحمر وآخر فى البحر

=وأخذت الحكومة الفرنسية تعين اساتذتها . وذهب الى هذه المدرسة نحو ٤٠ طالب منهم بعض أمراء الاسرة الخديوية كالامير حليم والأمير حسين ابنا محمد على والامير احمد والامير اسماعيل (الخديو) ابنا ابراهيم . وقد انتوى ابراهيم باشا الاهتمام بأمر هذه المدرسة ولكن عاجلته المنية بعد عودته الى مصر من باريس فأغلقتها فرنسا فى سنة ١٨٤٨

وليس يفوتنا أن نذكر هنا أن محمداً علياً هو الذى أنشأ المطبعة الاهلية ببولاق على انقاض المطبعة التى جاء بها بونابرت كما أنه هو الذى أنشأ « الوقائع المصرية » وديوان المهندسخانة وأمر بترجمة عدة كتب مفيدة فى لغات عديدة كالفرنسية والتركية والفارسية .



معركة نافار بريشة المصور اليونانى كوستاس رومانيدس

المتوسط . وقد كانت السفن الحربية فى مظهرها على الأقل جديرة باسطول إحدى دول الدرجة الثانية . وبينما كانت قطع الاسطول الأول الذى حطم فى موقعة نافار مشتراة من الخارج كانت قطع الأسطول الثانى من صنع مصر . وقد بلغ عدد قطع الأسطول المصرى فى سنة ١٨٣٢ ثمانى مدرعات و١٥ بارجة بينما كان عدد الملاحين ١٢٠٠٠ . أما عمارة البحر الأحمر التى حملت الابل أخشابها عبر البرزخ فهى والحق يقال أول من قطع دابر القرصان فى تلك المياه .

وهكذا اجتازت مصر ثورة رفعتها من مجرد ولاية محتقرة تابعة لأمبراطورية مضمحلة إلى مستوى دولة عسكرية تخطو خطوات واسعات فى سبيل التقدم والرقى . فلا غرو إذا هاج هائج أوربا عند ماشهدت ماقام به هذا الشرقى الأوتقراطى من تجارب اشتراكية . وأمامنا صورة بهيجة لهذا الباشا العنيف ذى الحواجب الكثة واللحية البيضاء المدببة والطربوش المعمم والسراويل الفضفاضة وقد شدت إلى حيازيمه أسلحته المرصعه

بالجواهر وهو مطرق الرأس يصغى إلى ما كتبه أرميا بنتام من خطابات مطولة فى فلسفة السياسة بقصد تنويره وتثقيفه . إلا أنه برغم هذا كله لم يسمح للساسه الفرنسيين بأن يغيروا شيئاً من أساليبه. فاذا ماجاءه مثلا خباز يشكو حيفاً أصابه من العمدة أمر بالقاءهذا فى فرن الخباز ليحترق. ولكنا إلى جانب هذا نراه يصفح عن بائس عضه الجوع فحاول اغتياله (محمد على). وقد كان الصفح من أن الاستيثاق أن استغاثته الماضية ذهبت أدراج الرياح . وقد مضى محمدعلى معظم أيامه على ظهور الجياد بينما كان نومه على سجادة بجوار سريره الفرنسى ذى الأعمدة الأربعة[1]



محمد على باشا يستقبل سفراء الدول

صفات محمد على وأخلاقه

(١) هذا ما يقوله المستربانج عن صفات محمد على ومناقبه وإليك صورة صحيحة عن أخلاق هذا العبقرى الكبير كما ذكرها صاحب «تاريخ مصر الحديث» وهى صفات جديرة بأن توحى إلى صاحبها باتيان ما أتاه من المعجزات «المعرب»

كان محمد على متوسط القامة عالى الجبهة أصلع الرأس بارز القوس الحاجبى اسود العينين غائرهما صغير الفم مع ابتسام كبير الأنف متناسب الملامح مع هيبة ووداعة

ولم يقتصر ما تركته هذه الثورة المصرية من الأثر فى نفس اوربا على ما أثارته من الاهتمام بها بل كان لها فعلا أثر معين فى سير الحوادث



قواد جيش محمد علي يقسمون على القرآن بالتفانى فى خدمته

= أبيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيأة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة. كان بعيداً عن التأنق ولذلك كان لباسه على طراز المماليك أى العمامة أو الطربوش. ثم ابدل اللباس العسكرى فى أواخر أيامه بلباس واسع بسيط لايميزه عن لباس أتباعه.

كان يكره التفاخر بالحاشية ولهذا لم يكن يخفر بابه إلا رجل واحد. وإذا استوى فى مجلسه لايتقلد السلاح بل يجلس وفى يده حق السعوط والمسبحة. وكان ولعاً بلعبة البليارد والداما ولا يتعالى عن مجالسة صغار الضباط، أما جلساؤه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويلقبونه بمبيد المماليك أومصلح الديار المصرية. وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لايعرف الكظم وكان كريم النفس سخى العطاء إلى درجة الاسراف فى بعض الأحايين. وكان شديد التفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته. وكان شديد الولع بالاطلاع ولا سيما على الأخبار السياسية. وكان يجل الصحف ويؤمن بتأثيرها فى الهيأة الاجتماعية ولذلك كانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن.

الأوربية. وكادت تسبب حربا عامة فى تلك القارة. ولما كنا لانروى تاريخ أوربا بل تاريخ مصر فلن نفسح مجال الكلام عن هذا الجانب من نشاط محمد على ونجاحه لأن غزواته فى بلاد العرب والأناضول وبحر ايجه وما أحرزه من انتصارات ضد متعصبي الأعراب وثوار اليونانيين وماأصيب به على أيدى أمراء البحر الانجليز وارستقراطييهم من الهزائم — كل ذلك لم يكن له أى أثر فعلى فى تاريخ مصر.

وقد اتخذ محمد على مبدأ جعله قاعدة لسياسته الخارجية الاوهو رشوة السلطان تارة والتشاجر معه تارة أخرى ليحمله على الاعتراف بسيادته وسيادة ذريته من بعده على مصر المستقلة استقلالا داخلياً. أما مبدأ جعل مصر مستقلة عن الدول فقد كانت سياسته لتحقيق هذه الغاية ترمى إلى إيقاع هذه الدول بعضها فى بعض أو تحريضها على الباب العالى. وكان من رأيه أن

= وكان يستيقظ حوالى الساعة الرابعة صباحا ويقضى نهاره فى شئون الدولة. وكان بارعا فى الحساب بغير تعلم لأنه شرع يتعلم القراءة والكتابة فى سن الخامسة والأربعين. (وهذا ما ينطق بفضله وبعد نظره وصفاء ذهنه ويبرهن على ما حبته به الطبيعة من قوة الادراك والحذق والمقدرة على تصريف المعضلات السياسية). وكان حازم المعاملة مع لين ورقة وحسن أسلوب، وكان شديد التمسك بالاسلام مع شدة احترامه لتعاليم الأديان الأخرى وبخاصة الدين المسيحى فكان يقرب أصحابها منه ويعهد إليهم بأهم أعماله كما قام الدليل على ذلك فى كثير مما مر بك.

وبالجملة فلقد كان الرجل أبا حنونا لرعيته وصديقاً مخلصا ونصيرا مسعفا لذوى قرباه وأبا حقيقيا لأولاده. وهل أدل على ذلك من الحزن الذى لازمه حتى اللحد بعد ما اختطفتهم يد المنون منه، ولعمرك لاتلتفت يمنة أو يسرة سواء أفى مصر أم فى الشام أم فى السودان أم فى شبه جزيرة العرب إلا وجدت آثاراً ناطقة بمآثر ذلك الرجل الذى كان غرة فى جبين الدهر والذى أنشأ من العدم دولة كادت لولا الظروف المعاكسة أن تسير فى طليعة الدول الأخرى وأن تتبوأ المركز اللائق بها تحت قرص الشمس.



الشيخ محمد عبدالوهاب
مؤسس المذهب الوهابى

أنجع وسيلة للحصول على ما يشاء من الآستانة هى فى التظاهر بالقوة من جهة وبحاجة تركيا اليه فى الوقت نفسه من الجهة الأخرى . ولما كانت أمام زميله فى الاصلاح الا وهو الخليفة السلطان محمود مصاعب تربو على مصاعبه فانه كان لا يفتر عن المطالبة بكل ما يستطيع أن تقدمه اليه مصر من المساعدة المالية أو الحربية . وكان محمد على بصفته من أكبر أنصار الجامعة الاسلامية لا يضن بتقديم هذه المساعدة طالما كان فى امكانه التوفيق بينها وبين مصالحه الخاصة .

وقد كانت أول حرب أجنبية خاض بالجيش المصرى غمارها هى الحرب العربية : فان الأعراب قد صاروا خطراً يخشى منه على الامبراطورية العثمانية ومصر . لان العودة الى التمسك بمبادىء الدين الاسلامى الصحيحة واقتفاء أثر السلف الصالح مما كان يبشر به محمد بن عبد الوهاب (١٦٩٥ — ١٧٩١) قد أدى الى جمع شمل العشائر فى بلاد العرب ووحدها تحت زعامة أسرة ابن السعود [1] وفعلا وصلت هذه الحركة الى أوجها فى عهد

---

(١) لعبت الحرب الوهابية دوراً مهما فى العلاقات بين مصر وسلاطين نجد مما لايزال أثره موجودا إلى اليوم ، ولما كان المذهب الوهابى لا يعرفه إلا القليلون خارج الجزيرة العربية فقد رأينا أن نلقى عليه ضوءا بسيطاً لتتسنى معرفة نشأة هذا المذهب وكيفية انتشاره .

ولسنا نرجم بالغيب فيما نكتبه هنا . فلقد وقع اختيار حكومة جلالة ابن السعود على معرب هذا الكتاب فى ربيع سنة ١٩٢٩ لمرافقة مستشار جلالته (الشيخ حافظ وهبه) كسرتير له فى إبان انعقاد مؤتمر البريد الدولى فى لندن . ثم انتهزت الحكومة الحجازية الفرصة وعهدت إلى مستشارها المذكور باجراء مفاوضات مع الحكومة البريطانية

ابن السعود الثانى وهو الذى استولى على الاماكن المقدسة وصار يهدد بغداد ودمشق . وما حانت سنة ١٨٠٦ حتى كانت شبه جزيرة العرب قد اعتنقت المذهب الوهابى وأوصدت أبوابها فى وجوه المسلمين الآخرين

= لانشاء مفوضية حجازية فى العاصمة الانجليزية . ولما كان حضرة المستشار يجهل اللغة الانجليزية فقد كان من الطبيعى أن أقوم أنا بدور المترجم حينما دارت المحادثات بين حضرته وبين فخامة المستر هندرسن وكبار رجال وزارة الخارجية خاصا بهذا الموضوع .

ولما كان حضرة الشيخ حافظ قد لحظ أن الجمهور فى انجلترا لا يعرف عن الحركة الوهابية إلا القليل المشوه فقد رأى أن ينوره بالقاء خطبة فى الموضوع عهد الى بوضعها باللغة الانجليزية والقائها فى يوم ٥ يولية سنة ١٩٢٩ بدار الجمعية الأسيوية فى لندن حيث كان الاجتماع برآسة لورد اللنبى . وقد حضره جمهرة من أعلام الرأى وكبار المستشرقين الانجليز الذين تقاطروا على الدار لسماع كلمة رسمية عن هذا المذهب الذى كانوا يعدونه غريبا وغير مألوف .

ولهذا رأينا أن نقتطف هنا ما ورد عن التعاليم الوهابية ونشأة صاحبها فى الخطبة المذكورة التى ألقيناها فى دار الجمعية الأسيوية فى لندن لأنها تعبر عن وجهة النظر الرسمية.

ظهور زعيم الوهابيين

ففى سنة ١٧٠٣ ﻫ ولد محمد بن عبد الوهاب فى جهة العيينة فى شمالى مدينة الرياض عاصمة نجد . فتلقى العلوم الابتدائية على أبيه وكان شيخاً فقيها فتمذهب بالمذهب الحنبلى ثم سافر فيما بعد لاتمام دروسه فى جهات الحصا والحجاز والبصرة . ومن ثم أصبح الشاب محمد حجة فى الحديث وعلم الأصول واللغة كما اشتهر بالصلاح والتقوى والتقشف والمحافظة على قواعد الدين الأصلية البسيطة فى النفور من البدع وشن الغارة عليها . ثم عكف على دراسة كتب ابن تيمية وتلاميذه وأخصهم ابن القيم وابن كثير وراقته إلى أبعد حد لأنها تدعوا إلى البساطة الاسلامية .

وكانت بلاد نجد عند ما غادرها محمد بن عبد الوهاب مسرحاً للخلافات الطائفية والحروب الأهلية هذا فضلا عن تفشى الخرافات الدينية . فلما عاد إليها بعد أسفاره الآنفة الذكر وألقى عصا تسياره فى بلدته العيينة وألفى بلاده على حالتها هذه شمر عن ساعده واعتزم أن يطهرها من أرجاسها وأن يعيدها إلى البساطة الاسلامية والدين الصحيح الخالى من الخزعبلات والبدع .

حتى الحجاج . ومن الجهة الاخرى فان قرصان الوهابيين سدوا منافذ البحر الاحمر وانتشروا يعيثون فى المحيط الهندى فسادا . وهكذا أصبح فى وسع الوهابيين أن يخزوا بالابر بهذه الأعمال امراطوريتين اثنتين

= وكان ينشر دعايته بالطرق السلمية واتصل بكبار الفقهاء والمسلمين فى البلاد الاسلامية الأخرى وما برح يبثهم شكواه مما نزل بالاسلام وأحاط به من الخرافات التى ليست منه فى شيء ويناشدهم أن يهبوا هبة قوية لتطهيره والعودة به إلى سيرته الأولى .

وكان محمد بن عبد الوهاب لا ينفك عن المطالبة بتطبيق أحكام القصاص الواردة فى القرآن الشريف ومنها الحكم بالرجم على امرأة عاهرة جاءته تلتمس التوبة فصدها عدة مرات — نقول لما كان هذا كذلك كان طبيعيا أن تغضب تعاليمه أمراء العرب الذين بدأوا يتوجسون خوفا منها . فبعث أمير الحسا إلى شيخ العيينة ينذره بمهاجمة المدينة إن لم يطرد منها الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

وما كاد نبأ هذا الطرد أن يتصل ببعض أتباعه ومريديه فى جهة الدرعية وأميرها محمد بن السعود حتى استأذنوه فى استقدام الشيخ محمد فأذن لهم . فلما قابله أحسن وفادته وبالغ فى إكرامه . وسرعان ما تعاقد معه على العمل سويا لتطهير الجزيرة العربية من الخرافات والبدع ونشر التعاليم الدينية الصحيحة بين أهل البدو والحضر ووعد بمساعدته ضد كل من يحاول الوقوف فى وجه هذه الدعاية . ولأول مرة شعر الزعيم الوهابى بأن الله قد شد عضده وأن النصر سوف يؤاتيه حقاً .

التعاليم الوهابية

أما أساس مذهب محمد بن عبد الوهاب فهو أن الله وحده هو كل شيء ولا يجوز التوسل إليه بسواه . وتتلخص تعاليمه فيما يأتى :

(١) الصلوات الخمس (٢) وصوم رمضان (٣) وتحريم المسكرات (٤) وتحريم الزنا (٥) وتحريم الخمر والميسر (٦) والزكاة (٧) ومنع شهادة الزور والتشدد فى معاقبة فاعلها (٨) وتحريم الربا (٩) والحج (١٠) ومنع التدخين (١١) ومنع الرجال من الزينة ولبس الحرير لأنه من أدوات النساء . (١٢) وهدم المزارات والقباب على أضرحة الأولياء لأنه يعتبر من الوثنية ويشغل الناس عن التوجه لوجه الله تعالى (١٣) وفتح باب الاجتهاد أمام كل من يستطيع الاستنباط من أحكام القرآن (١٤) والا اعتماد لانسان إلا على مايقدم من الأعمال الصالحة .

فى موضعين من المواضع الحساسة. أما الامبراطورية التركية فانهم وخزوها فى سلطتها الدينية كما انهم وخزوا الامبراطورية البريطانية فى قوتها البحرية. وهذا ما حمل الانجليز على مد أيديهم الى محمد على يدعونه الى عقد محالفة بحرية ضدهم. ولكن حذره من الانجليز كان أشد مما ينبغى كما يؤخذ من جوابه على اقتراح المستر بورخاردت مندوب جمعية افريقيا

= ولبث محمد بن عبد الوهاب ينشر الدعاية بالحكمة والموعظة الحسنة بينما كان محمد ابن السعود يبسط نفوذه على نجد وغيرها بالحسام. وأخيرا تزوج ابن السعود بابنة محمد ابن عبد الوهاب فزادت الروابط بينهما توثقاً ثم استولدها ابنه عبدالعزيز الذى خلف أباه محمد بن السعود عند وفاته فى سنة ١٧٦٥

وقد إستمرت الحروب الدينية بين القبائل العربية بسبب الدعاية الوهابية زهاء ستين عاما ازداد فى خلالها أنصار ابن عبد الوهاب وأصبحوا جنداً عديدين حمل بهم على أطراف جزيرة العرب.

وفى سنة ١٧٩١ توفى محمد بن عبد الوهاب وقام أولاده بعده بمهمة أبيهم معتمدين على مساعدة ابن السعود. أما عبد العزيز بن السعود فقد كان عظيم الشجاعة شديد البطش وقد قتل غدراً فى أثناء الصلاة بيد أحد الفرس فى سنة ١٨٠٣ فخلفه ابنه سعود وكان قد تعود الكر والفر فى حداثة سنه حتى أنه قاد الجحافل وهو فى السنة الثانية عشرة من العمر. وانتشرت سطوة الأمير سعود وخشيت منه تركيا على أملاكها فى الشام والعراق فأرسلت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فشتتها. ثم حمل فى ٢٠٠٠٠ رجل على كربلاء وفيها قبور أئمة الشيعة وصاح برجاله «اقتلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله» فلبى رجاله أوامره وهدموا القبور والأضرحة.

وفى ٢٧ ابريل سنة ١٨٠٣ استولى الأمير سعود على مكة ودخل الكعبة وأبطل التدخين وكف الناس عن تعاطى المسكرات وعكفوا على الصلوات وبعث كتابا إلى السلطان العثمانى يطلب فيه عدم إرسال المحمل المصرى إلى الحجاز مصحوبا بالطبول والزمور.

وفى هذه السنة نفسها دخل الأمير سعود المدينة المنورة وأخذ فى نشر سيادته على بلاد العرب حتى بلغت حدود مملكته فى سنة ١٨٠٩ شمالا صحراء سوريا وجنوبا بحر العرب وشرقا الخليج الفارسى وغربا البحر الأحمر.

البريطانية فى هذا الصدد . فقد أجاب بهذه العبارة التى كانت تعتبر بمثابة نبوءة تستوقف الانظار وهى قوله « ان السمك الكبير يبتلع السمك الصغير ولسوف تستولى انجلترا يوما ما على مصر كحصتها فى تركة الامبراطورية العثمانية ». فهو كما يلوح لم يشأ استعجال حلول ذلك اليوم.

على أن محمداً علياً لم يتوان فى تلبية نداء السلطان كلما ناشده المساعدة . بل انه أرسل كافة رجاله الالبان المزعجين ليستعيدوا الاماكن المقدسة .



محمد على ينذر مندوبى الوهابيين قائلا « سأرسل لكم ولدى ابراهيم ليأتى بزعمائكم أحياء أو أمواتاً »

= فهنا وبعد أن استفحل الخطر الوهابى السعودى وبلغ إلى هذا الحد رأى السلطان محمود الثانى أن يستعين بمحمد على والى مصر على صد هذا الخطر فلبى الأمر وبدأ بتنفيذه بعد أن خلا باله بذبح المماليك على نحو ما مر بك .

استعدادات محمد على لصد الوهابيين

فشرع محمدعلى يعدحملة بقيادة ابنه احمدطوسون باشا وكتب فى الوقت نفسه الى غالب شريف مكة يخبره بأنه سيرسل من ينقذه من الوهابيين فأجابه هذا بالشكر ووعده بتقديم المساعدة .

وفيما هم يعملون على استعادتها وقعوا فى كمين نصب لهم ففقدوا ثلثى قواتهم. ولا ريب فى أن محمداً علياً بتملصه من مواطنيه الثقلاء قد خلص أيضا مصر من بقايا هؤلاء المرتزقين المزعجين . وهناك اطمأن باله

= وعلم الأمير سعود بنوايا محمد على فأعد ١٥٠٠٠ جندى لصد المصريين وكانوا قد أبحروا من السويس ونزلوا إلى ينبع فاستولوا عليها وغادروها إلى معسكر الوهابيين فى صفر. والتحم الجيشان وأسفرت النتيجة عن فوز الوهابيين فى بداية الأمر حتى إذا وصل مدد جديد لطوسون باشا من مصر زحف على المدينة المنورة وهدم أسوارها وأرغم حاميتها الوهابية على التسليم مما كان له أكبر صدى فى سائر انحاء الحجاز .

ثم زحف طوسون على مكة فأجلى الوهابيين عنها وأرسل إلى أبيه بقائد حامية المدينة فبعث به مخفورا إلى الاستانة فقتلوه فوراً .

ولما حل الصيف استعاد الوهابيون بعض ماخسروه ورأى محمد على أن الأمر يتطلب ذهابه بنفسه إلى ساحة القتال فسار بجند عظيم إلى جدة فوصلها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨١٣

وفى ١٧ ابريل سنة ١٨١٤ توفى الأمير سعود زعيم الوهابيين فى درعية وحل محله ابنه عبد الله ولم يكن فى كفاية أبيه فانحلت عزائم القوم حتى إذا نشبت المعركة الكبرى بينهم وبين جنود محمد على فى ١٠ يناير سنة ١٨١٥ وكان فيصل أخو الأمير عبد الله يقود القوة الوهابية ، دارت فيها الدائرة على الآخرين وتقدم طوسون إلى نجد ولكن نفاذ المؤذن أضطره إلى وقف الزحف .

واقتضت الظروف عودة محمد على إلى القاهرة قبل إتمام مهمته فى الحجاز . فوصل العاصمة فى ٤ رجب سنة ١٢٣٠ هـ وشرع فى تدريب الجند على النظم الأوربية وأخصها النظام الفرنسى .

وعاد فى هذه الأثناء طوسون باشا فوجد أن قرينته وضعت ولداً اسمه عباس ثم أصيب طوسون بالحمى وفارق بعدها الحياة عاجلا .

ثم استأنف محمد على اهتمامه بمسألة الوهابيين وكتب إلى عبد الله بن مسعود يكلفه باحضار الأموال التى أخذت من الكعبة وأن يتأهب للذهاب إلى الاستانة . ولكن عبد الله اعتذر عن الحضور وقال « ان الأموال تفرقت فى عهد أبيه » وأرسل الهدايا إلى محمد على ولكن هذا رفض قبولها وأوسع الوفد تهديداً وأنذرهم بأنه مرسل اليهم ابنه ابراهيم فى حملة قوية ليأتى بزعمائهم أحياء اوأمواتاً .

وأمكنه أن يرسل جنوده المصريين النظاميين الى بلاد العرب حيث استعادوا مكة وفتحوا طريق الحج (١٨١٢) ويجدر بنا أن نذكر فى هـذا المقام انه كان يوجد بين الحكام الموالين لمحمد على رجل يدعى « ليث » وهو اسكتلندى ممن أخذوا أسرى فى حملة فريزر . وقد اعتنق ليث الاسلام وظل يعمل بجد الى أن وصل الى مقدمة الصفوف بمحض كده واجتهاده . على أن ابن السعود التجأ الى حرب العصابات



ابراهيم باشا يستقبل فى خيمته الأمير عبد الله أمير الوهابيين

= وفى ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هـ سار ابراهيم بطريق النيل إلى قنا ومنها فى الصحراء الى الاقصر ثم إلى ينبع فالمدينة ولبث يترقب وصول أوامر أبيه . قد انضمت اليه القبائل الموالية. ولما التقى الجيشان كانت لابراهيم الغلبة فقبض على الزعيم الوهابى الأمير عبدالله وأرسله إلى أبيه محمد على فوصل القاهرة فى ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ وفى ٢٠ محرم أرسله الى الاستانة حيث حكموا عليه بالاعدام .

وكافأ السلطان ابراهيم باشا بأن سماه والياً على مكة. فلما اتصلت هذه الأنباء بدرعية دب الرعب فى قلوب أهلها فهدموا المدينة وتركوها قاعاً صفصفاً فاحتلتها الجنود المصرية وبذا انتهت الحرب الوهابية .

وكان النجاح حليفه فيها الى حد أن محمدا عليا اضطر الى تولى القيادة بنفسه وهى غلطة كادت أن تكلفه ثمنا باهظا ولذا لم يكررها وجلية الخبر ان الاتراك انتهزوا فرصة تغيبه وبسطوا سلطانهم على القاهرة وبيتوا مؤامرة لاغتياله مما جعله يعجل بالعودة الى مصر حيث وطد سلطته بالوسائل المألوفه تاركا لابراهيم القيادة فى بلاد العرب . وبعد أن توفى ابن السعود الكبير قمع ابراهيم الحركة الوهابية بقسوة صارخة وأسر زعيمهم عبد الله بن السعود وأرسله الى النطع فى الاستانة (١٨١٦)

والآن وقد خلا بال محمد على فيما يتعلق بحدوده الشرقية فانه شرع يولى اهتمامه شطر الحدود الجنوبية [1] . فان المناطق الواقعة فى أفريقيا

---

(١) سردنا عليك بعض ما اقتبسناه عن أعمال محمد على وهى لتعددها وكثرة نواحيها جديرة بأن يفرد لها الأنسان مجلدا بأكمله لا أن يحشرها حشرا فى هامش كتاب كالذى نقوم بتعريبه هنا . ولكن همنا الأول ـــ كما قلنا فى بداية هذا الكتاب ـــ هو ان نسد بعض الثغرات التى تركها المستر يانج وأن نفصل بعض ما أجمله مما يهم المصريين الاطلاع عليه . ولم نشأ سرد معلوماتنا شخصيا بل توخينا الاقتباس عن المصادر الأخرى لأنها أبلغ فى الاعتراف بمعظم مزايا هذا المصلح الكبير .

وننتقل بك الآن إلى صفحة مجيدة أخرى فيها عظة لنا وهى الخاصة بفتح السودان . وقد لخصناها عن كتاب « تاريخ مصر الحديث »

فتح السودان

سبق أن مر بك أن محمدا عليا أوفد الكولونيل سيف (أى سليمان باشا) عند هبوطه أرض مصر إلى السودان بقصد اكتشاف بعض المناجم وأن الكولونيل سيف عاد بخفى حنين . ونقول لك الآن أن منشئ مصر الحديثة كان كثير الاهتمام بمسألة المعادن الثمينة التى سمع انها مكنوزة فى المناجم الواقعة فى غرب النيل الأزرق ولذلك فكر فى فتح السودان على أمل الحصول على تلك الكنوز هذا عدا ما يمكن أن يضع عليه يده من ضروب السلع التجارية القيمة والحاصلات الغريبة كالصمغ والريش والعاج والرقيق وهلم جرا . فحشد ما يبلغ ٥٠٠٠ من الجند النظامى وضم إليهم بعض البدو

الوسطى ، تلك المناطق التى كان يجرى فيها الى مصر مع مجرى مياه النيل سيل لاينقطع من الرقيق والعاج والذهب قد اجتذبت مطامع المغامرين.



قبائل الزنوج عند خط الاستواء

وكان مهاجرو المماليك وهم الذين وطدوا أنفسهم فى السودان قد وقفوا

= وزود الجميع بنحو ثمانية مدافع وسير هذه الحملة بقيادة اسماعيل باشا أحد أولاده .

وفى يونية سنة ١٨٢٠ أقلعت الحملة فى النيل فاجتازت الشلالات الستة إلى أن وصلت شندى والمتمة . وقد أخضعت بسهولة كل مامرت به من القرى والدساكر . ومن شندى قصدت إلى سنار على النيل الأزرق وراء الخرطوم . ولعل قبيلة الشائقية هى الوحيدة التى أبدت المقاومة ولكنها سرعان ماألقت سلاحها وواصل المصريون زحفهم إلى أن استولوا على سنار وكوردفان . ومن ثم سار اسماعيل باشا إلى جهة « فزغل » حيث ظن انه عثر على مناجم الذهب .

وفتك الوباء فى رجال الحملة ولكن وصلته نجدة تبلغ ٣٠٠٠ جندى بقيادة صهره احمد بك الدفتردار فأقامه على كوردفان وقصد هو إلى المتمة فى الشاطىء الغربى ثم عبر النيل الى شندى فى البر الشرقى لجباية المال وجمع الرجال فاستدعى ملكها واسمه « نمر » وقال له « أريد منك أن تأتى إلى قبل خمسة أيام بمل قاربى هذا من الذهب وألفين من العساكر » فحاول الرجل أن يستعطف اسماعيل ويحمله على التنازل عن شىء من هذا =

انحدار هذا السيل الرابع فتقرر ارسال حملة مصرية صغيرة بقيادة اسماعيل الى أعالى النيل لاعادة انحدار هذا السيل تمهيدا لاستخراج موارد ذلك القطر الخرافية . ولكن شبح المدن الذهبية جعل يتوارى ويتقهقر أمام تلك الحملة الى أن اضطرتها المستنقعات المهلكة مع ما تجمع حولها من جموع المتوحشين فى المناطق الاستوائية الى أن تعود أدراجها (١٨١٢) وبينما كان اسماعيل منهمكا فى توطيد الادارة المصرية فى شرقى السودان احتلت قوة أخرى السودان الغربى بعد قتال عنيف بالقرب من كردفان وكان ذلك مؤذنا باندلاع الثورة فى كل مكان حتى أن أحداها جعلت تتلو الاخرى بسرعة مدهشة مما كانت نتيجته أن اسماعيل نفسه ألقى فى النار حيا هو وأركان حربه فى احدى هذه الثورات بالقرب من شندى

= القدر . وأخيراً تم الاتفاق على قبول عوض عن الذهب وهو مبلغ ٢٠٠٠٠ ريال من الفضة

فأجاب نمر الطلب ولكن لم تسعده الظروف بجمع القيمة فى المدة المحدودة فجاء يطلب مد أجلها . فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلا : « ان كنت لا تدفع المال فورا فليس لك غير الخازوق جزاء »

فتقبل الملك نمر هذه اللطمة بالصمت ولكنه أضمر لاسماعيل الشر وصمم على الانتقام منه فتظاهر بتطييب خاطر اسماعيل ووعده باتمام مايريد .

وفى تلك الليلة نفسها جاء نمر إلى اسماعيل وقبل يده والتمس منه تشريف وليمة أعدها اكراما له فلبى اسماعيل الدعوة . وذهب فى نفر من أصدقائه قاصدا القصر الذى أعده نمر لنفسه وكان مصنوعا من القش وليس به سوى منفذ واحد . وقد جمع وراء هذا القصر كثيرا من القش وسيقان الذرة لعلف خيول الباشا أثناء الزيارة . ولما استقر الباشا ورجاله فى المكان اجتمع الرجال والنساء حوله ينفخون الارغول ويرقصون رقصا سودانيا خاصا . فطرب اسماعيل وضباطه لهذا الغناء والرقص وغفلوا عن تقلبات الزمان . ثم أخذ عدد المتفرجين من الاهالى يزداد شيئاً فشيئاً الى أن خرجت المدينة كلها واغتنم نمر فرصة هذه الجلبة لاشعال القش والكوخ فى عدة مواضع بينما كان أعوانه يجمعون المواد القابلة للالتهاب وإلقائها حول الأتون . فلما التهمت النار سقف المكان المعد لتناول الطعام ظهر الباشا وأصحابه وبيدهم السلاح ولكن المجرمين جعلوا =

فكان عقاب ذلك اجتياح السودان بنفس القسوة التى اجتيحت بها بلاد العرب من قبل . وهنا لك توطدت أقدام مصر فى ربوعه بصفة دائمة . ومن ثم أنشئت عواصم جديدة فى الخرطوم وفى كسلا وافتتحت طرق تجارية جديدة فيما بين سواكن ومصوع على البحر الاحمر . وفى أثناء زيارة محمد على للخرطوم (١٨٣٨) أعلنت مصر - بتأثير الانجليز - ان النخاسة غير مشروعة ولكنها بالرغم من ذلك ظلت تجارة السودان الاساسية . وفى سنة ١٨٤٢ وصلت الجنود المصرية الى جوندوكزرو . وهكذا ترامت حدود مصر حتى انتظمت مناطق لاتربطها بها أية رابطة جنسية ولا أرضية حقيقية ، أو بعبارة أخرى أن مصر صارت فى الواقع امبراطورية قبل أن تكون أمة .

ولم تكن غاية محمد على تختلف عن الغاية التى جعلها نابليون مطمح سياسته . فقد أراد كلاهما اتخاذ مصر مطية للوصول عن طريقها الى الامبراطورية العثمانية . لهذا تملك حب التوسع نحو الشمال كل حواسه . وقد كانت ثمت طريقان الى الاستانة . الا وهى الطريق البحرية بواسطة « بحر ايجه » والاخرى الطريق البرية بواسطة الاناضول . وهذا ماجعله يلبى من فوره نداء السلطان محمود بطلب المساعدة ضد اليونانيين وهم الذين أرادوا الوصول الى الاستقلال باثارة الفتن . ولقد كان فى الجنود المصريين والاسطول المصرى الكفاية للقيام بما تقتضيه الاعمال الحربية والبحرية

= يرشقونهم بالسهام ويردونهم داخل الأتون إلى أن ماتوا محترقين . كل هذا و نمر يضحك ضحك التشفى والانتقام .

واتصل نبأ هذه الفاجعة باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظا وأقسم لينتقمن من الفاعلين بقتل ٢٠٠٠٠ شخص من العدو بعد التفنن فى تعذيبهم . وزحف بجيشه الصغير ولبث فى المدينة حتى بر بقسمه . ثم هدأت الحالة وبذا تم فتح السودان وظل احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكوردفان لغاية سنة ١٨٢٤ حيث ابدل برستم بك .

المشتركة لكبح جماح اليونانيين أكثر من الاسطول والجيش العثمانيين اللذين لم ينظما بعد تنظيما تاما فضلا عن عدم إمكان الاعتماد عليهما . وهكذا تم إخضاع كريد بلا كبير عناء (١٨٢٣) ولئن كانت محاولة ابراهيم الاولى لغزو شبه جزيرة المورة قد فشلت (١٨٢٤) الا أن محاولته الثانية (١٨٢٥) قد قصمت ظهر الفتنة . يضاف الى هذا أنه جهزت حملة جديدة فى السنة التالية لقطع دابر الفتنة نهائياً ومطاردة مثيريها الى آخر معقل لهم فى ميسولونجى التى سلمت بعد حصار طويل . وما كادت الحامية تشق طريقها الى الخارج حتى وقعت مذبحة عامة ضد أهالى المدينة وكان يلوح فى بدء الامر أن كل شىء انتهى على مايرام . ولكن أهالى المورة أثاروا فتنة جديدة فى مؤخرة ابراهيم بعد أن دب الشقاق بين المصريين وبين الاتراك الذين كان يقودهم خسرو باشا عدو محمد على القديم . وهنا بدأ الاسطول البريطانى يعرب عن سخط الطبقة الاستقراطية التى لم تكن تناست اليونان بفضل ما كان اورد بيرون ينفخه فيها من روح التذمر والاستياء من أجل هذا فان ابراهيم عندما بدأ يطبق على اليونانيين سياسة الفناء التى أدت فى الماضى الى إخضاع بلاد العرب والسودان رأى نفسه وجهاً اوجه ازاء شعور لاتنقصه المعدات لجعل أثره محسوساً . ومن جهة أخرى فان شعور بريطانيا الذى تهيج قليلا ابان تطبيق سياسة الفناء ضد اليونانيين قد انقلب غضباً عنيفاً عند ما بدأ ابراهيم ينفيهم الى مصر ويعاملهم معاملة الارقاء . ولكيما يوقف الانجليز هذه النخاسة دبروا مظاهرة بحرية من أساطيل الحلفاء فى نافار كانت نتيجتها تحطيم الاسطولين المصرى والتركى (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧) . وهى كارثة لم تخل من فائدة لمحمد على ما كان ليحس بها فى بدء الأمر . ثم ما عتم أن أيقن فيما بعد أن الأسطول التركى لم يرسل إلى نافار إلا وهو يحمل تعليمات معينة

بابعاد جيش ابراهيم إلى الاستانة . والآن وقد تخلص ابراهيم من الأتراك فانه راح يكتسح اليونان ويعامل أهلها كالأرقاء عند نفيهم إلى مصر دون



السفن المصرية التى اشتركت فى معركة نافار

أى اكتراث بما أرسله إليه كادرنجتون الأميرال الانجليزى من الأنذارات الشديدة وقد تذمر ابراهيم من كادرنجتون فقال لمترجمه الفرنسى « تالله إنى لم أشهد طيلة حياتى مثل هذا اللفظ ولا سمعت كهذه النغمة التى يخاطبنى بها » وهذه على التحقيق أول مرة وإن لم تكن الأخيرة التى اصطدم فيها المزاج البريطانى بالمزاج المصرى. وسرعان ما وقع ما كان فى الحسبان. فان كادرنجتون رابط بأسطوله أمام الاسكندرية وأرسل إنذاراً نهائياً هدد فيه باطلاق النار عليها . وفى الوقت نفسه نزلت حملة فرنسية فى شبه جزيرة المورة (سبتمبر سنة ١٨٢٨) وهنا اضطرت الجيوش المصرية إلى الجلاء عن المورة بناء على اتفاق وضع بين الانجليز وبين محمد على. وكان هذا الاتفاق

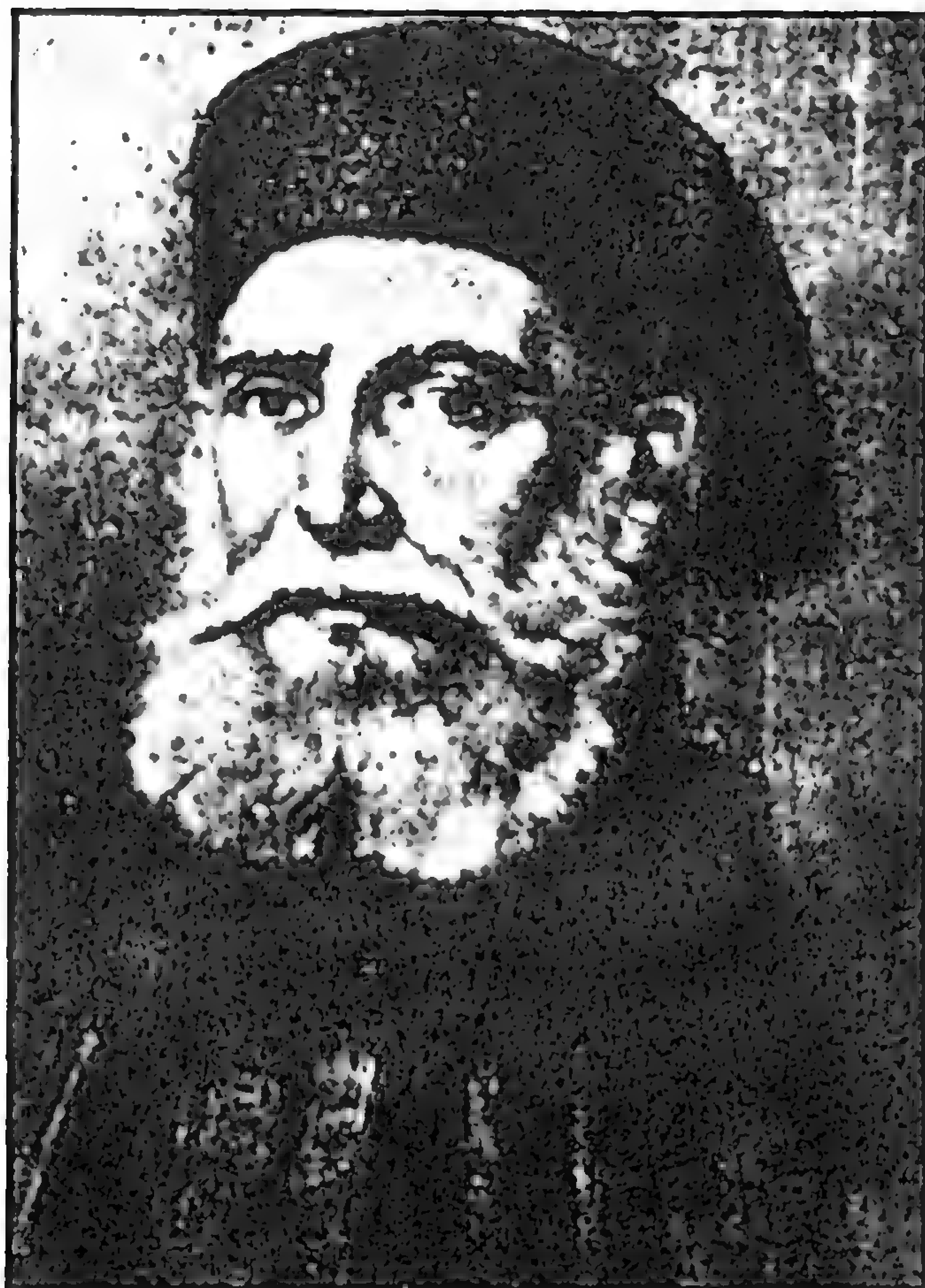
أول اعتراف رسمى بمركز محمد على . وهكذا جاءت نتيجة الثورة المصرية شبيهه من بعض الوجوه بنتيجة الثورة الفرنسية.فأن كلتا الثورتين أدت إلى اتحاد الدول العظمى ضدها اوضع حد لتوسعها الاستعمارى (١)

ثم اشتد الكفاح بين محمد على والسلطان محمود عشر سنوات كاملة تمكنت فى خلالها الجيوش المصرية من اكتساح الأمبراطورية العثمانية وكادت بانتصاراتها المتوالية أن تزعزع أركان السلم الأوربى . ذلك لأن السلطان وضع نصب عينيه التخلص من هذا الوالى العنيد بينما أن خسرو الصدر الأعظم كان يتعطش للانتقام لنفسه مما أصيب به من الفشل بابعاده عن مصر . من أجل ذلك انتهز الاثنان فرصة تغيب محمد على فى مكة حيث قصد إليها فى مهمة كلفه السلطان قضاءها فأرسلا إلى القاهرة والياً آخر يدعى لطيف بك لتدبير مؤامرة لاغتيال محمد على . وصدرت فى الوقت نفسه أوامر بتعيين ابراهيم أميراً لمكة أو بعبارة أخرى صار رئيساً لأبيه وهى تصرفات أدت إلى زيادة الشحناء بين محمد على والسلطان . ثم جاءت مسألة كريد فزادت الطين بلة . فقد كان مقرراً من قبل أن تستولى مصر على سوريا مكافأة لها على ما أسدته للأمبراطورية العثمانية من المعونة فى إخماد فتنة اليونان . ولكن استعيض عن سوريا بكريد التى ظلت فى قبضة المصريين من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٤١ على أن محمداً علياً وقد أحفظ صدره هذا التصرف انتهز فرصة هزيمة الباب العالى فى الحرب

---

(١) من المحقق أنه لولا اتحاد الدول ضد مصر وتركيا لما قامت لليونان قائمة فى تلك الحرب التى عاد منها ابراهيم باشا إلى مصر وعلى رأسه أكاليل الغار وقد قدر بعضهم ماتكلفته مصر فى حملة المورة بعشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل .

« المعرب »



البطل ابراهيم باشا فاتح سوريا

الروسية التركية فبدأ يغزو سوريا قبل أن يهاجمه أحد (١) وسرعان ماسقطت عكا فى يد ابراهيم (مايو سنة ١٨٣٢) وهى التى دوخت نابليون من قبل وكان لهذا الانتصار صدى كبير وهيبة أكسبت الجيوش المصرية قوة على قوتها وجعلتها تندفع إلى الأمام وتتخطى من فتح إلى آخر عبر سوريا وبلاد الأناضول



الأمير بشير الشهابى

فتح سوريا

(١) يعتبر فتح سوريا وما أتاه ابراهيم باشا فيها من ضروب الاصلاح صفحة ذهبية خالدة فى تاريخ محمد على ولذا رأينا أن نشير اليها هنا بايجاز .

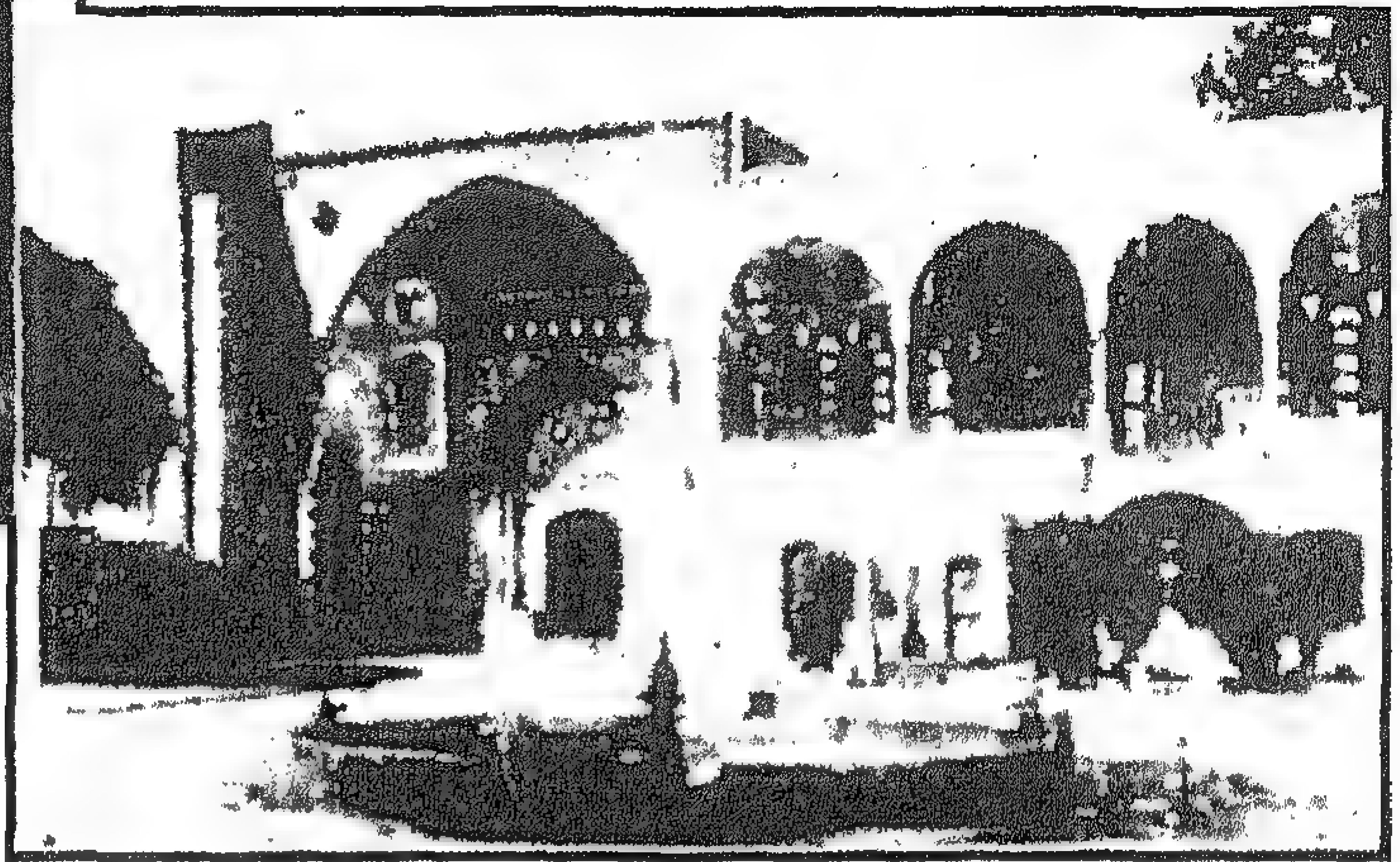
لقد رأيت مثلا ما كان يجيش فى صدر محمد على من المطامع الكبيرة وما كانت تحدثه به نفسه من العمل على جعل بلاده مصر دولة مستقلة عظيمة يحسب الغير حسابها . فما كاد أن يدب الخلاف بينه و بين السلطان ويستفحل أمره حتى عقد النية على غزو سوريا تنفيذا لخطة سبق أن دبرها مع الامير بشير الشهابى [illegible] أمير لبنان عند مجيئه إلى القاهرة فى سنة ١٨٢١ لالتماس شفاعة محمد على بماله من الحظوة فى أعين جلالة السلطان فى العفو عن عبد الله باشا والى عكا .

وطيب محمد على خاطر بشير وأسكنه فى بنى سويف وأرسل فى طلب العفو المذكور ولبث ينتظر وصول الرد من الاستانة . ولكن سرعان ما انشغل باله بحوادث المورة وتجريدة الحملة السالف ذكرها لتدويخ اليونان .

وفى إبان حرب المورة ورد الرد من الاستانة وفيه قبول شفاعة محمد على وصدور العفو عن عبد الله باشا . فعاد الأمير بشير إلى وطنه مغتبطاً أشد الاغتباط بصداقة محمد على مظهراً استعداده الكلى لرد هذا الجميل بمثله وذلك بمساعدة محمد على على تحقيق مطامعه فى الشام متى حان الوقت الملائم لذلك .



شكل الصالون فى
« بيت الدين »



«بيت الدين» وهو قصر الأمير بشير الشهابى الذى نزل فيه ابراهيم باشا عند غزو سوريا

= ولشد ما كان ابتهاج عبد الله باشا بهذا العفو الذى حمله اليه الامير بشير . وكان المألوف فى أمثال هذه المناسبات الخاصة بالصلح أن تطلب الجنود العثمانية نفقات معينة ولكن عبد الله باشا لقلة ذات يده اضطر إلى فرض ضريبة على المقاطعات والتجأ إلى معونة الامير بشير.

على أن عبد الله باشا قابل جميل الأمير بشير بضده ومن ثم أزداد الجفاء بينهما . ولما كان محمد على قد استقر فى روعه أن نجاحة فى وساطة الشفاعة لعبد الله باشا سوف يضم الأخير والأمير بشير إلى جانبه عند قيامه بفتح سوريا فقد أحب أولا أن يستوثق منهما . فابتدأ بالأمير بشير وأرسل طالباً بعض ما يحتاجه من الأخشاب لبناء السفن . فلبى الأمير الطلب ولكن عبد الله باشا منعه . فهال ذلك محمدا علياً وعده مخالفة لأوامر الدولة لأن السفن المراد انشاؤها كانت فى الواقع للحكومة العثمانية. فقرر الاقتصاص منه. ومن ثم جرد ضده فى سنة ١٨٣١ حملة فى البر والبحر بقيادة ولده ابراهيم باشا .

وسارت الحملة البرية بطريق العريش قاصدة فلسطين . وسرعان ما استولت على غزة ويافا بينما كان ابراهيم قد ركب البحر مصحوباً بحاشيته على أن يلتقى بالجيش فى يافا . ومن ثم سار فى طليعة جنوده إلى عكا فبلغها فى ٢١ جمادى الأخرى سنة ١٢٤٧ =



حيفا وخليج عكا

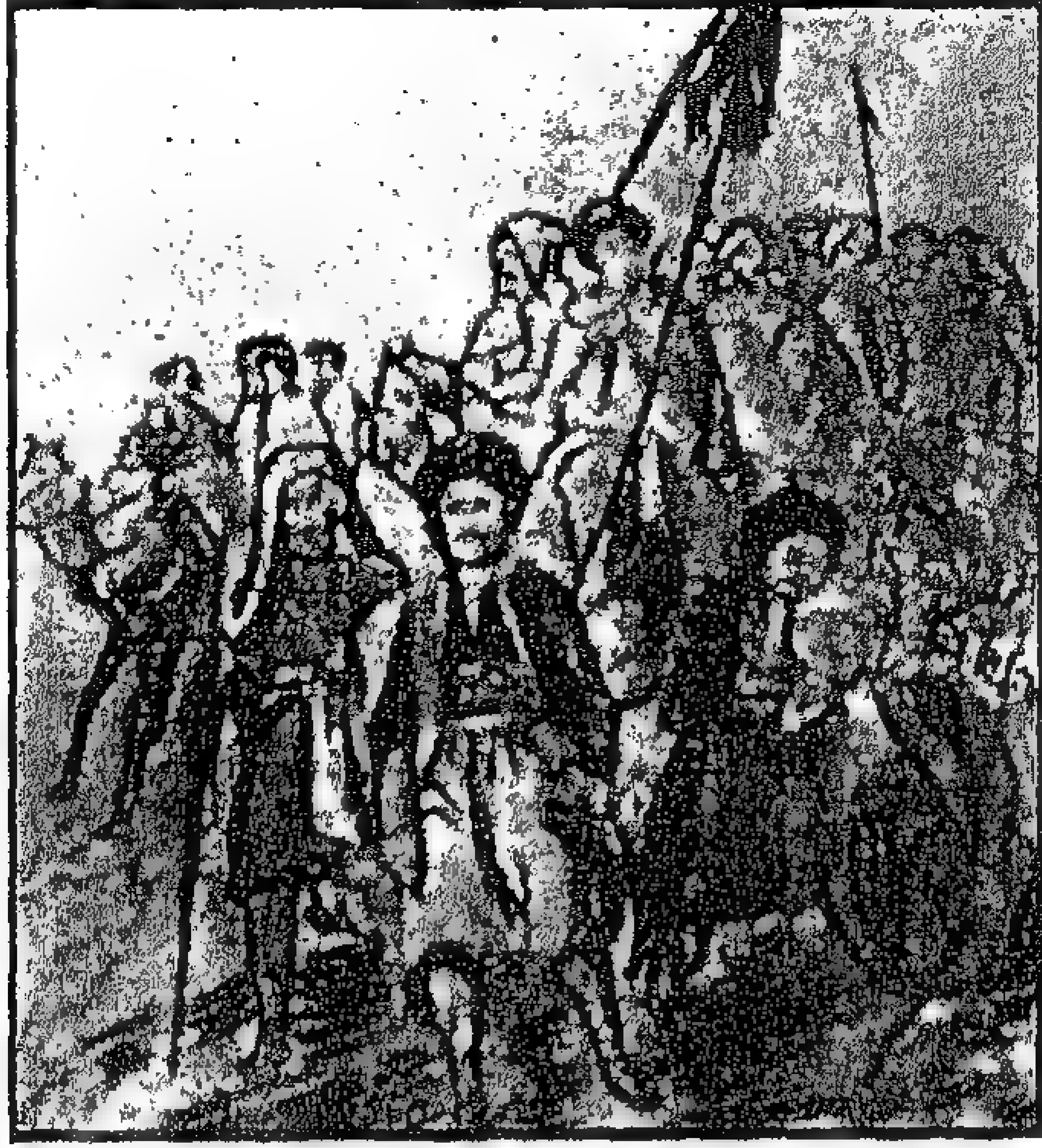
فضرب عليها نطاق الحصار برا وبحرا حتى كان يوم ٢٦ القعدة من السنة نفسها فحمل عليها حملة صادقة انتهت بتسليم المدينة . وكان بين من استسلم عبد الله باشا نفسه فأرسله ابراهيم باشا بناء على طلبه إلى الاسكندرية فوصلها فى ٣ المحرم سنة ١٢٤٨ هـ ودخل على محمد على فاستقبله استقبال الوزراء وعفا عن تقصيره السابق وبالغ فى إكرامه وضيافته. وتخليدا لتاريخ فتح عكا أنشد الشاعر شهاب الدين هذين البيتين وقد نقلناهما مع الأبيات التالية الأخرى عن كتاب « تقويم النيل » لسعادة أمين باشا سامى :

لقد نصر المليك عزيز مصر وبلغه المنى عزاً وملكا

فنادته العلا أن طب وأرخ بمجد العز تفتح ألف عكا

وفى ١٠ المحرم سنة ١٢٤٨ تحرك الجيش قاصداً دمشق فبلغ ضواحيها فى ١٤ منه وما هى إلا ساعات حتى فر والبها على باشا مصحوباً بالشوربجى والموظفين والأعيان عدا ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ من المشاة . ثم حضر إلى المعسكر نفر من الأهالى طالبين الأمن فأمنهم ابراهيم باشا . وعند شروق شمس اليوم التالى قصد إلى دمشق الأمير بشير فى نحو ٥٠٠ من الفرسان والمشاة بينما ذهب اليها ابراهيم باشا فخرج اليه كبار الاعيان ومسحوا وجوههم بتراب أقدامه . وفى المساء دخل المدينة فأنشد بعضهم هذين البيتين

إلى أن بلغت أبواب الاستانة نفسها (فبراير سنة ١٨٣٣) هنالك



ابراهيم باشا داخلا عكا راجلا على رأس جيشه

تدخلت روسيا فى الأمر ورأت أن تحمى العاصمة التركية بجيوشها وأساطيلها .

= تخليداً لتاريخ دخولها :

ولما جل شأن عزيز مصر ودان لعزه غرب وشرق

دعته الشام شرفنى وأرخ بيمن العز قد ملكت دمشق

وقد أمر محمد على فى يوم ٢٢ المحرم بعمل نيشان مكتوب عليه اسمه باحجار الماس النفيسة وأرسله إلى ابنه تذكاراً وتهنئة بفتح عكا .

وفى ٩ صفر سنة ١٢٤٨ انتقل صارى عسكر ابراهيم باشا فى خمس فرق من الجند قاصداً حمص حيث كان ينتظر الجنود العثمانية بقيادة محمد باشا والى حلب وعثمان باشا وعلى باشا والى دمشق السلف ذكره وغيرهم .

وفى ٨ يولية سنة ١٨٣٢ دارت معركة حامية بين الفريقين قتل فيها من الاتراك ٢٥٠٠ وأسر منهم ٢٠٠٠ بينما خسر جيش ابراهيم ١٦٢ جرحى و١٠٢ قتلى وفر الباشوات نحو حماه تاركين معسكرهم وبداخله ٢١ مدفعاً استولى عليها ابراهيم باشا كما استولى على أوراق مهمة نساها محمد باشا . وسلمت حمص وأنشد شاعرهم هذين البيتين =



صورة تذكارية لدخول ابراهيم باشا عكا أهداها معالى محمود فخرى باشا إلى دار الكتب الملكية.

مخلداً تاريخ الاستيلاء عليها :

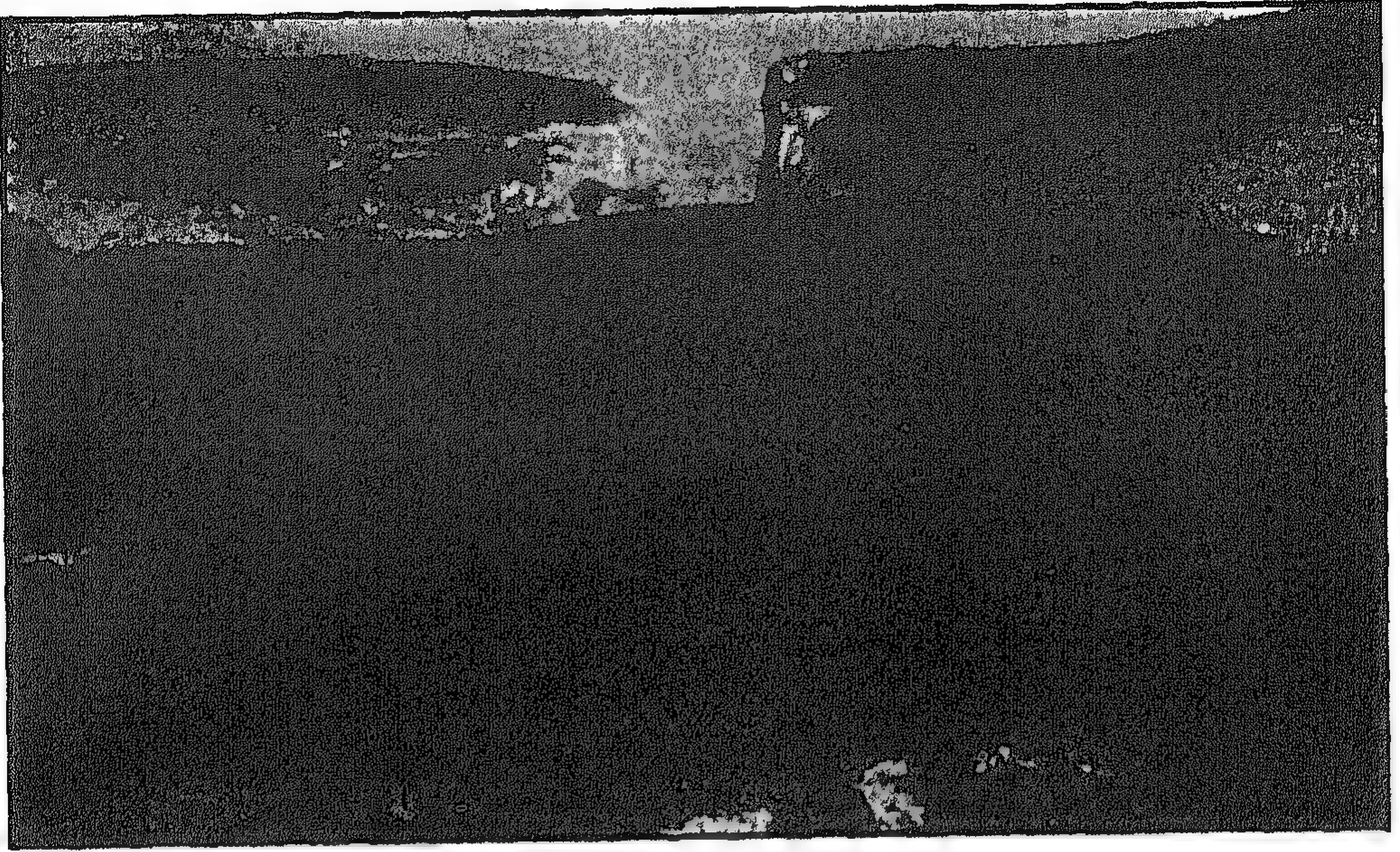
ياعزيزاً بمصر لازال يرقى ... فى كال ما أن يشاب بنقص
قر عيناً فالحظ يدعوك أرخ ... حزت فى جاه قوة ملك حمص

وما كادت الركبان ان تسير بأنباء هذه الانتصارات حتى وقع الذعر فى قلوب أهل سوريا وأصبحوا يخشون سطوة هذا الفاتح المظفر . وما كاد أن يتحرك جيشه فى ١١ صفر سنة ١٢٤٨ قاصداً حماه حتى استسلمت له المدينة بعد أن تخاذلت أمامه الجيوش العثمانية وعددها يبلغ العشرة ١ لاف مقاتل . ففر منها نحو الف وخمسمائة مقاتل ووقع الباقون فى الاسر وقد أنشد بعضهم مؤرخاً يوم دخول حماه فقال :

عظيم مصر أدام الله سطوته ... حاز الممالك من دان ومن قاصى
هذى حماة وهذى حمص أرختا ... مجد حوى الشام واستولى على العاصى

وفى ١٤ صفر تحرك الجيش قاصدا المعرة ومنها إلى تل السلطان فى طريقه إلى حلب فوصلها فى يوم ١٨ صفر وخرج إليه الأهلون يستقبلونه بالعز والاجلال معلنين طاعتهم للصارى عسكر وأنشد شاعرهم :

الحظ أقبل بالبشائر والهنا ... وصفا الزمان وراقت الصهباء



البوابتان الشهيرتان عندمدخل مقاطعة كليكيافى الاناضول وهما تطلان على سهل جيهان وقد نقرتهمايد الانسان ومنهماعبرت جيوش سميراميس واكزركسيز وداريوس واسكندر الأكبر وهرون الرشيد وجود فرى دىبويون وسليم الاول وابراهيم باشا لغزو الاناضول

ودعا السرورعزيز مصرمؤرخا   ازف المجال وهذه الشهباء

وما كاد أن يستقر المقام بابراهيم باشا حتى أصدر فى اليوم التالى ١٥ صفر أمرا بانتخاب أعضاء المجلس الذى أمر بانشائه عقب استيلائه على دمشق وكان مجموع الأعضاء ٢٢ شخصاً . ولكى تعرف مبلغ حب هذا الفاتح العظيم فى إقامة موازين العدل ومبلغ سهره على خير الرعيـة نسرد لك ترجمة الأمر التركى الذى أصدر بهذه المناسبة منقولا عن كتاب « تقويم النيل » قال :

« انه بالنسبة للحديث القائل بأن كل راع مسؤول عن رعيته وجب علينا النظر فى أمور الرعية وأحوالها بمافيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه التى لايحصل إلا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم وفصل الأحكام فيهم بالحق قد استحسنا تشكيل مجلس مخصوص من خواص العقلاء وأصحاب الرأى من الأعيان والأكابر والتجار والوجوه للنظر فى القضايا والمشورة فيها . ولذلك قد انتخبنا كم من عموم أهل الشام



محمود بك الأرنؤطى ناظر الجهادية
وجد سعادة عزيز باشا عزت ٭



السيد محمد باشا شريف
والى ألوية الشام ثم ناظر المالية ٭

وأذنا لكم لسماع الدعاوى وبتحويل الشرعية فيها على الشرع الشريف والفصل فى السياسية برأيكم وبعد المشورة وتداول الاراء بين أرباب المجلس جهراً واتفاق الآراء يحكم بما يتفق عليه ثم تقديم تقرير بما يتقرر لمتسلمنا للتنفيذ . ويكون ذلك بغير ميل ولا غرض نفس ولا شهوة خاطر ولا انحراف لكبير ولا لصديق ولا لوجيه . وكل من أخفى رأيه لعلة أو لعدم نقد كلام من هو أعظم منه من أرباب المجالس فيكون قد خالف أمره وبذلك يكون قد أوقع نفسه تحت الملامة . وقد صدر أمرنا هذا ليكون حجة عليكم فاغتنموا ثواب الرعية وخطة الخدمة الدينية الجليلة والحذر من الخلاف » .

ولما وصلت جيوش ابراهيم باشا إلى عكا واستولت عليها وتجاوبت ارجاء الشام بأنباء هذه الانتصارات الباهرة استولى القلق على الباب العالى وأظلمت الدنيا فى عينيه ورأى أن المسألة بعد أن كانت قاصرة على تأديب عبد الله باشا قد تحولت الى فتح سوريا ومحاولة الزحف على دار الخلافة . فاستقر الرأى على ارسال جيش تركى بقيادة الصارى عسكر حسين باشا لصد ابراهيم باشا . وقد انضم الى الاتراك محمد باشا والى حلب وغيره من البشوات المنهزمين . فتقدموا جميعاً الى مضيق بيلان الشهير وحصنوه أشد تحصين . ولما وصل ابراهيم باشا فى ٢ ربيع الاول إلى هذا المضيق شرع ينظم جيشه ويوزعه بين الربى والآكام . ثم نشبت المعركة حامية بين الفريقين فاسفرت عن هزيمة الأتراك وتركهم سلاحهم ومدافعهم عدا غنيمة كبرى بأيدى المصريين . وقد خرج أهالى بيلان للترحيب بالفاتح المصرى وأنشد بعضهم قائلا :

٭ هاتان الصورتان أهداهما سمو الأمير عمر طوسون للمعرب



أدهم بك

مدير المهمات *



سريزى بك باشمهندس دار الصناعة

مليك مصر أدام الله صولته   وزاد دولته حسناً وإحساناً
علياء همته قالت مؤرخة   مضيق بيلان حين الجهد بى لانا

وبعد هذا النصر الباهر واصل ابراهيم باشا زحفه بلا كبير مقاومة فى آسيا الصغرى فاجتاز جبال طوروس قاصداً الاستانة. وكان قد علم بأن الباب العالى أخذ يعد جيشاً عرمرماً بقيادة رشيد باشا فشرع ابراهيم من ناحيته يجند الجنود ويتأهب لملاقاة خصمه.

وبينما كان هذا يجرى فى سوريا كان ناظر الجهادية محمود بك الارنؤطى وهو جد صاحب السعادة عزيز عزت باشا منهمكا فى مصر باعداد المعدات وتجنيد الجنود وتزويدهم بالسلاح بأمر محمد على باشا لسد النقص فى صفوف القتال.

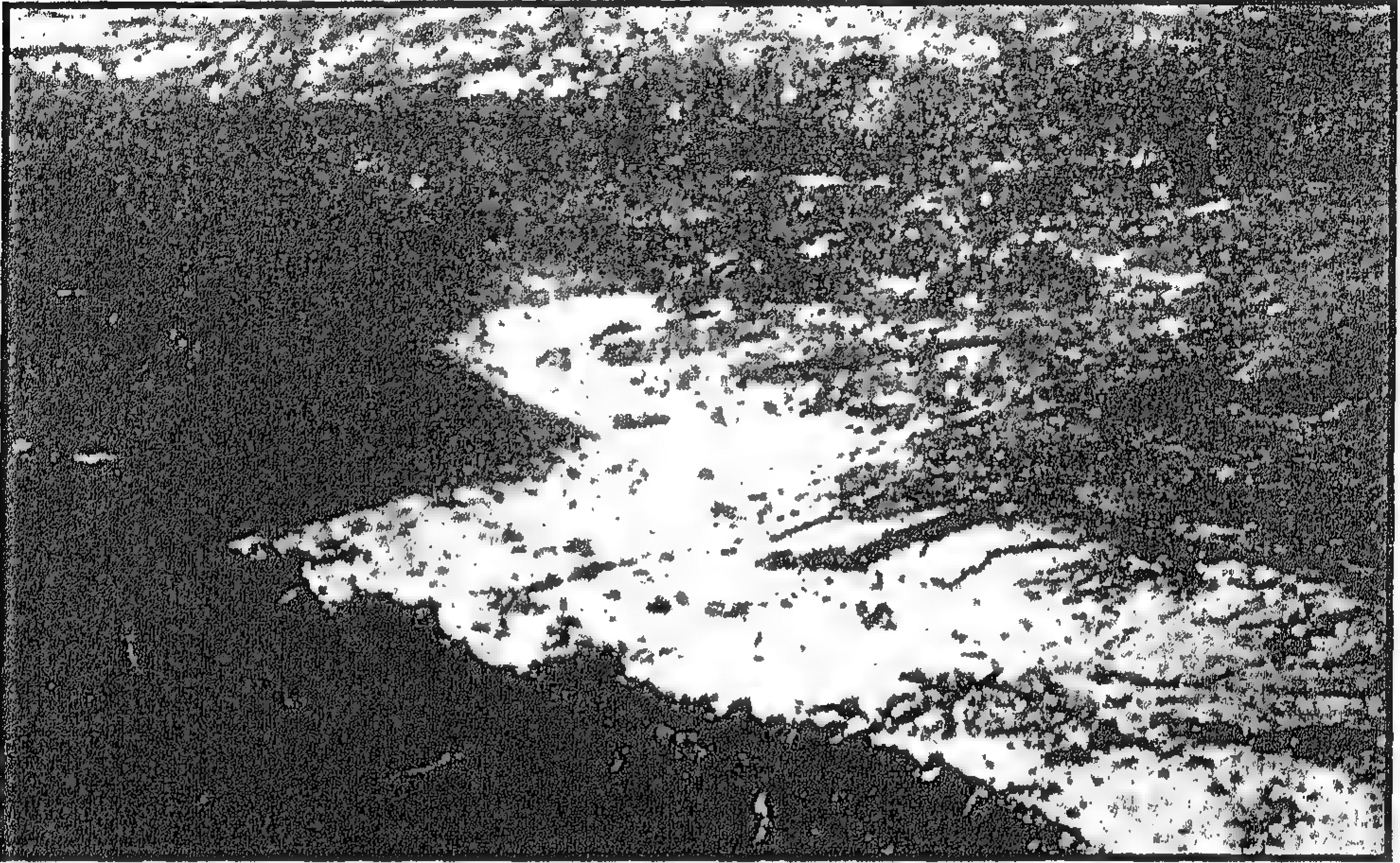
وفى يوم ١٤ ربيع الثانى صدر أمر محمد على باشا بتعيين قوله لى محمد شريف بك الكتخدا حكمداراً مستقلا لايالة عربستان الملحقة بالحكومة المصرية وذلك بناء على استحسان ابنه ابراهيم باشا.

وفى يوم ١٦ جمادى الأولى عين أدهم بك ناظراً للجهادية والمهمات الحربية وأخذ يهتم أيضاً بتجهيز المدافع اللازمة للحملة المصرية فى سوريا.

وتم وقتئذ صنع خمس سفن حربية بدار الصناعة باسكندرية وبدىء بانشاء خمس سفن أخرى كل ذلك تحت مراقبة سريزى بك الفرنساوى باشمهندس دار الصناعة.

* هذه الصورة أهداها للمعرب سمو الأمير عمر طوسون

فانسحبت الجيوش المصرية ولكن روسيا ما عتمت أن طالبت تركيا بثمن هذه المساعدة وهي معاهدة (هونكاراسكلاسى) التى



صحراء الصفاء فى جهة جبل الدروز حيث وقعت المعارك بين ابراهيم باشا والدروز فى جهة اللجة

= وفى يوم ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ أرسلت إلى محمد على باشا انباء بأن ابنه ابراهيم باشا التقى فى اليوم السالف الموافق أول ديسمبر سنة ١٨٣٢ بجيش رشيد باشا وعدده نحو ١٠٠٠٠ مقاتل بالقرب من قونية فشتت شمله وغنم المدافع والاسرى ومنهم سلاح دار الصدر الاعظم وقائد الجيش محمد باشا الكريدلى. ومن ثم أصبح الطريق للاستانة مفتوحاً أمام ابراهيم باشا فاخترق آسيا الصغرى وأصبح يهدد الاستانة.

وهنا بدأ الذعر يدب فى قلوب الدول الأوربية وأقلقها ما أحرزه ابراهيم باشا من الانتصارات الباهرة وخشيت أن يؤدى هذا الفوز إلى انهيار الأمبراطورية العثمانية وفتح باب المسألة الشرقية قبل الأوان المناسب. فقررت هذه الدول وفى مقدمتها روسيا التدخل فى النزاع وأوفدت إلى مصر الأمير مورافييف لاقناع محمد على بضرورة وقف الزحف على الاستانة وتهديده فى حالة الامتناع.

وضعت الأمبراطورية العثمانية تحت رعاية روسيا وحمايتها (٨ يولية سنه ١٨٣٣) وقد قنع محمد على بالاستيلاء على سوريا وأدنة بمقتضى معاهدة «كوتاهيا» وبصدور فرمان شاهانى بمنحه الباشوية (٦ مايو سنه ١٨٣٣)

وهكذا أصبح قيام أمبراطورية فى الشرق الأدنى حقيقة واقعة من



جيش محمد على فى لباسه العسكرى

= وقد وفق الأمير فى مهمته وأرسل محمد على إلى ابراهيم بوقف الزحف . وبعد مفاوضات مضنية وضع فى ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٤٨ الموافق ١٤ مايو سنة ١٨٣٣ مايسمونه « وفاق كوتاهيا » وبمقتضاه تكون سوريا قسما من المملكة المصرية وأن يكون ابراهيم باشا حاكمها وجابيا لخراج أدنة .

ومن ثم رجع ابراهيم إلى سوريا ووجه اهتمامه إلى تدبير شؤونها بالعدل والانصاف وبنى له بادىء بدء قصرا فى انطاكية وأنشأ فيها القشلاقات وعين اسماعيل بك واليا على حلب كما جعل احمد منكلى باشا واليا على أدنة وطرسوس واحتفظ لنفسه بالنظر فى الشؤون والاجراءات العسكرية .



في ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٤٤

يوم الثلاث

وقايع مصريه

جواهر تحميد خدا نثار وزواهر تصليه سلطان انبيا ايثار قلندقدن صكره معلوم اوله كه نسخهٔ مطبوعهٔ عالمده منتشرده صنوف صور اولان نوع بنی آدمك عالمده غفلت واجتماع وائتلاف واختلاطلرندن نشئت ايدن حركات وسكنات وبكديكره احتياج اقتضاسيله واقع اولان معاشرات ومعاملاتلرينك معانی وقايع ومبانی حوادثی صفحهٔ تحرير ايله بيانلرنده فوايد وثمرات وانه ره مزاج ودنه واقف وكيفيت حاله عارف اولملری ازهر جهتله وجهه ما ی وجهر صورت ايقان وتبصره مؤدی رحالات ايدوكی نوراورمرآت قلوب اولی الالباب حيا خطهٔ مصر وبدالمصرلده مصالح زراعت وخراثت وانواع صنايع وحرفت موادندن سوزده ظهور اولان دقت ورتق اموری بالمايشه موجب رفاه ورفاه اوله جق اسباب ممكنه نك استحصاله سعی وكوشش ومورث ضرر وكزند اولان كيفياتدن اجتناب واحترازه جهد وورزش سرمايهٔ نظام وانتظام عمارت قرا وبلاد ومدار رابطهٔ آسايش وراحت اهالی وعباد اولديغندن فكر وتدبيری انتظام عمارت قرا وبلاده مصروف ورأی ورويت رفاهيت وراحت فقرای عباده وقف اوله كلان آصف مرحمت معتاد افندمزك جرنال ديوانتك وضع وتاسيسندن مرادمعدلت اعتيادلری اقاليم مصريه مأمورلری معرفتلريله حسب المصلحه منافع ومضارهدائر الخ اولنان خصوصات وانه جرنال ديوانته كلك واول ديوانده تنقيه وتتبع قلنوق رفاه ومسايل اوله جق صورتله قولنلق واقتضا ايدنلره نشری ايله هر بر مصلحه نك كوربين منفعت ومضرت مأمورلرك معلوملری اولهرق موجب نفع اولانی انتخاب ومستلزم ضرر اولاندن اجتناب اولنه جق صورتلری اراوب بو ارادهٔ خيريهٔ خديوی بو ايكی تقدير جرنال ديوانده اولديغه اجرا اولنمقده ايسه ده لايقيله نشر واعلان اولنمق مجلس اوربده مذاكره اولنان وديوان خديويده رؤيت اولنان خصوصلر وحجاز وسودان ولايتلرندن وساير اطراف واكنافدن كلان اخبار واثاردن ايله النوب ذكر اولنان وقايع مطبوعه به علاوه قلنمسی مقصود اولان فوائد حسنه نك حسن حصولنه بادی ومأمورين عظام وساير حكام ذوی الاحترامك مرافق مصلحت اولان صنوف اموره شامله مؤدی اوله جغی واضح اولديغی ضمير الهام سمير حضرت داوری به لايح اولوب طبع وتمثيل ايله نشرينه امر وارادلری سانح اولديغندن حسبنا بالله المعين طبع وتمثيله مباشرت اولنمش ووقايع مصريه نامیله اسم وشهرت ويرلشدر وبالله التوفيق

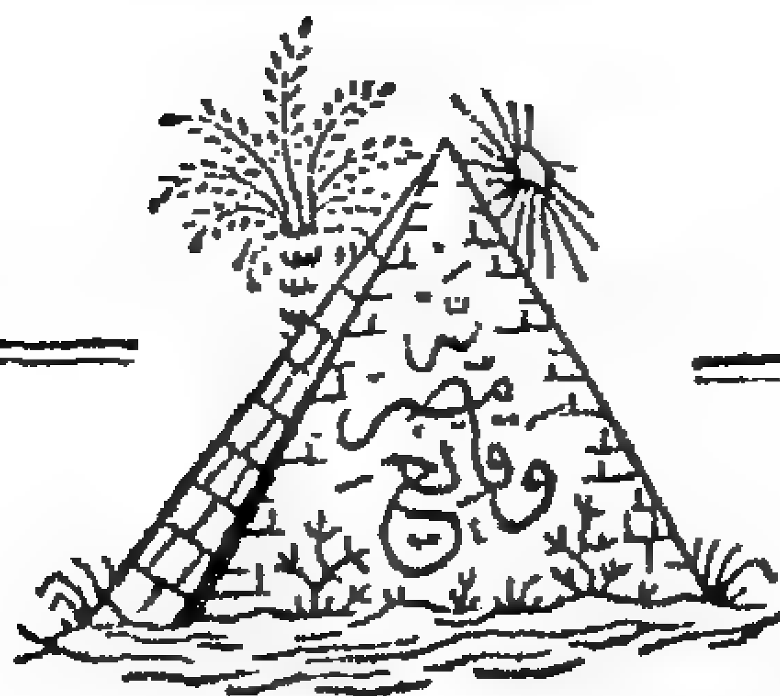
الحمد لله بارى الامم والصلوة والسلام على سيد العرب والعجم اما بعد فان تحرير الامور الواقعة من اجتماع جنس بنى ادم المدججين فى صفحة هذا العالم ومن ائتلافهم وحركاتهم وسكونهم ومعاملاتهم ومعاشراتهم التى حصلت من احتياج بعضهم بعضا هى نتيجة الانتباه والتبصر بالتدبير والاتقان واظهار القدرة العمومية وسبب يعقل منه يطلعون على كيفية الحال والزمان وهذا واضح لدى اولى الالباب ومن حيث ان الامور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى انواع الصنايع التى باشتغالها تاتى الاثار التى هى اسباب للحصول على الرفاهة وعلى الاجتناب والاحتراز عما ينتج منه الضرر والاذا خصوصا فى مصر بل هى اساس نظام البلدان وتدبير راحة اهلها فتفكر حضرت افندينا ولى النعم فى ترتيب احوال البلاد وعمارها واعتدال امورها وتوطيدها وفى نظام القرى والبلدان ورفاهية سكانها وراحتهم ووضع ديوان الجرنال قاصدا من وضعه ان ترد الامور الحادثة الناتج منها النفع والضرر الى الديوان المذكور وان ينتخب وينتفع به منها ما منه ينتج النفع والافادة حتى اذا ظهر عند المامورين نوعا النفع والضرر ينتخب ما منه تصدر المنفعة ويجتنب عنه ما منه يحصل الضرر وهذه الارادة الصالحة الصادرة من حضرة سعادة ولى النعم وان كانت قد جرت فى ديوان الجرنال الى الان الا انها لم تكن عمومية انما الان فاراد ولى النعم ان الاخبار التى ترد الى الديوان المذكور تتتبع وينتخب منها ما هو مفيد وتنتشر عموما مع بعض الامور التى ترد من مجلس المذاكرة السامى والامور المتشاور بها فى ديوان الخديوى والاخبار التى تاتى من اقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات اخرى وذلك ليكون كله نتيجة للحصول على الفوائد الحسنة التى هى مقصود ولى النعم وتنوية المامورين الفخام وباقى الحكام الكرام الذين يدبرون الامور والمصالح ومن كون هذا الشى قد لاح فى ضمير الذات السنية ولى النعم صدر امره الشريف بطبع الامور المذكورة وانتشارها عموما حسبنا بالله وقد سميت واشتهرت بالوقايع المصريه وبالله حسن البنيه

طبعت هذه الوقايع المصريه بعون خالق البريه في [illegible] صاحب الفتوحات السنيه ببولاق مصر المحميه

صورة الصفحة الأولى من العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية التى أنشأها ساكن الجنان محمد علي باشا ويرى إلى الجانب الأيمن المقال الافتتاحي باللغة التركية وترجمته باللغة العربية إلى اليسار

بولاق مصر | نمره ١٩

يوم الجمعة | في ١٣ شوال سنة ١٢٤٤



رمضانك اون اشنده ترييسته دن برقطعه نمچه سفينه سى كراسته وامتعه وارنور بيك فرانسه ايله خواجه بازركان اوزرينه يكرمى التى كونده ومالطه دن برقطعه انكليز سفينه سى بر مقدار امتعه حموله سيله قورتيسى بازركان اوزرينه طقوز كونده وقره ورمه دن برقطعه شود سفينه سى بلا حموله موره اهاليسندن چولوق چوجوقلريله اون نفر مسلمان يولجيلر ايله دانستاسى بازركان اوزرينه اون اوچ كونده وترييسته دن برقطعه نمچه سفينه سى كراسته حموله سيله ودانستاسى بازركان ذمتنه ايكى قطعه سفينه ديركى وبشبيك فرانسه ايله تلكى بازركان اوزرينه اون التى كونده اسكندريه ايله ايتانه كلمشلردر

انا بعدن اسكندريه يه كوندريله جك غلال واصنافك نقلنه سهولت ايچون نيل مباركك رشيد ودمياط طرفلرينه منقسم اوله جق محلده كائن شلقان قريه سى قارشوسنده قامشدن شونه انشا اولنوب مامورلره محمولا كلان قايقلر بوش اعاده اولنميه رق غلال واصناف تحميليله شونه مذكوره يه كوندرلسى ومحروسه مصردن بحيرايه وارنجه ايكى قريه اراسى برملقه اعتباريله طقسان التى ملقه اولوب بهر ايكى ملقه يه بر صندل وبهر صندله درت طقوزنه ايله بر رئيس تخصيص واوزرلرينه بر مستند قواص تعيين قلنه رق امدشدلردن محمول وغير محمول قايقلرك محل مامورلرينه سوق وتسييرلرى وقايق تعميره محتاج اولوب قدرتى اولميان رئيسلره اعانه اولنمق اوزره اقاليم قبليه طرفلرنده مقيم قبودانلره تقدمه دن يعنى نيلك نهايت تعادل وبدايت تزايدى وقتى اولان ارادن ايكى ماه اول يوز قنطار زفت وبش قنطار قطران واون قنطار مسمار ويكرمى بش قنطار مشاق ويوز عدد تاخته جى تخته سى ويوز عدد يلكن بزى وبشبيك غروش اعطا وتسليم اولنوب قايق تعميره محتاج اولان رئيسلره بلاربح ثمن اصليه سيله سندى النه رق لزومى قدر اعطا اولنه رق سندلر وقتيله بولاق شونه سى ناظرينه اسرا قلنمسى وموجبنجه اجرتلرندن تنزيل وباسوردناتى قطع وحصم اولنمسى وبواصول رشيد ودمياط صوللرنده دخى اجرا اولنمسى محرك اشعارى وغلال واصنافك سهولتله نقل وتسيارى خصوصنه بادى اوله جغنى محموديه ترعه سى تطهيرينه مامور سابق ترسانه لر ناظرى شاكر افندى حضرتلرى مجلسه عرض ايتمش واقتضاسى بالمذاكره نيلك فيضاننده قايقلر سرعت سير ايله مرور وعبور ايده جكلرندن شلقان قارشوسنده شونه انشاسندن صرف نظر اولنوب سائر تربياتى ايسه اولنمش وشراعلريله درت كوركلى اون ايكى عدد صندل مطلوش بك حضرتلرى ملى تقدينى انشا اولنوب تنه ويلكن وسائر ادواتيله سريعا محروسه مصره كوندرلسى وقايقلرى تعميره محتاج اولان رئيسلره صرف ايچون اعطاسى لازم كلان ادوات سائره سى ترسانه لر ناظرى خليل افندى طرفندن قيمت اصليه سيله جلب وبلاربح سنديله صرف وسندلرى

قد ورد الى الاسكندريه سفينة نمساوية من تريسته موسوقة اضاعة وخشبا وفيها ثلثون الف ريال فرانسا على ذمة الخواجا جوبارورك في ستة وعشرين يوما وورد من مالطه في تسعة ايام سفينة انكليزية موسوقة اضاعة على ذمة الخواجا قورتيسي وورد من كرفو في ثلثة عشر يوما سفينة شود على ذمة الخواجا دانستاسي بغير وسق فيها عشرة رجال من مسلمي المورة مع اولادهم وعيالهم ووردت سفينة نمساوية من تريسته في ستة عشر يوما موسوقة خشبا وقد طلعت معها الى الخواجا دانستاسي صاريين والى الخواجا تلكي خمسة الاف ريال فرانسا وذلك في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان

لقد عرض الى المجلس العالي شاكر افندي الذي كان سابقا ناظر الترسانة والان ناظر تصليح ترعة المحمودية عرضا قال فيه انه اذا انشى شونة عند مفرق النيل المبارك الى ناحيتي دمياط ورشيد قبالة قرية شلقان فيصير نقل الغلال والاصناف من الاقاليم اليها سهلا وترجع المراكب الموسوقة بالغلال الى الاقاليم غير فارغة بل تنقل منها الغلال والاصناف الى الشونة المذكورة بكل سهولة وقال ايضا انه لقد علم ان القرى الكائنة ما بين مصر وبحرا بين كل قريتين منها ساعة سفرا وهي جميعها ستة وتسعون ساعة وانه قد يسهل نقل الغلال والاصناف ويصير بحر النيل بالمراكب بشرط ان يخصص على كل ثمان ساعات مما ذكر صندل يكون فيه رئيس واربعة ملاحون وقواص ناظر على سير المراكب الواسقة والغير واسقة عند ذهابها ومجيئها وان يرسل الى القبطانات المقيمين في الاقاليم القبلية قبل فيضان النيل ماية قنطار زفت وخمسة قناطير قطران وعشرة قناطير مسامير وخمسة قناطير مشاق وماية عدد من الواح الخشب وماية ثوب من قماش الشراع وخمسة الاف غرش حتى اذا احتاج احد الريسا الى اصلاح مركبه وكان غير قادر على ذلك يأخذ من القبطانات المذكورين ما يلزمه اصلاحه وذلك من غير ربح بل يؤخذ منه سند بذلك ويرسل هذا السند الى ناظر شونة بولاق وهنالك يخصم بموجبه ثمن ما اخذ من اجرته وان هذا الترتيب ينبغي ان يكون في رشيد ودمياط فمن ثم تذاكر اهل المجلس في هذا وحكموا بانه من حيث ان المراكب تجري عند فيضان النيل سريعا فلا يلزم بنا الشونة المذكورة في المحل المذكور بل ينتصب تدبيره الاخر وهذا يلزم له امر وتنبيه على مطلوش بيك كي ينشئ اثنى عشر صندلا يحمل احدها اربعة مجاذيف مع شراعه وسائر ما يلزمه حينئذ تاتي الى المحروسة بكل اسراع وحكموا ايضا انه اذا لزم للروسا شي اخر يعطى لهم من خليل افندي ناظر الترسانات بثمنه الاصلي من دون ربح ويوخذ منهم سند بذلك ويرسل الى ناظر شونة بولاق وثم يخصم من اجرتهم ثمن ما اخذوا ثم انه لعلة التلقانية لزم ان يوتى بالاولاد المقتدرين من الاقاليم ليتعلموا هذه الصنعة بحيث يكون عمرهم من الاثني عشر سنة الى الخمس عشرة وبهذا الطريق يحصل الاهتمام

صورة الصفحة الأولى من العدد التاسع عشر من جريدة الوقائع المصرية بعد تغيير شكلها وهي محررة باللغتين التركية والعربية

الوجهة الأدبية بعد أن تمكنت جيوش الفلاحين من صد مستعمريهم الأتراك فى ثلاث معارك حاسمة وهى معركة حمص ، وبيلان وقونية . وكانت الجيوش العثمانية قد اختل نظامها بما أدخله عليها السلطان محمود من الاصلاحات وتسرب إلى قلوبها اليأس من جراء مانزل بها من الهزائم على أيدى الروس وخارت قواها بسبب خيانة خسرو الذى حرم من تولى القيادة العليا . على أن الترحيب الذى استقبل به المصريون من الشعوب المستبعدة فى الامبراطورية العثمانية سرعان ماتلاشى أثره برفع سوريا وفلسطين راية العصيان [1] ولم



ارتين افندى والد يعقوب باشا ارتين وكيل مدرسة المهندسخانه من مايو الى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٣٤ وكان محمد على يرجع إليه فى أمور التعليم

قيام الفتن وقمعها

(١) بعد أن وضع اتفاق كوتاهيا على مامر بك عاد ابراهيم باشا إلى سوريا وشرع يدير أمورها بما تقضى به أصول العدالة والانصاف ولكن محبى الاصطياد فى الماء العكر ما لبثوا أن نفخوا فى بوق الثورة فاشتعلت نار الفتن مما حمل ابراهيم باشا على معالجة الأمور بمنتهى الحزم واستعمال الصرامة مع من ثبتت إدانتهم . ولما كانت حوادث العصيان وما تلاها من الأهمية بمكان رأينا أن نقص عليك بعض تفاصيلها .

« المعرب »

فى أواخر سنة ١٢٤٩هـ وأوائل سنة ١٢٥٠ أى حوالى منتصف عام ١٨٣٤ ثارت بعض الفتن فى جهة السلط والكرك وامتدت إلى القدس . ثم سرعان ما امتدت إلى السامرة وجبال نابلس كل ذلك وابراهيم باشا مقيم فى القدس .

وما كادت هذه الأنباء تصل بمحمد على باشا عزيز مصر حتى أصدر أوامره فى أوائل صفر سنة ١٢٥٠ بارسال عدة الايات إلى غزة مزودة بمهماتها ومدافعها . بل أن بعض=


أحد مشايخ الدروز

تقمع فتنة الدروز والموارنة إلا فى سنة ١٨٣٨ ثم لا تنس بعد كل ما مر بك أن العبء كان فادحا بحيث كانت تنوء به قوة مصر. وأغلب الظن أن شعباً آخر عدا الشعب المصرى ما كان فى مثل هذه الأحوال يتردد فى المناداة بالثورة احتجاجا على

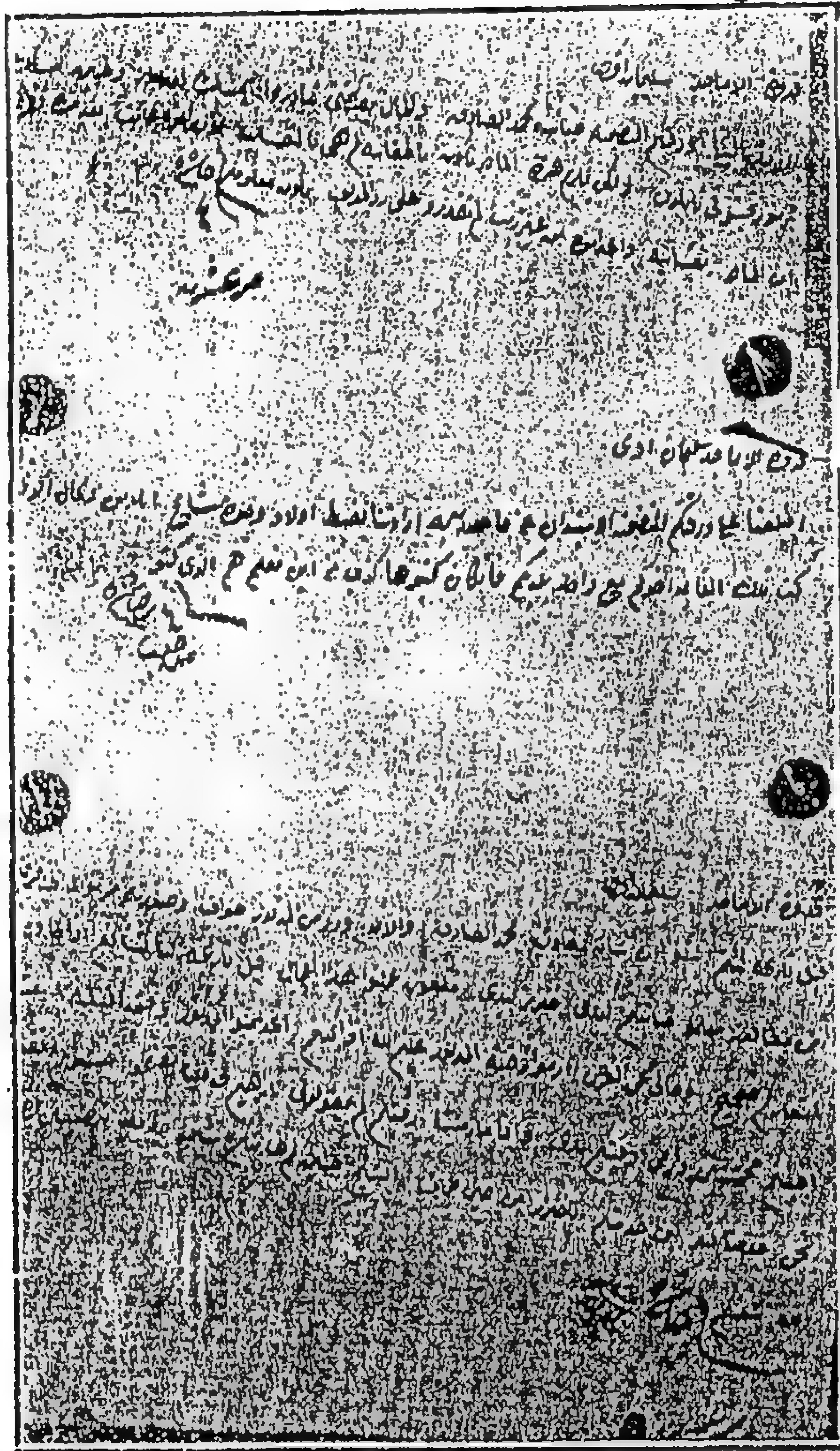
= الآلايات التى كانت قد حشدت لارسالها إلى الحجاز قد صدرت إليها الأوامر بالذهاب إلى الشام. ولم يكتف محمد على بذلك بل جند بعض عربان قبيلتى أولاد على والجميعات وبعث بهم إلى غزة وأمرهم باستعمال الصرامة مع العربان الثائرين.

وفى إبان شهر صفر سنة ١٢٥٠ تمكن ابراهيم باشا من هزيمة أشقياء العربان فى جهات نابلس والقدس. ولكن هذه الهزيمة ساعدت على انتشار الثورة فى كافة أنحاء سوريا مما حدا بمحمد على إلى السفر من الاسكندرية فى أواخر الشهر المذكور قاصداً إلى يافا حيث جعل وجهاء البلاد يتقربون منه. وقد اجتمع محمد على بولده ابراهيم وتباحثا فيما ينبغى اتخاذه من الاجراءات لقصم ظهر الفتنة التى كانت ماتزال مستعرة وبخاصة فى جهتى نابلس والقدس.

وأخيرا أدت أعمال ابراهيم إلى التغلب على الثوار وقمع الفتنة لا فى جهة صفد وحدها بل وفى القدس ونابلس أيضا. ثم توجهت الجنود المصرية إلى السلط والكرك فهدموها.

على أن الفتنة بعد أن نامت قليلا عادت إلى الظهور مرة أخرى فى جبال النصيرية حيث خرج جماعة من الأهالى للاشتباك بفرقة من الجنود المصرية كانت فى طريقها من اللاذقية إلى حلب فأعادوها من حيث جاءت.

وكان الأمير بشير الشهابى قد أرسل فى خلال ذلك الوقت ولده أمينا إلى محمد على ليخبره بانتظار والده لأوامره بتسيير القوات اللازمة من صفد لقمع الثائرين. فأصدر اليه محمد على الأوامر اللازمة. وما هو إلا قليل حتى اتحد ٧٠٠٠ من المصريين مع ٨٠٠٠ من الدروز والموارنة بقيادة الأمير خليل بن الأمير بشير أمير لبنان وسار الجميع إلى جبال النصيرية حيث تمكنوا من اخضاع الثائرين نهائياً وحملوهم على القاء سلاحهم =



انموذج من سهر ابراهيم باشا على سير العدالة
كما تشهد بذلك كتبه الثلاثة المذكورة فى هذه الصورة إلى والى نابلس سليمان أفندى
يأمره فيها باقامة العدل بالقسطاس المستقيم ويحذره من الانقياد للعواطف وحب الانتقام

= وزيادة فى الاحتياط وخوفا من العودة إلى الثورة شرع ابراهيم باشا فى نزع سلاح السوريين. وقد تمكن من ذلك ولكنه لم يستطع تجريد اللبنانين .

وبعد أن خلا بال ابراهيم من نزع سلاح السوريين بدأ بمساعدة الأمير بشير فى الهجوم على أهالى الشوف والمتن فى لبنان وتجريدهم من سلاحهم وبذا استتبت السكينة فى انحاء البلاد وهدأت الأحوال فيها واستأنف ابراهيم أعمال الادارة الصالحة بما عهد =


حسين محمد كيمانى وأحد طلبة بعثة محمد على فى فرنسا

قسوة محمد على ولكن الفلاحين بدلا من ذلك كانوا يموتون بالألوف أو يفرون أو يشوهون أجسامهم عمداً هرباً من الانخراط فى سلك الخدمة العسكرية البغيضة .

ولو كان محمد على ترك وشأنه لكان الأرجح أن يحجم عن تجديد الكفاح ولكن بريطانيا ما كان ليرضيها بحال ما أن تسد دولة شرقية الطريق البرى فى وجهها. ولقد ترتب على تخوف محمد على من أنه إذا

= فيه من الحزم المنطوى على حب العدالة والانصاف كما تشهد بذلك كتبه إلى والى نابلس المنشورة فى الصفحة السالفة. وقد طلب فيها معاملة الثائر محمد الصادق معاملة تنطوى على العدل وعدم الانقياد لحكم العواطف . وزاد على ذلك أنه تهدده بالاعدام بعد إذ تبين أن طلبه إعدام الثائر المذكور كان بلا وجه حق . وقد جاء فى الخطاب الثالث قوله « إذا كنتم أعدمتموه فوحق الكعبة سأبعث أجيئكم مخشبين وأرمى رقبتكم بيدى . . وإذا لم أفعل فلن أكون ابراهيم » .

على أن محمدا علياً أحب استخدام سوريا لتوسيع دائرة حكمه فشرع فى جمع الرجال والخيول بالوسائل القهرية مما غضب له الباب العالى فعقد مجلساً فى يناير سنة ١٨٣٩ وقرر إرسال تجريدة قوامها ٨٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة حافظ باشا وسيرها ضد ابراهيم باشا بقصد إخراجه من سوريا .

تركيا تحاول إخراج ابراهيم باشا من سوريا

وكان شبح الذهب فى الأقاليم الاستوائية مايزال ماثلا فى مخيلة محمد على. فعقد النية على الذهاب إلى السودان للاشراف بنفسه على أعمال الكيمائيين القائمين بالبحث على المعادن فى تلك المناطق النائية. وهكذا شخص إلى السودان تاركا أمور مصر فى أيدى حفيده عباس الثانى وكان قد عين من قبل مديراً للغربية . ولشد ما كان اغتباط محمد على عند مارأى الأمن موطدا فى السودان والعدالة تجرى مجراها فى كافة ربوعه .

أعطاها شبراً من الأرض أن تطمع فى ذراع ثم فيما هو أكثر من ذلك وهكذا دواليك ، أنه رفض بتاتاً منحها امتيازاً بانشاء سكة حديدية عبر



جيش إبراهيم باشا فى نصيبين

برزخ السويس (١٨٣٧) وإذ كانت لندن تنظر بعين السخط الشديد إلى انتشار سلطة مصر على بلاد العرب حتى الخليج الفارسى فانها انقلبت

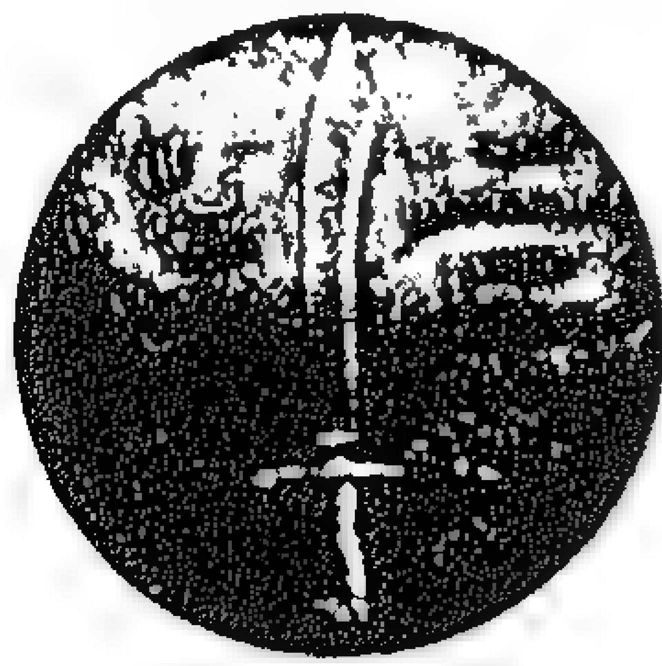
= وبينما هو يجرى وراء سراب الذهب جاءته أنباء الحملة التى جردها السلطان محمود بقيادة حافظ باشا لاخراج ابراهيم باشا من سوريا . فاهتم لهذا الخبر وقفل راجعاً إلى مصر بعد أن كتب إلى ولده ابراهيم يكلفه بالاستبسال فى الدفاع . فصمم هذا على حشد قواته فى حلب وشرع يعد عدته للفتك بالحملة التركية المذكورة .

وكأن السلطان محمود لم يكفه توجيه تلك الحملة الهائلة براً بل قرر فى الوقت نفسه إرسال عمارة بحرية إلى المياه المصرية . والآن فاسمع ما أنزله القدر بالقوات التركية البرية والبحرية.

ففى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ تقدم ابراهيم باشا من حلب لملاقاة جيش حافظ =

تناضل بشدة عن مبدأ صيانة سلامة الأمبراطورية العثمانية ولهذا احتلت عدن من قبيل الاحتياط لتكون بمثابة مخفر أمامي ضد مصر. ولكن فرنسا كانت من الناحية الأخرى تؤيد توسيع مصر. وسرعان ما وقعت الأزمة عند ما تبين لمحمد على أن المعاهدة التجارية بين انجلترا وتركيا (١٨٣٨) أصبحت خطراً على نظام التجارة الحكومية بأسره إذ كان يعرف أن ما تعقده تركيا من





مدالية لمحمد على باشا ضربت فى باريس سنة ١٨٤٠
تذكاراً لمعركة نصيبين — الوجه الآخر للمداليه

المعاهدات يسرى مفعوله على مصر حتما. ولذا طلب جعل مصر مستقلة

= باشا . وفى يوم ١٣ منه التقى به فى جهة نازيب فنشبت معركة عنيفة بين الفريقين مدة ثلاث ساعات دارت فيها الدوائر على الجيش التركى ففر هاربا إلى مرعش بعد ما غنمه ابراهيم باشا من المدافع والمهمات والاسرى. وقد قدرت خسائر القوة التركية رسمياً بما يأتى ٦٠٠٠ قتلى و ١٦١٠٠ أسرى و ١٤٥ مدفع من جملة ١٦٠ مدفع.

ثم واصل الجيش المصرى زحفه فاستولى على نصيبين واحتل مدائن عنتاب وقيصرية وملطية.

وفى ١٩ من هذا الشهر نفسه (أى مايقابل سنة ١٨٣٩) وقبل أن تصل أنباء هذه الهزائم إلى الاستانة توفى السلطان محمود الثانى فجأة (وأشيع أن خسرو هو الذى دس له السم) وخلفه على العرش ابنه السلطان عبد المجيد خان وهو بعد فى سن الثامنة عشرة. وقد اعتلى العرش والدولة أشد ماتكون اضطراباً من جراء ما أحرزه ابراهيم من الانتصارات الباهرة.

أما العمارة البحرية فان قائدها أحمد باشا القبودان بعد أن رأى خوسرو باشا يتولى منصب الصدارة العظمى أجمع أمره على أن يسلم عمارته جملة واحدة لمحمد على بدون حرب أو كفاح. وقد تم هذا كله فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ وكانت له رنة =

عن الأمبراطورية من الوجهة التجارية . ولكن السلطان محمود رد على هذا الطلب بأن أعلن أن محمداً علياً ثائر . فبادر هذا بغزو سوريا. وهنا شرع ابراهيم من جديد يكرر انتصاراته القديمة بالرغم من انضمام الجنرال « فون مولتكه » الكبير إلى جانب الأتراك . وأخيراً اضطر السلطان إلى فتح باب المفاوضات مع محمد على ولكنه انتقل إلى جوار ربه بعد أن دس له خسرو السم على الأرجح .

وقد أصبح هذا الأخير صدراً أعظم فى عهد عبد المجيد السلطان الجديد . وهنا أعلن قبودان باشا منافس خسرو وعدوه الآن — بتحريض

= فرح عظيمة فى مصر مما جعل محمداً علياً يصدر أوامره باقامة المهرجانات والأفراح بمناسبة حضور احمد باشا المذكور وانزاله فى قصر خاص كتشيف على عزيز مصر .

وفى ١٣ جمادى الأولى أرسل محمد على كتاباً مطولا إلى وزراء السلطنة العثمانية أعرب فيه عن ارتياحه لتبوؤ السلطان الجديد عرش السلطنة ويعلن خضوعه وعبوديته وينصح باقصاء خسرو باشا عن منصب الصدارة بعد أن نكبت الدولة بمشورته السيئة . وقد دافع عن عمل أحمد باشا القبودان أحر دفاع قائلا إنه كان موفقاً فى ضم العمارة التركية المركبة من ٢٣ سفينة إلى العمارة المصرية حقناً للدماء ولتكون العمارتان عدة للدولة فى مدلهمات الخطوب .

وفى ٢٢ من هذا الشهر نفسه أصدر محمد على منشورا فى كافة أنحاء القطر بأنه تبين من مكاتبة الصدر الأعظم أن جلالة السلطان الجديد أصدر نطقه الشاهانى بالعدول عن مجادلة والى مصر وصرف النظر عما حدث بينه وبين جنتمكان والده من أسباب الشحناء والخصام ووعد بارسال النيشان كالمعتاد ولهذا فهو يأمر باطلاق المدافع والدعاء باسمه فى خطب المساجد .

فلو كان الحظ شاء أن يقع الاختيار لمنصب الصدارة على رجل آخر عدا خسرو باشا أو لو كان هذا الرجل رجل سلام لانتهز فرصة جلوس جلالة السلطان الجديد على العرش ومبادرة محمد على إلى اعلان خضوعه وعبوديته له لاعادة المياه إلى مجاريها وتوحيد الجبهة إزاء الدولة الغربية التى كانت واقفة بالمرصاد ترقب أول فرصة لتحقيق أمانيها فى تقسيم تركة « الرجل المريض » .

الفرنسيين — أنه انضم الى محمد على وفعلا سلمه الاسطول . هذا فى حين أن الجنود العثمانية بدأت تتردد فى ابداء ولائها (يولية سنة ١٨٣٣) وهكذا صارت تلك الأمبراطورية غنيمة باردة يسهل وقوعها فى أيدى هذا الباشا العتيد .

على أنه كان من سوء الطالع بالنسبة لمطامع محمد على الاستعمارية - بقدر ما كان من حسن الحظ بالنسبة لتكوين مصر كأمة - ان سياسة بريطانيا فى هذه الازمة كانت نفس السياسة التى عرفت عن بالمرستون ، سياسة التورط المنطوى على الجرأة والنشاط . ولما كانت غايتنا التقليدية هى صيانة الأمبراطورية العثمانية ضد مطامع روسيا بالتآزر مع فرنسا فقد

= ولكن . . . نعم ولكن . . . شاء سوء الحظ أن يندفع خسرو بتأثير حقده القديم على محمد على بمناسبة طرده من مصر - على مامر بك - إلى دس الدسائس بقصد الكيد لخصمه القديم مما كانت نتيجته انزال النكبات بتركيا وبمصر جميعا .

الدول الأوربية تكيد لمحمد على

والآن فألق بالك إلى ماسنسرده عليك من هذه الدسائس كما لخصناها عن كتاب « تقويم النيل » لأمين باشا سامى

ففى أوائل شهر رجب (سبتمبر سنة ١٨٣٩) عرض لورد يونسبنى (سفير انجلترا فى الاستانة) على الباب العالى استعداد دولته لارغام محمد على باشا على رد العمارة التركية بشرط تخويلها حق ادخال سفنها الحربية (سفن انجلترا) فى خليج الدردنيل والبوسفور لصد روسيا عند الضرورة .

ولكن فرنسا ما كادت تعلم بهذا السعى حتى كلفت الاميرال لالند قائد أسطولها فى المياه التركية (١٨ ديسمبر سنة ١٨٣٩) بعدم الاشتراك مع السفن البريطانية فى أية حركة عدائية ضد محمد على .

وكان قناصل الدول فى الاستانة قد خشوا عند سماع انضمام العمارة التركية إلى محمد على أن يواصل ابراهيم زحفه على الاستانة بعد أن فقدت الدولة كافة جيوشها وأساطيلها فتتدخل روسيا طبقاً لأحكام معاهدة (هونكاز اسكلاسى) وترسل جيشاً لمحاربته فأرسلوا فى ١٦ جمادى الأولى (٢٨ يوليه سنة ١٨٣٩) مذكرة مشتركة إلى الباب العالى وقعها سفراء فرنسا وانجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا بالا يقرر شيئاً فى صدد المسألة =



لورد بالمرستون وزير خارجيه بريطانيا سابقاً

= المصرية إلا باطلاعهم واتحادهم وأبدوا له استعدادهم للتوسط بينه وبين محمد على لحل الأشكال . فقبل الباب العالى وبعد يومين اجتمع السفراء فى دار الصدارة العظمى للتشاور فيما ينبغى إعطاؤه لمحمد على . وكان من رأى سفيرى انجلترا والنمسا ضرورة ارجاع الشام لتركيا وعارض فى ذلك سفيرا فرنسا وروسيا وطلبا منح محمد على ملك مصر وولايات الشام الأربع . ثم انحاز سفير روسيا إلى الرأى الأول فتقرر بالأغلبية . وطلب كبير وزراء النمسا عقد مؤتمر دولى فى فينا أو لندن لاتمام البحث فى القضية المصرية ولكن طلبه هذا لم يقابل بالارتياح فوقفت المباحثات .

وتوالت الحوادث إلى أن أصدر محمد على أمراً إلى حفيده عباس باشا الأول فى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٥٦ بأنه تحقق من وصول عمارتى انجلترا وفرنسا إلى بيروت وأنه وإن كان ارسالهما لايدل على قصد سىء مبيت إلا أن الضرورة تقضى باتخاذ الاحتياطات اللازمة الخ الخ .

معاهدة لوندرا

وفى ١٥ جمادى الأولى الموافق ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ امضيت معاهدة لوندرا وصدق

كان يلوح أن الحل البديهى الوحيد هو ان لا نعارض فى دخول محمد على الاستانة حيث ينشىء الأمبراطورية نشأة جديدة. بيد أن حلا كهذا كان يقتضى بطبيعة الحال تحولا فى مسلك السخط الذى سلكه بالمرستون حيال محمد على مما كان حريا بان يسىء الى شخصيته بقدر ما كان يحط من هيبته . أضف الى هذا اعتقاده بان النظام الاقتصادى الذى كان يتبعه محمد على كان على وشك الانهيار وفى هذا الصدد كتب الدكتور بورنج وهو ممن يتحملون أكبر نصيب من التبعة عن سير علاقاتنا الخارجية يقول «ان قوة الباشا وهمية بحتة بحيث يعتبر عاجزاً عن ابداء أية مقاومة جدية» (راجع التقرير الخاص بمصر وكنديا وكذلك الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠)

عليها مندوب الدولة العلية بعد أن وافقت عليها روسيا وبروسيا والنمسا وانجلترا وهى تنص على ما يأتى :

أولا : الزام محمد على بارجاع ما فتحه للدولة العلية والاحتفاظ لنفسه بالجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول مدينة عكا فى هذا القسم .

ثانياً : أن يكون لانجلترا الحق بالاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية وبعبارة أخرى تحريضهم على العصيان لشغل الجيوش المصرية فى الداخل حتى لاتقوى على مقاومة المراكب النمساوية والانجليزية .

ثالثاً : أن يكون لمراكب الروسيا والنمسا وانجلترا معا حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها .

رابعاً : أن لا يكون لأحد الحق فى الدخول فى مياه البوسفور مادامت القسطنطينية غير مهددة .

خامساً : يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة لاتزيد عن شهرين بحيث يكون التصديق فى مدينة لوندرا. وشفعت هذه المعاهدة بملحق مصدق عليه من مندوب الدولة العلية مبين فيه الحقوق والامتيازات التى يمكن منحها لمحمد على .

وهكذا ترى كيف فتحت هذه المعاهدة أبواب الشر وأكسبت الدول حقا بدخول مياه الأستانة للدفاع عن العاصمة التركية لما أنها حاولت تجريد محمد على من مغانمه فى سوريا . لذلك لم يكن عجيباً أن ينظر بعين السخط إلى هذه المعاهدة ويرفضها لأنها

ثم إن تقارير القناصل التي كانت على ما يظن تردد رأى الدوائر الرسمية فى انجلترا جعلت ديدنها اظهار عيوب تجاريبه الاقتصادية دون الالتفات الى ما كانت ترمى اليه هذه التجاريب من الغايات . واذ كان بالمرستون فى طليعة المستعمرين فقد كان دائماعلى استعداد لان يأمر بقلب أوضاع العلاقات الدولية رأسا على عقب أو أن يصرم حبالها بتاتا حتى ولو أدى ذلك الى نشوب حرب أوربية . كل ذلك كان بالمرستون على استعداد لان يفعله حرصاً على مسألة شكلية خاصة بالهيبة الأمبراطورية . وليس من شأننا هنا أن نبحث فيما اذا كان من حسن السياسة أو مما يخدم المصالح الأمبراطورية أن ننضم

= بمحفة له وهو الرجل الذى كان قد أخضع سوريا بأسرها وأباد جيوش الدولة العلية وأساطيلها وأصبحت أمامه الطريق خالية إلى الأستانة هذا عدا ما كان لديه من القوات التى تنيف عن ١٤٦٠٠٠ من الجنود النظامية و ٢٢٠٠٠ من الباشبورق منها ١٣٠٠٠٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم فى سوريا والباقون متفرقون فى الحجاز والسودان وكريد ومصر

فلما رأت الدول رفضه معاهدة لوندرا عرضت عليه أخذ ولاية عكا ترضية له وأن يضمها إلى مصر فى مقابل انسحابه من سوريا . ولكنه رفض هذا العرض أيضاً .

رفض محمد على لمعاهدة لوندرا

وما كادت الدول أن تضع هذه القرارات فيما بينها - دون أن تخبر بها محمدا علياً - حتى شرع عزيز مصر من ناحيته يصدر الأوامر إلى حفيده عباس باشا طبقا لما تقتضيه الحالة السياسية وتطوراتها . ونظرا لأهمية هذه الأوامر ننقل لك بعضها ملخصا عن كتاب «تقويم النيل» إذ هى برهان ناطق على مبلغ عدم اكتراث ذلك المصلح الكبير بتهديدات الدول وصدق عزيمته على مقاومتها وتضحيته بكل شيء فى سبيل رفعة مصر :

ففى ٢٢ جمادى الأولى أمره بالتريث فى العمل ريثما تتجلى «الحالة الحاضرة المنظور بأن عواقبها غير حميدة » .

وفى ٣ جمادى الآخرى صدر أمره إليه «بما أنه يرى من الحالة الحاضرة تحزب الدول الأجنبية وإعطاء قرار من مجلس لوندرا يمس مقاصدنا فلذلك يكون من الوجوب اتخاذ الاحتياطات اللازمة فى سائر النقط الحربية الكائنة على سواحل مصر والشام =

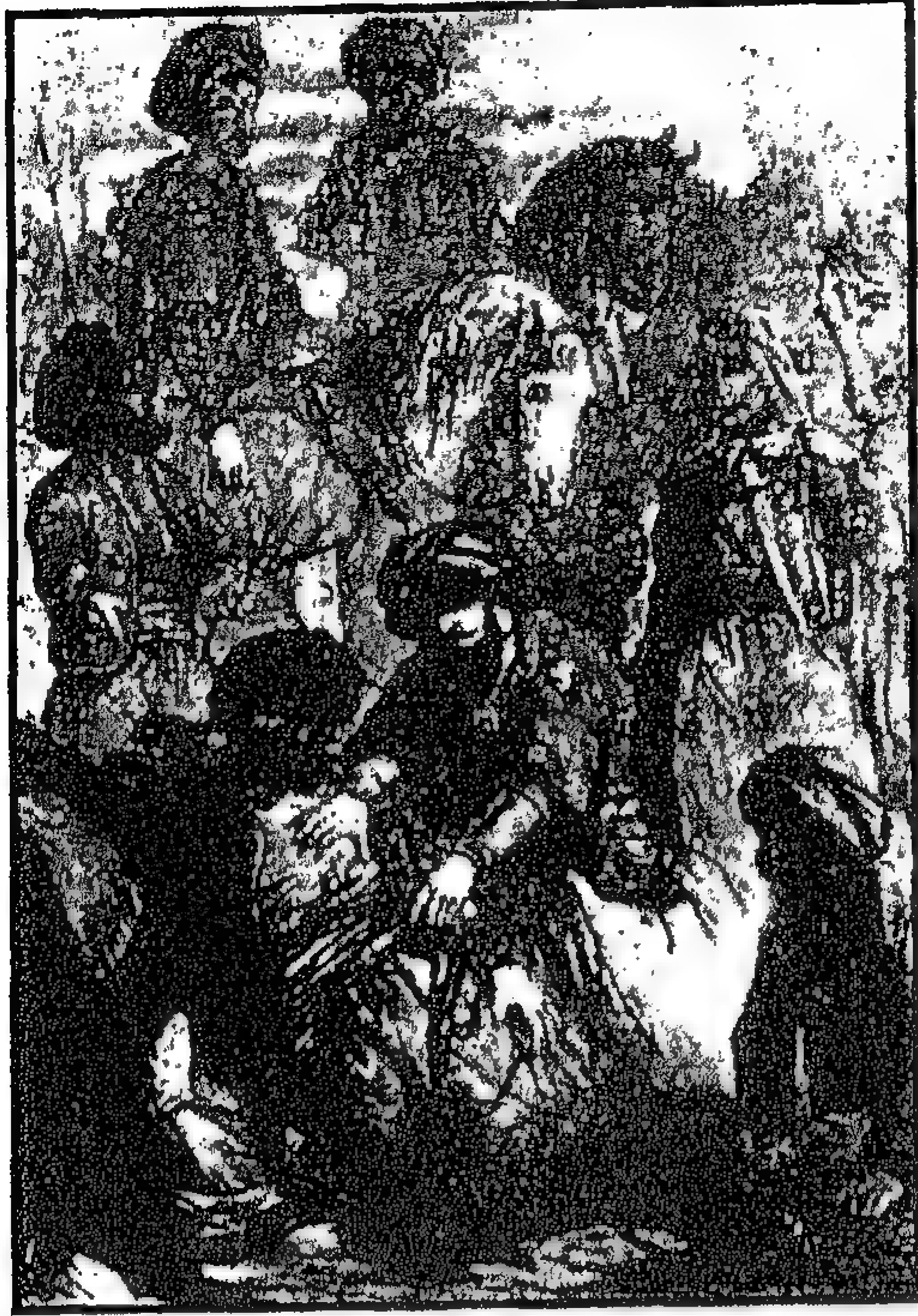
الى روسيا العسكرية لالشيء سوى قهر حكومة لويس فيليب الصديقة المسالمة ولاغاظة الدولة الشرقية الوحيدة الناهضة . وعلى كل فان بالمرستون كتب إلى السفير البريطانى فى باريس (٥ يونيو سنة ١٨٣٨) باللهجة الآتية :

= والقيام للدفاع حربا وضربا عند حشد عساكر الدولة . . . وعندما تتحرك دول أوربا على مصر يكون حضوركم هنا بواسطة الوابورات بحرا أو برا والعسكر الواردة لطرفكم من مضيق كولك يصير إعادتهم إلى محلاتهم الأصلية عن طريق طرسوس أو من جهة أخرى وعلى أى حال يلزم التبصر بالحزم واتباع ما يصدر لكم فى هذا الشأن » .

وفى ١٥ جمادى الأخرى أمر آخر بأنه « غير معلوم صراحة نتيجة قرار لوندرا للآن ولكن باستعمال المساعى بواسطة كتاب قناصل دول الروسيا والنمسا وانجلترا صار الحصول على شواهد القرار التى منها ذهاب تلك الخيالات الباطلة وبث الفتن فى أنحاء بر الشام ومساعدة أهاليها فى ذلك وإرسال ٦٠٠٠ عسكرى من طرف الدولة العثمانية إلى قبرص وإرسال أسلحة وبارود لتوزيعها على أهالى الشام أيضا وصدور فرمان خطابا للمير بشير بالخروج عن طاعة محمد على وإرسال صور من قرار لوندرا السابق ذكره بواسطة وابور انجليزى لنشره بتلك الجهات بزعم تخليصهم من حكم محمد على وهكذا من الحركات غير السارة الحاصلة من تلك الدول وعزم دولة فرنسا على ارسال ١٠٠٠٠٠ عسكرى عند مسيس الحاجة وأنه يلزم استعمال الحزم وعدم تمكن خروج أجانب من البحر إلى البر عند ورود سفن بحجة الكورنتينة منعاً من نشر مكاتبات مهيجة إنما يكون ذلك بالشدة واتخاذ قانون الكورنتينة حجة للدفاع ومنع سائر الوسائط الموجبة لاختلال الأمن» .

ولما كان ما ترتب على معاهدة لوندرا من النتائج الخطيرة له علاقة مباشرة بمستقبل مصر فقد آثرنا أن نتوسع قليلا فى الاقتباس من المصادر الأخرى .

ففى هذا اليوم نفسه أبلغت نصوص معاهدة لوندرا رسمياً إلى محمد على باشا وجاء اليه قناصل الدول الأربع المتحدة يعرضون عليه باسم دولهم أن تكون ولاية مصر له ولورثته وولاية عكا له مدة حياته . ثم أمهلوه عشرة أيام لاعطاء جوابه . وبعد أن أعطوه صورة كتابية من هذا العرض أبلغوه أنه يجدر به الا يرتكن على مساعدة فرنسا وأفهموه أن دولهم مصممة على تنفيذ هذه القرارات حتى ولو أدى الأمر إلى حرب أوربية عامة.



ابراهيم باشا يواسى بنفسه الجرحى من رجاله فى ميدان القتال

= فكان جواب ذلك الجندى الكبير الرفض البات . وقد أفهمهم من ناحيته أنه مصمم على الاستبسال فى الدفاع إلى آخر قطرة من دمه

ثم مرت مهلة الأيام العشرة فحضر له القناصل ومعهم مندوب الدولة العلية فى يوم ٢٥ جمادى الآخرى (٢٤ أغسطس سنة ١٨٤٠) فأبلغوه أنه نظراً لرفضه قد سقط حقه فى ولاية عكا وأن الدول لاتسمح له إلا بولاية مصر وحدها له ولذريته .

فاستشاط غيظاً وأمر بطردهم من حضرته قائلا لهم « كيف يجوز أن أسمح لكم بالبقاء فى بلادى وأنتم وكلاء أعدائى فى هذه الديار فانصرفوا » .

ولكنهم أمهلوه عشرة أيام أخرى وأخبروه أنهم ليسوا مسؤولين بعد هذه المهلة عما يلحق به من الضرر .

وقبل أن يصلهم جواب محمد على بالقبول أو بالرفض كتبوا إلى سفراء الدول فى الاستانة ا حدث فاجتمع هؤلاء بالصدر الأعظم وقر قرارهم على أخذ مصر والشام من محمد على .

« ينبغي علينا أن نؤيد السلطان بكل ما فى وسعنا ، بمساعدة فرنسا اذا شاءت الاشتراك معنا ، وبدونها اذا رفضت ذلك » ثم أنه أبرق اليه فيما بعد (٨ يوليه سنة ١٨٣٨) يقول «ان الوزارة مجمعة على أنه لا يليق السماح لمحمد

= وانصرف محمد على من ناحيته إلى تعزيز الاستحكامات وجمع الجنود . وفى ٢٧ رجب قطع قناصل روسيا والنمسا وانجلترا وبروسيا علاقتهم مع مصر .

انسحاب ابراهيم باشا من الشام

وسرعان ماسيرت بريطانيا الجنود والجحافل فنزلت فى صيدا بينما كان ابراهيم باشا قد التجأ إلى جبل لبنان وتحصن فيه . وتوجه الأميرال نابيير فى الوقت نفسه فى عمارة بحرية قوية قاصدا بيروت فضرب عليها نطاق الحصار وكان سليمان باشا الفرنساوى قد حصنها أشد تحصين ومعه فرقتان.

ولم تكتف السياسة الانجليزية بما جردته ضد الفاتح ابراهيم باشا من القوات البرية والبحرية بل نشطت فى الدعاية للفت فى عضد الجيوش المصرية . فقد أذيع كذبا أن ابراهيم باشا قتل فى جبل لبنان وتشتت شمل رجاله .

ولعلك تستطيع أن تتصور كيف كان وقع ذلك النبأ المحزن من نفوس الجيوش المصرية. فقد ذهل له سليمان باشا الفرنساوى وخشى عواقبه . فقر رأيه على الاستيثاق من صحته حتى إذا كانت الرواية صادقة ضم إليه ما بقى من جنود ابراهيم باشا واستمر فى الدفاع .

فغادر بيروت بعد أن نصب عليها أحد أميرالايات الفرقتين وهو صادق بك ولكن هذا سرعان مادب الخوف إلى قلبه ففر وترك المدينة يستولى عليها الانجليز بلا كبير عناء.

وما لبث أن اتصل صادق هذا بسليمان باشا فتحقق منه أن الاشاعة القائلة بقتل ابراهيم باشا هى محض افتراء بل هو على العكس ما زال على قيد الحياة ولذا فهو يأمره بالاستبسال فى الدفاع إلى أن يعود إليه . فأسقط فى يد صادق وتملكته الحيرة وخشى الوقوع فى شر أعماله فلم يجد مخلصا سوى الارتماء مع رجاله فى أحضان الانجليز.

وبعد أن خلا بال الأميرال نابيير من ناحية بيروت اتجه إلى عكا وحاصرها . وسرعان ماسلمت له المدينة بعد فرار اسماعيل بك منها .

وهكذا استطاع الأميرال نابيير أن يقطع باسطوله خط الاتصال بين ابراهيم باشا فى الجبل وبين مصر .

على بأن يعلن استقلاله وأن يفصل مصر وسوريا عن الامبراطورية



بيان المواقع التى خاضها ابراهيم باشا أثناء فتح الشام

العثمانية ... أما نحن فاننا لعلى استعداد لأن نقدم للسلطان المساعدة البحرية

= ثم مالبث أن قصد الأميرال المذكور إلى الاسكندرية فى ١٥ رمضان سنة ١٢٥٦ بصحبة ست سفن حربية فعرض الصلح باسم الدول على محمد على باشا فقبل . وبعد مفاوضات طويلة عقدت معاهدة نصت على جعل ولاية مصر وراثية لذرية محمد على وأن يكون لجلالة السلطان الحق المطلق فى أن يختار من يشاء من ذرية محمد على لملء منصب الولاية على مصر .

اللازمة ضد محمد على . وفى عزمنا إرسال اسطولنا إلى الاسكندرية.» لست أكتب هذا إلا على زعم أن فرنسا أمينة وأنه يمكن الاعتماد عليها». ولكن فرنسا كما تصادف لم تكن لا هذا ولا ذاك . فبينما كانت تتظاهر بأنها لا تريد أكثر من الاعتراف بولاية محمد على وذريته على مصر وسوريا،

= وبعد عقد المعاهدة أصدر محمد على أمره إلى جنوده فى الشام بالانسحاب فعادوا وعددهم ٧٠٠٠٠ بينما كان عددهم فى بداية الزحف على الشام ١٣٠٠٠٠

فرمان محمد على على ولاية مصر

وفى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ (٢١ القعدة سنة ١٢٥٦) صدر فرمان همايونى بموافقة مندوبى الدول الأربع المتحدة المجتمعين فى لوندرا بهيأة مؤتمر بتولية محمد على على مصر .

القرمان الهمايونى بتولية محمد على واليا على مصر

وإليك أهم ماتضمنه الفرمان من النصوص وهو فى صيغة الخطاب لمحمد على باشا :.

« . . . تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم وقدمنحناكم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها :

(١) «متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا .

(٢) «إذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أى كان فى الولاية وإرثها .

(٣) « ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة .

(٤) « إن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبا ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه .

(٥) « جميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضاً .

وبينما كانت تتظاهر بالعمل بالاتفاق مع الدول الأخرى إذا بها كانت تفاوض الباب العالى سراً وعلى انفراد لمصلحة محمد على . فلما وقف بالمرستون على مساعيها هذه أرغم ملبورن تحت تأثير التهديد بالاستقالة

---

(٦) «كل ماهو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى . ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية .

(٧) « ربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شىء ويؤدى إلى خزينة بابنا العالى العامرة .

(٨) « الثلاثة أرباع الباقية تبقى لولاية مصر لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا إلى البلاد المقدسة (مكة والمدينة) .

(٩) « يبقى هذا الخراج مستمراً دفعه من الحكومة المصرية بطريق تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ .

(١٠) «ينظر فيما بعد فى تعيين لجنة مراقبة وملاحظة للوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب .

(١١) « تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخاناتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها .

(١٢) « يكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ١٨٠٠٠ من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولاية مصر هذا العدد . ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كأسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين .

(١٣) « تتبع أيضاً فى مصر القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بأن يستبدل الجند بعد الخدمة مدة خمس سنوات بغيرهم من العساكر الجديدة .

على أن يرسل إلى محمد على انذارا ينتهى أجله فى عشرة أيام بأن يتخلى عن سوريا . وهنا حاول الفرنسيون فتح باب المفاوضة من جديد ولكن

---

(١٤) «يجب أن لاتختلف هيأة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة للملابس والرايات وعلائم رجالنا وسفننا .

(١٥) «للحكومة المصرية أن تعين ضابطان برية وبحرية حتى رتبة الملازم . أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين إليها راجع لارادتنا الشاهانية .

(١٦) «لا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعدا سفنا حربية إلا باذنتا الخصوصى .

(١٧) «يبطل هذا الامتياز ويلغى فى الحال عند عدم تنفيذ أى شرط من الشروط الخاضع لها اعطاء الامتياز الخاص بوراثة ولاية مصر .

فرمان الولاية على السودان

وفى نفس اليوم الذى صدر فيه الفرمان السالف الذكر (أى فى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١) صدر فرمان شاهانى آخر بتولية محمد على واليا على السودان . وإليك أهم ماورد فيه وهو أيضا فى صيغة الخطاب .

(١) « . . . وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختيار والحكمة التى امتزتم بها تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين .

(٢) « عليكم أن ترسلوا فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها .

ولعل المادة الآتية من أهم مواد ذلك الفرمان فانها ترمى إلى قطع دابر النخاسة طبقاً لأوامر الشرع الاسلامى الحنيف وهى :

(٣) « حيث أنه يحدث من وقت لآخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور وأناث ويبقونهم فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم ، وحيث أن هذه الأمور مما تفضى معها الحال ليس فقط لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها بل أنها=

بالمرستون كان مصمما على إملاء التسوية التى يشاؤها . وولى الأميرال نابير وجهه شطر سوريا بقصد مهاجمة ابراهيم فيها . وفعلا أنزل جنوده فى بيروت (سبتمبر سنة ١٨٤٠) وفى الوقت نفسه انتهز البـاب العالى

أمور مخالفة للشريعة الحنيفة المقدسة وكلتا هاتين الحالتين ليست أقل فظاعة من أمر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحريم ، ذلك مما لا ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمبادىء العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة العلية ، فعليكم مداركة هذه الأمور بما ينبغى من الاعتناء لمنع حدوثها فى المستقبل . ولا يبرح عن بالكم أن فيما عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على أسطولنا الملكى فقد عفوت عن جميع الضابطان والعسكر .

(٤) رقى المأمورين الموجودين فى مصر نعم أنه بموجب فرماننا السلطانى السابق إن تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لأعتابنا الملوكية إلا أنه لا بأس من إرسال بيان بأسماء من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالى كى ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم فى رتبهم الخ الخ »

فقبل محمد على باشا هذه الشروط على مضض ، وطلب من الدول مساعدته على تخفيف محتوياتها مع الزمن . فوعدته الدول بذلك .

وفى ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ وافق الباب العالى بناء على مذكرة من الدول على تحرير فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ على الوجه الآتى كما ورد فى كتاب « تقويم النيل » ونظراً لأهمية الموضوع رأينا أن نثبته بنصه :

« ان الحضرة السلطانية الفخيمة تلقت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصائح هذه الدفعة أيضاً وبمناسبتها قد منحت محمداً علياً باشا إحساناً جديداً هو التكرم منها باعطائه الامتيازات الآتية ولكنها قد اشترطت عليه الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم استقبالا فيما بين الباب العالى والدول المتحالفة . وعلى ذلك أصبحت ولاية مصر تنتقل بالارث لمحمّد على باشا وأولاده وأولاد أولاده بصورة أن يتولى الأكبر فالأكبر فيقلده الباب العالى منصب الولاية كلما خلا هذا المنصب من وال . وقد تنازل الباب العالى عن استيلائه على ربع إرادات مصر وسيعين فيما بعد قيمة الخراج الواجب على ولاية مصر دفعه وترتيب مقداره وطريقة تحصيله مما يناسب حالة ايرادات الولاية أما عما خص التسميات فى الرتب المختلفة فى العسكرية المصرية فرخص لمحمد على باشا أن يمنحها من نفسه حتى رتبة الميرالاى فقط . أما التسمية

هذه الفرصة فاعلن والاغتباط يملأ عطفيه خلع محمد على وهنا اعلنت فرنسا (٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠) أنها تعتبر كل محاولة لتجريد محمد على

= لما فاق على هذه الرتبة فيجب عليه أن يعرض بشأنه إلى الباب العالى . أما ما كان متعلقاً بالادارة الداخلية وكان اتباعه واجبا فى مصر كاتباعه فى سائر الممالك العثمانية فيظهر أن محمدا عليا باشا لا يرغب فى التكلم بشأنه بما ينبغى من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك فى العقد المقرر التابع لمعاهدة المحالفة . ولكن كى لا يدع الباب العالى سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه بأمر من الأمور كما لو حدث أن ارتكب محمد على فى المستقبل أعمالا مخالفة لنقطة مهمة مستندة على المعاهدة المحكى عنها ، قد قرر وزراء الباب العالى والحالة على ما ذكر أمرا شديد الأهمية وهو أن تطلب بادى. بدى. الايضاحات والتقريرات الصريحة بهذا الصدد ولذلك تحرر هذا لسعادتكم رجاء إعطاء الايضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم خطاً » .

فلما أقرت الدول هذا الفرمان فى ١٠ مايو سنة ١٨٤١ بادرت الحضرة الشاهانية فى أول يونية سنة ١٨٤١ بتأييد ماجاء فى هذا الفرمان . وفى ٢٠ يولية سنة ١٨٤١ صدر فرمان آخر بجعل ماتدفعه الحكومة المصرية إلى الدولة العلية فى كل سنة ٨٠٠٠٠ كيسة أى ٤٠٠٠٠٠ جنيه .

والآن وقد رأيت هذه الفرمانات فلعلك متسائل معنا عما أفادته الدولة العلية من جراء تدخل الدول الأوربية الأربع وهل كان ما أفادته يزيد أضعافا مضاعفة عما عسى كانت تجنيه لو أنها سدت باب التدخل فى وجه الدول الأوربية المذكورة وتصالحت رأساً مع محمد على وتركته يبسط سيادته على الشام ويؤدى لها حصتها من الوركو ؟ فاعلم يارعاك الله أن نكبة الامتياز التى ذاقت تركيا ومصر منها الأمرين إلى أن قيض الله لأولاهما أن تتخلص منها دفعة واحدة فى معاهدة لوزان بينما ما تزال الأخرى تعانى ما تعانيه منها — نقول أن تلك النكبة تبتدىء بفرمانى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ اللذين ما كانا ليأخذا مكانهما فى سجل الحوادث التاريخية لولم يأكل الحقد صدر خسرو باشا ويحفزه إلى الانتقام من غريمه القديم محمد على وذلك بالالتجاء إلى الدول الأجنبية والاستعانة بها عليه . وماذا عساك أن تقول فى فداحة المصيبة التى جرها هذا الرجل على بلاده بهذين الفرمانين وفيهما حتمت الدولة العلية على نفسها أن تخضع هى وتجبر =

من أملاكه سبباً للحرب. فكان جواب بالمرستون على ذلك ماقاله لسفيره فى باريس وهو كما يأتى: « قل للمسيو تيير إن فرنسا إذا أرادت الحرب فلن نتأخر عن تلبية طلبها ولكنها إذا بدأتها فلسوف تفقد حتما

= مصر على الخضوع لجميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتى ستبرم فى المستقبل بين الباب العالى والدول المتحالفة؟ فهل هناك محل للدهشة إذا رأيت تركيا أولا ثم مصر تباعا لها تئنان من تلك الامتيازات؟ وهل تعجب اذا كانت الدول الأوربية استغلت هذه الامتيازات أسوأ استغلال وأصبح موقفها كموقف « يهودى البندقية » الذى صوره لنا شكسبير وهو يحرص على « رطله من اللحم كاملا غير منقوص »؟

وعلى كل فقد أصبح منح الامتيازات مما لا يتفق مع روح العصر الحاضر. ولا ريب فى أن مصر واصلة قريبا بحكمة جلالة مليكها فؤاد إلى الغاء الامتيازات والتخلص من ربقتها كما تخلصت منها تركيا.

أما فيما يتعلق بالخراج أو الجزية التى فرضت على مصر فقد جاء فى كتاب « تقويم النيل » أن مصر ظلت تدفع ٤٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً لغاية سنة ١٨٦٥ ثم زيد هذا المقدار إلى ١٥٠٠٠٠ كيسة أى ٧٥٠٠٠٠ جنيه عثمانى بمقتضى فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ عقب تنازل الدولة العلية لمصر عن مدينتى سواكن ومصوع ومديرية التاكا وتغيير ترتيب الوراثة فى خديوية مصر فى عهد ساكن الجنان اسماعيل باشا بأن حصرت الوراثة فى الأكبر من أولاده ثم أولاد الاكبر ثم فى أخوته عند عدم وجود ولد له ثم أولاد الاخوة على هذا الترتيب.

« وفى أول يولية سنة ١٨٧٥ صدر فرمان بتحويل إدارة مدينة زيلع إلى ساكن الجنان اسماعيل باشا بزيادة ١٥٠٠٠ جنيه عثمانى على الخزينة. وفى ١٠ شعبان سنة ١٣٠٨ صدر أمر عال من المرحوم توفيق باشا الخديوى بالتعهد عن نفسه وعن خلفائه فى الحال والاستقبال بأن تدفع الحكومة المصرية للخواجات روتشيلد وأولاده بلوندرا وروتشيلد اخوان بباريس والبنك الملوكى العثمانى من أصل الوركو الواجب على الحكومة المصرية للحضرة الشاهانية مبلغ ٢٨٠٦٢٢ جنيه انجليزى و ١٨ شلنا و ٤ بنسات سنويا لمدة ٦٠ سنة تبدأ من ١٠ ابريل سنة ١٨٩١

٥٥٥

سفنها ومستعمراتها وتجارتها كما أن جيشها فى الجزائر لن يعود يقلق بالها بعد اليوم . أما محمد على فلسوف نلقى به فى مياه النيل ».

وهكذا نرى أن بالمرستون وتيير بمخادعة أحدهما للآخر فى بداية

= وهكذا أصبحت سلطة محمد على بعد فرمانى ١٣ فبراير و ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ قاصرة على مصر والسودان . فأدى هذا إلى أن يتنازل عن ١٠٠٠٠ جندى من جنود سوريا بحيث لا يزيد عدد جيشه عن ١٨٠٠٠ المحدد فى الفرمان بين مشاة وفرسان وغيرهم .

وما أن لحق أحمد باشا حكمدار السودان بربه فى شوال سنة ١٢٥٩ حتى قرر محمد على تقسيم ذلك القطر العظيم إلى ست مديريات وأصدر أمره بتعيين أحمد باشا المنكلى فى ١٢ منه حكمدارا على جبال الذهب بالسودان والاشراف على المديريات الست الآنفة الذكر الذى تعين مديروها كالآتى :

أمين باشا . . . . مديرا للتمة وشندى وملحقاتها
سليمان باشا . . . . « لسنار وملحقاتها لغاية القضارف والقلابات
سليم باشا . . . . « على فيزأوغلى وملحقاتها
مصطفى باشا . . . . « على كردفان بما فيها تكلا وملحقاتها
لواحق باشا . . . . « دنقلة وبربر وملحقاتها
فرحاد باشا . . . . « التكا لحد مصوع وسواكن

ولما كان قد جعل غايته اصلاح مالية البلاد فقد أخذ بأسباب الاقتصاد وكان من أثر ذلك أن أغلق كثيرا من المدارس التى كان قد خصص مبالغ طائلة للانفاق عليها ومنها مدرسة شبرا الزراعية لذلك استبدل الأساتذة الأوربيين فى المدارس الباقية بأساتذة مصريين أو أتراك . ثم عكف على ترضية السلطان وأنفذ له ابنه سعيد باشا لتقديم فروض العبودية .

محمد على فى أواخر أيامه

فى إبان سنة ١٨٤٥ توعكت صحة ابراهيم باشا فاستقر رأى الأطباء على سفره إلى أوربا فى فصل الصيف ترويحا للنفس وانتجاعا للصحة . فما لمست قدماه الشاطىء الأوربى حتى شرعت الدول الأوربية تتسابق إلى الحفاوة به والمبالغة فى استقباله ولا سيما فى فرنسا وانجلترا .

الأمر ، ثم بازدراء كل منهما للآخر فيما بعد ، كادا أن يزجا بشعبين غربيين متصادقين إلى هاوية الحرب من أجل مسألة خاصة بالهيبة الامبراطورية ليس غير . أما أحدهما فكان مشاكساً بقدر ما كان الآخر «بلاّفاً» ولكن

= وبعد أن تكاملت صحته صمم على العودة إلى مصر فى أواخر صيف سنة ١٨٤٦ وكان والده محمد علي باشا قد سافر إلى الاستانة بدعوة رسمية لتقديم فرائض العبودية للسلطان بمناسبة صدور فرمان الوراثة لأسرة محمد على سنة ١٢٦٢ المقابلة لسنة ١٨٤٦ مشتملا على امتياز حكم القطر المصرى بمصادقة الدول الأوربية . فوصلها فى ١٩ يولية سنة ١٨٤٦ ونزل فى سراى رضا باشا .

ولقد رحب جلالة السلطان بمحمد علي باشا عند ما تشرف بالمثول بين يدى جلالته بل إنه لما هم بتقبيل الأعتاب الشاهانية أمسك جلالته بيديه وأجلسه إلى جانبه وسلخا نحو ساعة من الزمن فى حديث صاف خرج بعده يلهج بالدعاء والشكر لجلالة الخليفة .

وأبت أخلاق محمد علي وتسامحه أن يترك الأستانة قبل أن يزور عدوه الالد القديم خسرو باشا فذهب لزيارته فى قصره وقضيا وقتا غير قليل يتذاكران أعمال الصبا ويتبسم كل منهما فى وجه الآخر وهو يذكر له الشباك والفخاخ التى كان أعدها لاقتناصه.

وغادر محمد على الاستانة فى ١٧ أغسطس قاصداً قوله مسقط رأسه . فأنشأ فيها عدداً من الأبنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين.

ثم قفل راجعاً إلى الاسكندرية فخف الأهلون لاستقباله والبشر على وجوههم . ولما عاد إلى القاهره تقاطر الناس للسلام عليه وتهنئته على ما ناله من تعطفات جلالة السلطان فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية التى أهداها له السلطان وهى تكاد تخطف الأبصار ببريقها .

ويظهر أن مر السنين وما تخللها من حوادث جليلة قد أثقل ظهر محمد على وأدى إلى اعتلال صحته فسافر فى أوائل ربيع الأول سنة ١٢٦٤ الموافق لسنة ١٨٤٨ إلى الاسكندرية ومنها انتقل إلى ظهر إحدى السفن الفرنسية المخصصة له للقيام بنزهة بحرية انتجاعا للصحة .

وهنا رأى عزيز مصر أن الأمور لم تعد تحتمل التردد فى تولية ابراهيم باشا . وفى شهر أغسطس سنة ١٨٤٨ توجه ابراهيم إلى الاستانة لأجل تثبيته على ولاية مصر خلفا لأبيه وقد ثبته السلطان نفسه .

شبح الحرب كان موجوداً على كل حال ولم يختف إلا بفضل ما أبداه لويس فيليب من الحكمة عندما عين جيزو مكان تيير. على أن ما أحرزناه من النجاح بفضل نشاط سياستنا الخارجية سرعان ما تلاه نجاح آخر أحرزته قوتنا البحرية ليس أقل من سابقه فى الأهمية. ذلك لأن الاسطول التركى الفار قد تبين أنه أصبح عبءاً ثقيلا على مصر بدلا من أن يكون نجدة لها. لأن الاسطول

= وكانت نزهة محمد على البحرية فى ابان ذلك موفقة. فقد زار كريد ومالطا. وبعد أن شعر بتحسن صحته صمم على الذهاب إلى مارسيليا فباريس لزيارة صديقه الملك لويس فيليب.

ثم عاد إلى نيس وعرج على إيطاليا والتقى فى نابولى بولده إبراهيم باشا وهو عائد إلى مصر لادارة شؤون البلاد. وأرسل محمد على إلى كتخدا باشا فى مصر أنه سيبارح الأراضى الايطالية يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٦٤

ووصل ابراهيم باشا إلى الاسكندرية فى ١٠ جمادى الأولى وأقام فيها إلى يوم الاثنين ١٣ منه ثم سافر إلى القاهرة.

أما محمد على باشا فكان قد أصدر فى ٢٩ ربيع الثانى أى قبل اليوم الذى حدده لمغادرة إيطاليا إلى حفيده عباس باشا كتخدا آخر أمر موقع منه وهو كالآتى:

« كان قيامى من نابولى فى اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر الذى هو شهر ربيع الثانى وتيسر وصولى سالما إلى الاسكندرية يوم تاريخه وكنت عازما على الحضور إلى مصر لتسوية أمور مصالحنا لكن الأطباء أشاروا بعدم موافقة ذلك نظراً للوسم الحالى ولهذا يا ولدى يلزم حضورك هنا مستصحبا حضرات أحمد يكن باشا وشريف باشا مدير المالية وسامى باشا ».

وفى منتصف الساعة الخامسة من عصر يوم الجمعة ٢٤ شوال سنة ١٢٦٤ اجتمع الديوان المعتاد اجتماعه كل يوم جمعة بديوان الغورى بحضور العلماء والمشايخ وأشراف القاهرة ووقف الجنود والضباط فى ميدان القلعة وفتح الفرمان الموجه إلى إبراهيم باشا بتوليته والياً على مصر والسودان.

ولما كانت مدة حكم ابراهيم لم تزد عن السنة والنصف سنة (أى من ابريل سنة ١٨٤٧ — نوفمبر سنة ١٨٤٨) فقد وجه عنايته بصفته جندياً إلى تقوية ثغور البلاد وتعزيز قواتها الحربية.

المصرى قد نصب نفسه حارسا عليه وعلى بحارته المتذمرين . أما سوريا فانها باتت تمقت المصريين بقدر ما كانت صديقة لهم عند دخولهم اليها . وأما الجيوش المصرية فقد هزمت فيما دار بينها وبين الأتراك من المعارك هذا فى حين أن الحملة البريطانية التى كانت تطلق قنابلها على عكا قد وفقت إلى نسف ما كان يملكه ابراهيم من الذخيرة . وفى نفس الوقت الذى تقهقر فيه ابراهيم تقهقره المشؤوم من دمشق إلى غزة ظهرت عمارة نابيير أمام

= وفى خلال فترة حكمه القصير أصدر أمره بنشر جريدة رسمية أسبوعية تشتمل على كل ما يهم أهل القرى الاطلاع عليه من أخبار التجارة والزراعة والاعلانات الملكية وتوزيعها بين أهالى القرى .

كذلك وجه عنايته رحمه الله إلى شؤون الرعية وعمل على اختصار الاجراءات المتبعة فى سير القضايا فعمد إلى تنظيم مجلس فى القاهرة وسماه جمعية الحقانية الثانية واسند رئاسته إلى اسماعيل بك تيمور زاده .

وما لبث أن أصدر أمره الكريم كما ذكر فى الوقائع المصرية بترجمة الكتب المرغوبة الخاصة بالقوانين والتراتيب والآداب وسائر العلوم والفنون النافعة من اللغة الفرنسية إلى اللغة التركية والعربية وطبعها ونشرها كوسيلة لتعميم الثقافة . ولما كان هذا لا سبيل إلى تداركه إلا بالحصول على المترجمين البارعين فى اللغات الأجنبية والتركية والعربية فقد جاء بالعدد اللازم منهم وأفرد لهم إدارة ترجمة خاصة عهد برئاستها إلى أمير اللواء كانى بك لأنه كان خبيراً باللغات الأفرنجية وعين رفاعة بك رافع رئيساً للقسم العربى .

وفى ٢٢ القعدة سنة ١٢٦٤ سافر عباس باشا كتخدا باشا مصر إلى جدة قاصداً الحجاز لاداء فريضة الحج .

وظل إبراهيم سائرا فى الحكم سيرته المرضية هذه حتى عاوده المرض وهو الرجل الذى كان لا يرهب الموت عندما كان يواجهه فى ساحات القتال . ثم أخذت وطأته تشتد بسرعة حتى عاجلته المنية فى يوم ١٤ الحجة سنة ١٢٦٤ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨ ولم تمض احدى عشرة ساعة حتى كانت جثته تحمل إلى مقرها الأخير فى مدافن الأسرة الخديوية بجوار الامام الشافعى .

ويمكنك أن تصور لنفسك مبلغ وقع هذه الصدمة الهائلة على محمد على الذى كان ما يزال يعانى آلام المرض الجسدى والعقلى .

ثغر الأسكندرية . وقد ختم نابيير حديثه مع محمد على عند زيارته له فى قصر رأس التين بهـذه الجملة . « يميناً لأطلقن عليك القنابل ولأضعن قنبلة حيث تجلس الآن إذا لم تصغ إلى ندائى غير الرسمى ! » وهى شقشقة أريد بها استهواء الاسماع فى انجلترا ليس غير ، إذ كان فى وسع الباشا — لو أراد — أن يصبح فى مأمن من مدافع الاسطول بان ينسحب إلى القاهرة

= وعلى أثر وفاة ابراهيم عقد المجلس لتسيير دفة الأعمال الحكومية إلى حين عودة عباس باشا من الحجاز . وقد أرسل فى طلبه فعاد إلى مصر على جناح السرعة ووصل القاهرة فى ٢٤ ديسمبر . وإذ لم يكن هناك اعتراض على توليته فقد صدر إليه الفرمان الشاهانى بجعله والياً على مصر والسودان فاعتلى الأريكة.

وكان محمد على مايزال مقيما فى الاسكندرية وقد اشتدت عليه وطأة المرض ونفدت كل وسائل الطب لانقاذه .

وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ الموافق ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ انشبت المنية أظفارها فى ذلك الرجل الذى أنشأ أمة . ولم تكن ثمة دهشة لوفاته نظراً لطول مدة النزع التى قضاها رحمه الله .

وفى اليوم التالى نقلت جثته من قصر رأس التين إلى القاهرة حيث شيعت باحتفال مهيب إلى مرقدها الأخير فى جامع القلعة عملا بوصيته .

وهكذا انتقل إلى الأبدية ذلك الرجل العصامى الكبير الذى خلف ميراثا لاتبليه يد الزمان وأسس دولة وحقق لها استقلالها وأتم لها وحدتها وشيد دعائم نهضتها وحضارتها وأتى بمفرده من جلائل الأعمال مالا يستطيع مئات الرجال مجتمعين أن يأتوا بعشر معشاره .

وكيف لا وهو الرجل الذى تمكن برغم أميته من إعلاء شأن الجيش المصرى وقد كان مركباً من عساكر غير نظاميين (باشى بوزوق) وجعله جيشاً نظامياً حتى أن تركيا لم تر من الغضاضة على نفسها أن تلجأ اليه لأعارتهـا بعض الضباط المصريين للمساعدة على تنظيم الجيش التركى الجديد بعد إبادة طائفة الانكشارية.

وقد بلغ عدد جيش محمد على فى سنة ١٨٣٧ نحو ٢١٧٥٨٣ جندى من المشاه والفرسان وغيرهم عدا ٦٣٣٠ ضابط .

أما القوة البحرية فقد بلغت فى تلك السنة ٣٠٢ ضابط و ١٤٨٤٠ بحار عدا ١٨ طبيب =

ولكن كان له من الحكمة والمهارة السياسية مايجعله يفسح صدره للفريق الثانى حتى يفرغ جعبته من الألفاظ بشرط أن ينال هو مراده. ولهذا تظاهر بالنزول على ارادة السلطان والامتثال لتهديد بالمرستون فسلم سوريا التى كانت قد أفلت زمامها من يده فعلا وتخلى عن كريد التى كانت عديمة الفائدة ولكنه نال فى مقابل ذلك اعترافاً رسمياً بجعله والياً على مصر وبحصر نظام الوراثة فى أسرته كما أنه حقق لمصر استقلالها الاقتصادى عن الامبراطورية العثمانية. وصفوة القول كانت مصلحة مصر فيما تخلى عنه محمد على فى حين أن ما اكتسبه كان لاغنى عنه لها.

ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل كان لابد من إضاعة وقت آخر

= و ٦٨ صيدلى و ٦٨ كاتباً وغيرهم. وقد اشتمل الأسطول المصرى على ٦٨ سفينة مسلحة بما لا يقل عن ٩٥٠ مدفعاً وأربع سفن طرادة و ١٤٤ نقالة وكان مجموع القوتين البحرية والبرية فى سنة ١٨٣٧ نحو ٢٥١٩١٨ هذا مع أن تعداد سكان مصر كما أثبتته الجمعية العلمية التى كانت مرافقة للحملة الفرنسية كان فى سنة ١٨٠٠ لا يزيد عن ٢٤٦٠٢٠٠ ولكن هذا العدد تضاعف فى عهد محمد على حتى بلغ فى سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨) بمقتضى التعداد الذى عمل وقتذاك نحو ٤٤٧٦٤٤٠ وهو التعداد الذى يرجع إليه فى محفوظات الدفترخانة بالقلعة لمعرفة أفراد العربان عند طلب نسبتهم إلى قبائلهم لمعافاتهم من الخدمة العسكرية.

ثم ماقولك فى رجل كانت إيرادات البلاد عند ماتولى شؤونها بعد انتهاء الاحتلال الفرنسى بثلاث سنوات وكسور تبلغ ١٥٨٧٢٤ جنيها تقريباً والمصروفات ١٣٥٨٨٧ جنيه تقريباً والفرق بينهما وقدره ٢٢٨٣٦ جنيه تقريباً يدفع كاتاوة للدولة العلية، فلم يحل عام ١٨٤٢ حتى بلغت الايرادات ٢٢٠٢٠٥٥ جنيه تقريباً أى أن الايرادات تضاعفت بنسبة ١٧ر٢٠ عما كانت عليه عند استلام محمد على إدارة سفينة البلاد؟

وكيف لا يكون محمد على معجزة العصر وهو الذى استطاع بمثل تلك الميزانية الضئيلة - إذا قيست بميزانية مصر فى الوقت الحاضر - أن يدير حركة البلاد وينشىء فيها المصانع ودور الأسلحة والترسانات لانشاء السفن البحرية وأن يجيش الجيوش الجرارة التى سجلت صفحات خالدة فى تاريخ مصر سواء فى فتح سوريا أو حرب المورة أو فتح =

سدى على صفاف البوسفور والنيل وسكب كمية أخرى من المداد فى وزارات الخارجية واهراق دماء زكية جديدة قبل أن يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ لأن بالمرستون كان قد صدع الائتلاف الاوربى مما شجع الباب العالى على رفض الأذعان للاتفاق . وأخيراً تمكنت النمسا أن تحصل من الباب العالى على خطين همايونيين باعلان استقلال مصر أحدهما فى ١٣ ابريل والآخر فى ١٩ ابريل سنة ١٨٤١ ووافقت معاهدة لوندرة (١٣ يولية سنة ١٨٤١) على أن تعهد بحكم مصر الى محمد على بضمان من الدول ثم من بعده الى الأرشد فالارشد من أعضاء أسرته بعد استئذان حكومة الاستانة . ثم حددت المعاهدة قيمة الجزية التى تدفعها مصر كما حددت الجيش فجعلته ١٨٠٠٠ على أن تبقى المناصب الرئيسية فيه قاصرة على طبقة الاتراك الحاكمة . ولهذا نص فى الاتفاق على جعل التعيين لهذه

= السودان والحجاز هذا عدا أعماله المجيدة فى بناء القناطر الخيرية وشق الترع وغير ذلك من أعمال الرى وإرسال البعثات العلمية إلى أوربا ؟ وقد قدروا عدد الطلبة الذين أرسلوا إلى أوربا بنحو ٣١٩ طالباً كلفوا الخزانة المصرية ٢٧٣٣٦٠ جنيها هذا مع أن ميزانية التعليم فى سنة ١٢٥٥ (١٨٣٩) لم تكن تزيد عن ٤٦٧٨٤ جنيها تقريباً وعدد الطلبة فى المدارس يبلغ عن ٧٧٣٠ عدا تلامذة المدارس الحربية والمدرسة البحرية ومدرسة المعادن ومدارس أسوان وفرشوط والنخيلة وغيرها .

عناية محمد على بالفلاح

ولقد عجب مستر يانج مؤلف الكتاب الحالى لأن الفلاحين المصريين لم يثوروا على محمد على أيام أن كان يحشدهم ويبعث بهم إلى سوريا لفتحها وفاته أن الفلاحين كانوا يتفانون فى محبة هذا الرجل نظراً لسهره على مصالحهم وشدة عنايته بأمورهم ، وهل ترى مثالا على حب العدل والتفانى فى خدمة الرعية أعلى من المثال الذى نسوقه إليك هنا ؟ فقد صدرت الوقائع المصرية فى نهاية جمادى الآخرى سنة ١٢٥٢ وبها أمر وجهه محمد على إلى مفتش عموم الفاوريقات جاء فيه :

« قد اطلعت على شرحكم المسطر على شقة معاون فاوريقات قبلى بشأن العمال والمهمات اللازمة لفاوريقة ملوى وعلم بما تنوه على هامشها حصول حبس الأشخاص الواردين بدون ضامن بنفس الفاوريقة . ألم أقل لك مرارا ان أولياء نعمتى اثنان : =

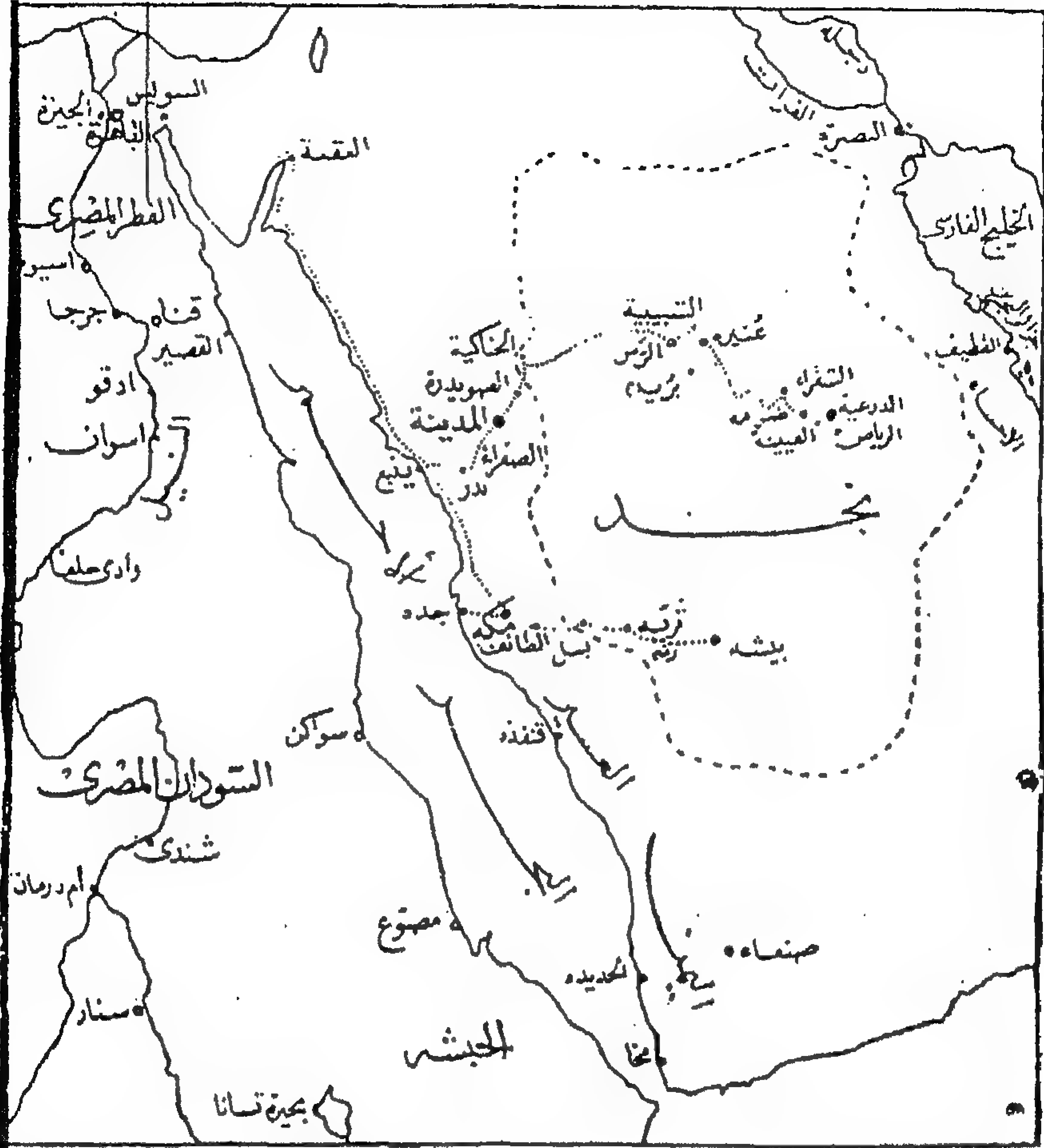
المراكز بموافقة السلطان ولا ريب فى أن الأمر الأول حقق لمصر استقلالها من الوجهة الاقتصادية بينما جعلها الأمر الثانى خاضعة من الوجهة السياسية. نعم أن الباب العالى وافق على استقلال مصر الداخلى ولكنه استغل بمهارة عداء بريطانيا لمحمد على فاحتفظ لنفسه بحق التدخل فى شؤونها . على أن أسوأ مافى هذا كله أن هذا التضييق وقف حجر عثرة فى سبيل نمو الديموقراطية المصرية. إذ لا يخفى أن الجيش هو أول مراحل الانتقال إلى الحياة الديمقراطية من الحكم الاستبدادى فى الشرق بقطع النظر عما إذا كان ذلك حكم السلطان أم حكم الوالى . ولكن الانجليز وحلفاءهم الاتراك قد عملوا على تعجيز نمو الامة المصرية بشكل خطير . وقد تبين فيما بعد أن هذه القيود كانت من الاسباب الرئيسية للاصطدام بالوطنية المصرية فى عهد عرابى .

= أحدهما السلطان محمود والآخر الفلاح . وان قصدى من هذه الحكاية عدم النظر إلى الفلاح بعين العداوة وإزالة ذلك من الوجود لأن أخذنا وعطانا ونيلنا هذا الشرف هو من وجوههم أى بسببهم فعليه ولكون أن الفلاح ولى نعم الجميع ألم يجب النظر إلى ما فيه أصول رفاهيته وزيادة يوميات أولئك الشغالين ؟ فيلزم بوصوله عمل صورة مستحسنة لصرف أجورهم ليكون ذلك موجباً لرفاهيتهم وتشويقهم للمصلحة إذ بذلك تعود المنفعة عليها ويسر الجميع ويستوجب حضورهم للأشغال بانشراح قلب وبعد تقرير مايلزم لما ذكر تعرض الكيفية لطرفنا » .

هذا وأمثاله قليل من كثير . ونحسب أننا لو أطلقنا للقلم العنان لانتهى بنا الأمر إلى وضع مؤلف بحاله عن عهد محمد على لأن الانسان لا يلقى بنظرة على أية ناحية من النواحى الاجتماعية أو العمرانية أو العلمية أو أو الخ فى عهد محمد على إلا وجد مجالا شاسعاً للبحث والتقصى . لهذا رأينا الاكتفاء بما سردناه كانموذج بسيط مما قام به من جلائل الأعمال ذلك المصلح الكبير الذى كان يعتبر بحق آية عصره ومعجزة زمانه.

نظرة إلى تاريخ ابراهيم باشا

وننتقل الآن إلى ولده الذى كان يعتبر بمثابة ذراعه الأيمن . فلقد نشأ ابراهيم كا =

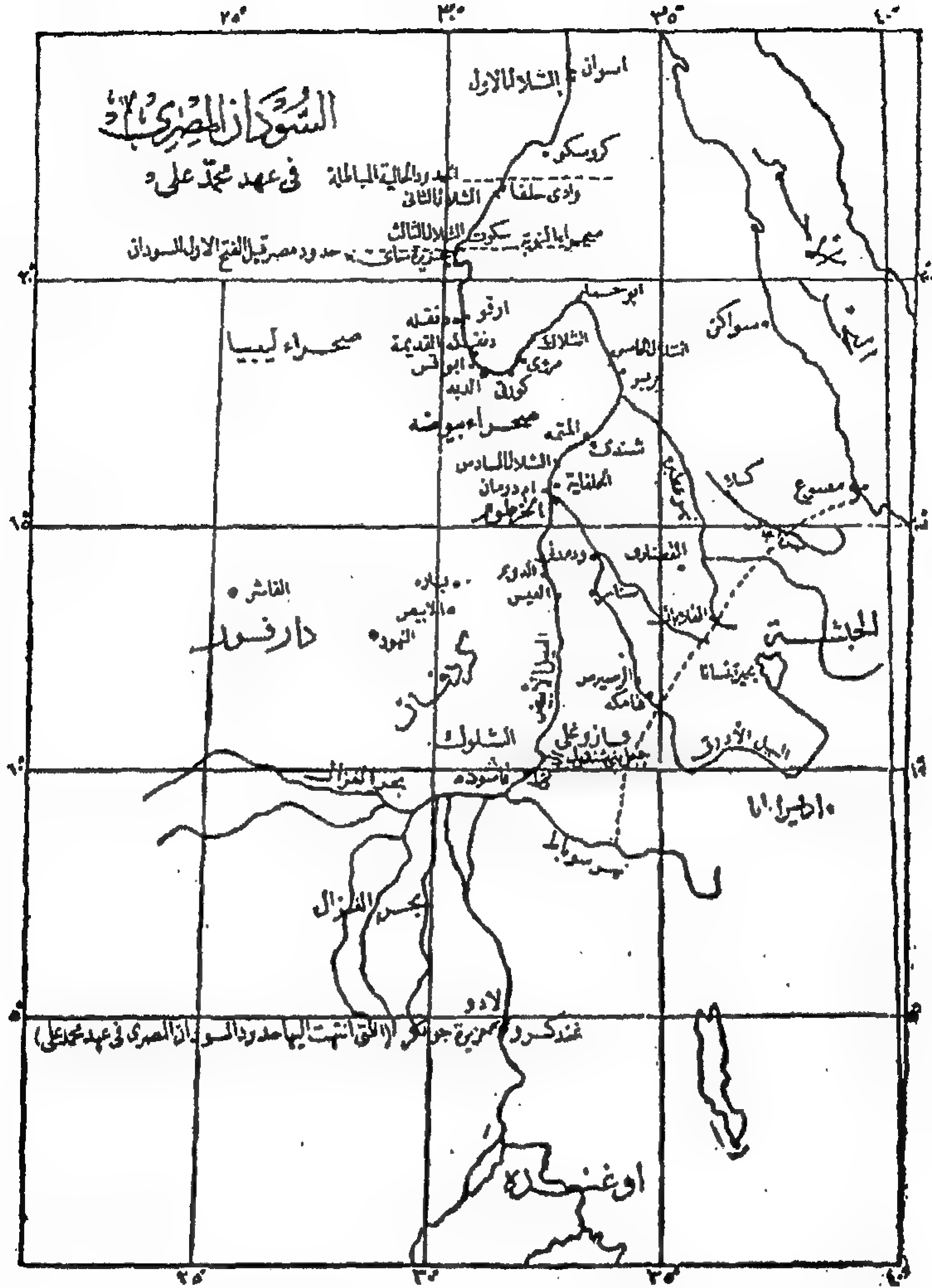


خريطة بلاد العرب وفيها بيان الجهات التى دخلها ابراهيم باشا فى أثناء الحرب الوهابية

= مر بك وانصل تاريخه من البداية بتاريخ أبيه محمد على . ولكنا رغم ذلك نرى اتماما للفائدة أن نقول كلمة عن نشأته وعن بعض أعماله الحربية التى لم يتسع لها المجال فى الصفحات الماضية وبخاصة فى الحرب اليونانية التى كانت أصدق برهان على غدر السياسة وتربصها الفرص للنكاية بمصر وقد اقتبسناها عن الجزء الثالث من كتاب « تاريخ الحركة القومية » لصديقنا الاستاذ البحاثة عبد الرحمن بك الرافعى المحامى . قال حضرته ما خلاصته :

إن ابراهيم هو أكبر أولاد محمد على ولد كأبيه فى قوله وكان ذلك فى سنة ١٧٨٩ وهبط مصر مع أخيه طوسون فى سنة ١٨٠٥ . وما كاد يشب قليلا عن الطوق حتى قذف به والده إلى معركة الحياة فخاضها بجسارة الأسود وأبلى فيها أحسن بلاء .

وفى سنة ١٨٠٧ أى قبل بلوغ سن العشرين تولى منصب الدفتردارية المصرية وهو =



خريطة السودان فى عهد محمد على

وقد وصلت الفتوحات المصرية فيه الى كسلا ثم الى حدود الحبشة شرقا والى غندكرو جنوبا وهى آخر نقطة وصلت اليها الاكتشافات الجغرافية لأن أوغنده أو مديرية خط الاستواء لم تكن قد اكتشفت بعد

= يعادل وزير المالية اليوم . وكان أجل عمل له فى منصبه هذا أن أمر بمساحة أطيان القطر المصرى .

ثم ولى المناصب الحربية الكبرى وتجلت مواهبه وبطولته فى الحرب الوهابية حيث اصطحب معه لأول مرة فى تاريخ القواد الشرقيين طائفة من الأوربيين ومن بينهم =

ويظن المؤرخون أن عهد محمد على انتهى بحبوط مشاريعه الاستعمارية من الوجهة السياسية وأنه مات بعد ذلك بثمانية أعوام متأثراً من هذا الفشل . وهذا لعمرك هو مايقوله الإنجليز فى الاتفاق المذكور لا مايقوله المصريون . ولكننا لو أنعمنا النظر فى المفاوضات التى أدت إلى هذا الاتفاق وذكرنا أن بالمرستون كان يهدد بيأس الامبراطورية البريطانية كلها وأن الباب العالى كان يلجأ على التوالى إلى كل مافى جعبة سياسة الامبراطورية العثمانية من التدابير والحيل لخلع الأسرة المصرية وهدم الاستقلال المصرى — إذا ذكرنا ذلك كله أدركنا أن محمد على بتحقيقه

= الضابط الفرنسى فيسير مع أن ذلك لم يكن مألوفاً ولا شائعاً . ولكن ابراهيم باشا دفعته صدق فراسته إلى الاعتقاد بأن الشرق لا ينهض إلا إذا اقتبس الخبرة عن علماء أوربا وقوادها .

ثم انضم ابراهيم إلى أخيه اسماعيل لمعاونته فى فتح السودان . على أن اقامته هناك لم تطل بسبب ما ألم به من المرض . فترك لأخيه مهمة وضع الأسس التى أدت إلى فتح السودان نهائيا فيما بعد على ما تراه مبينا فى الخريطة المنشورة فى الصفحة السابقة .

فلقد وصلت حدود السودان شرقا إلى البحر الأحمر بعد أن فتحت الجنود المصرية سنة ١٨٤٠ اقليم التاكا (كسلا) . ثم استولت أيضا على القضارف فى غربى حدود الحبشة وكذلك القلابات . ثم دخلت سواكن ومصوع . ووصلت فى الجنوب إلى غندكرو وهى آخر نقطة وصلت إليها الاكتشافات الجغرافية الاقليمية لأن أقليم أوغنده لم يكن قد اكتشف بعد .

الحرب اليونانية

وماكاد ابراهيم يعود من السودان إلى مصر حتى اكفهر الجو بسبب الحرب اليونانية فعهد إليه أبوه بقصم ظهر الفتنة اليونانية وتعليم اليونانيين درسا لا ينسونه فى المستقبل .

ولسنا بحاجة إلى الدخول فى تفاصيل تلك الحرب . وبحسبنا أن نذكر طرفا منها بعد أن اكتفينا بالالماع إليها فى سياق الكلام على محمد على باشا . فلقد تجمعت فى ثغر الاسكندرية عمارة مصرية تبلغ ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل تحمل ٢٢٠٠٠ جندى وقد وصفها المسيو دريو بأنها تشبه الأرمادا (التى أعدها فيليب الثانى ملك اسبانيا لمحاربة انجلترا فى القرن التاسع عشر) وانه لم ير فى الشرق حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت فكان =

هذين الأمرين بصفة دائمة مع احاطتهما بسياج منيع فى شكل ضمان دولى قد جاء لمصر بمنافع كبيرة كثيرة فى مقابل تخليه عن فتوحات كان الاحتفاظ بها مما ينوء به كاهله. أما فيما يختص بالقيود المشار إليها فان الجيش أحسن وقتئذ القيام بواجبه وإن لم يكن ينتظر أن يعيره محمد على الأهمية السياسية التى فاتت حتى السياسيين الذين جاءوا بعده بجيل كامل. ولم يكن محمد على بعد هذا الفشل أدنى إلى الائتمار بأوامر الانجليز مما كان قبله. وقد حل الجيش وأعيد الأسطول التركى إلى الاستانة ولكن الاسكندرية كانت حصونها من القوة والمنعة بحيث كان يستحيل معها فرض شروط صارخة أخرى قبل هدم هذه الاستحكامات كما وقع بعد جيل.

= الشرق أراد أن يغزو الغرب جوابا على حملة أوربا عليه. وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ ».

وسافرت هذه العمارة من الاسكندرية للاتصال بالأسطول التركى الآتى من الدردنيل بقيادة خسرو باشا الذى كان قد ذاق الأمرين من الحراقات اليونانية (وهى سفن مشتعلة تقذف بنفسها على السفن العثمانية فتحرقها بنارها كلية).

وبعد مناوشات طويلة مضنية مدة خمسة أشهر أدرك ابراهيم أن قهر اليونانيين لا يتحقق إلا بمقاتلتهم براً فانتهز الفرص وأنزل جنوده إلى بر الموره فى جهة مودون. وبعد قليل نشبت أشد معارك الموره هولا وهى معركة نافارين. فقد حاصرها ابراهيم بحرا وزحف عليها برا وشتت شمل الجنود اليونانية. وبالجملة كانت معركة نافارين الأولى فاتحة الانتصارات فى القارة الأوربية.

ولما كانت نافارين واقعة على البحر وإلى شمالها جزيرة اسفاختريا التى حصنها اليونانيون أشد تحصين فان الامدادات كانت ماتزال تصل إليها من تلك الجزيرة. فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى سليمان باشا الفرنساوى.

ونشبت عدة معارك تشيب لهولها الولدان انتهت باخضاع هذه الجزيرة مما أدى فى النهاية إلى الاستيلاء على نافارين فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥

ثم توالت المعارك وخضدت شوكة الثوار ووصلت نجدات مصرية جديدة وفتح الطريق أمام الجيش التركى فاحتل أثينا. ونشطت الحراقات اليونانية فى غضون ذلك =

خريطة اليونان وفيها بيان الحرب التى اندلعت فيها السنة الثورة اليونانية والجهات التى استولى عليها ابراهيم باشا

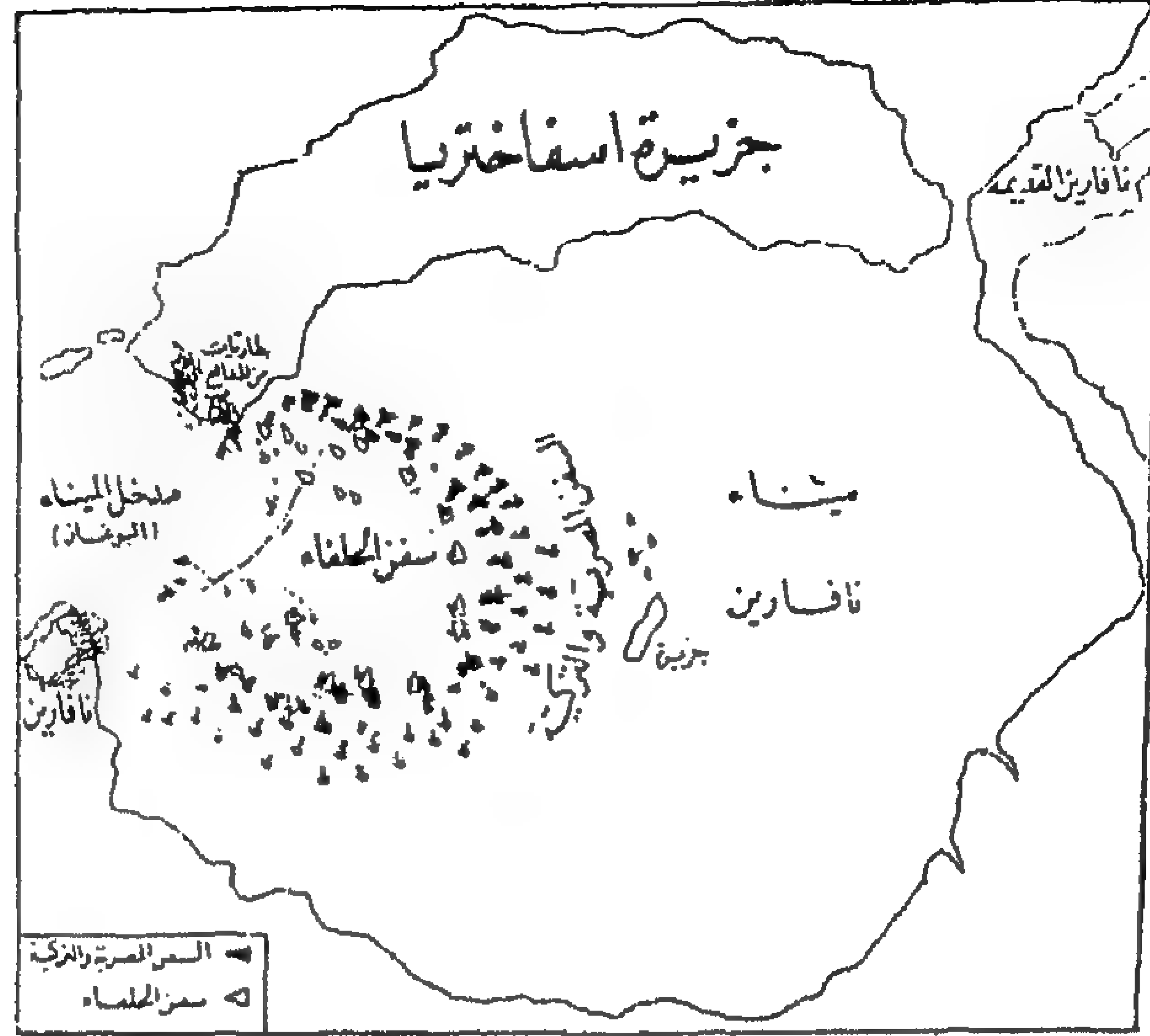
= وحاولت الفتك بالأسطول المصرى فى الاسكندرية ولكن عادت بالخيبة والفشل .

ومع أن الثوار اليونانيين قد غلبوا على امرهم فى شبه جزيرة الموره إلا أنهم انبثوا فى الجزر المجاورة وبخاصة فى جزيرتى هيدرا واسبتزيا كما تراه فى الخريطة وأخذوا يعيثون فى البحار فسادا فاستقر رأى محمد على على اعداد حملة جديدة لاستئصال شأفة الثائرين .

تدخل الدول الأوربية

وقد حدثنا صديقنا المؤرخ المحقق الاستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه الآنف الذكر عن تدخل الدول الاوربية لانقاذ الثائرين قبل أن يستأصل شأفتهم ابراهيم باشا فقال ما خلاصته :

إن المعارك السالفة الذكر وما أبداه الثوار من الاستبسال حركت فى صدور الدول الاوربية روح العطف على مطالبهم وذهب شعراؤهم وفى مقدمتهم لورد بيرون فى انجلترا وفيكتور هوجو وشاتو بريان فى فرنسا يتغنون بمجد اليونان القديم ويضربون على الوتر الدينى الحساس ليحملوا الدول على التدخل إلى أن تحركت روسيا فى عهد قيصرها نيقولا الاول واعتزمت التدخل بمفردها لصالح اليونان . ولكن انجلترا خشيت عاقبة انفرادها بالامر فانفذت الدوق ولنجتون سفيرا لها فى روسيا واتفق الفريقان مبدئيا (٤ ابريل سنة ١٨٢٦) على تخويل اليونان استقلالا داخليا مع الاحتفاظ بالسيادة العثمانية .



خريطة موقعة نافارين وهى تبين موقف السفن المصرية أمام سفن الحلفاء

وبعد سقوط ميسولونجى تجددت المفاوضات بين الدول وانضمت فرنسا إلى انجلترا وروسيا وعقدت معاهدة لوندرا (٦ يولية سنة ١٨٢٧) على تخويل اليونان الاستقلال الداخلى وابقاء السيادة العثمانية والمطالبة بوقف القتال بين الفريقين تمهيدا للاتفاق ومطالبة الباب العالى بقبول المعاهدة فى خلال شهر وإلا التجأت الدول إلى القوة .

ولم تشترك النمسا فى هذا المسعى نزولا على مبدأ مترنيخ وهو عدم مساعدة أية ثورة يقوم بها شعب ضد حكومته الشرعية. ولما كان الحلفاء يتوقعون رفض تركيا قرروا ارسال أساطيلهم إلى المياه اليونانية لتأييد مطالبهم بالقوة ولمنع وصول المدد المصرى العثمانى .

فأنفذت انجلترا إلى تلك المياه عمارة مركبة من ١٢ سفينة بقيادة الاميرال كودرنجتون ووصل بعده الاميرال ريني الفرنسى فى عمارة مركبة من سبع سفن ثم وصل الاسطول الروسى من بحر البلطيق وعدد قطعه ثمان . وتولى القيادة العامة الاميرال كودرنجتون الانجليزى .

وصول الحملة المصرية إلى نافارين

وفى هذه الأثناء فرغ محمد على من تجهيز الحملة وكلفها بالسفر إلى المياه اليونانية. فأقلعت من الاسكندرية فى أوائل أغسطس سنة ١٨٢٧ وكانت مؤلفة من ١٨ سفينة حربية مصرية و ١٦ سفينة تركية وأربع سفن تونسية وست حراقات وأربعين نقالة لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندى . ثم انتهزت العمارة فرصة غفلة الحلفاء وألقت مراسيها فى نافارين .

وقد ظلت سياسته الخارجية على ما كانت عليه دون أن يطرأ عليها تغيير ما . فان ارتيابه فى الانجليز وبعد نظره فى التخوف منهم جعله يرفض منحهم امتيازاً بحفر قناة أو إنشاء سكك حديدية . على أنه لم تمر أربع سنوات على سياسة بالمرستون العنيفة حتى سمح محمد على للضابط فاجهورن بتنظيم الطريق البرى مما أدى إلى تخفيض مدة البريد الهندى إلى شهر

= ومن ثم بدأ الحلفاء يتحرشون بها فشرع كودرنجتون (١٩ سبتمبر سنة ١٨٢٧) يطالب ابراهيم باشا بوقف القتال برا وبحرا طبقا لمعاهدة لوندرا وبعدم ارسال قوات برية أو بحرية إلى أية جهة من اليونان أو إلى جزر بحر الارخبيل . وكان معنى طلبه ذلك الكف عن ارسال الحملة البحرية إلى جزيرة هيدرا (معقل الثوار) .

ودارت مقابلات بين أميرالية الحلفاء وابراهيم باشا تقرر بعدها أن يرسل ابراهيم إلى أبيه يستطلع رأيه فى الموقف ويتعهد بأن لا يخرج أسطوله من نافارين إلى المياه البحرية اليونانية .

ومع أن معاهدة لوندرا المذكورة كانت تقضى بوقف القتال من الجانبين فان الحلفاء سمحوا للثوار بانتهازها لجمع أشتات قواتهم لمهاجمة الجيش المصرى مما كان يدل على وجود مؤامرة بيتها الحلفاء للقضاء على الأسطول المصرى والتخلص من منافسة هذه العمارة الفتية .

وفى أثناء هذه الهدنة وبالرغم منها اعتزم اليونانيون مهاجمة بتراس فى شمالى الموره التى كان يحتلها المصريون . فلما شكا ابراهيم باشا إلى كودرنجتون هذا التصرف لم يرد عليه رداً مقنعاً فقرر إرسال مدد إلى باتراس وبعث إليها بقسم من عمارته البحرية .

فشق ذلك على الحلفاء وعدوه نقضاً للهدنة مع أن ابراهيم لم يتعهد إلا بعدم مهاجمة جزيرة هيدرا فقط ولم يتعهد مطلقاً بعدم إمداد الحاميات المصرية فى الموره وبخاصة إذا هاجمها الأروام ناقضين أحكام الهدنة . وعلى كل فان كودرنجتون أرسل بعض سفنه لتعقب السفن المصرية وأنذارها بالحرب إن لم تعد أدراجها إلى نافارين فعادت .

وفى هذه الأثناء وصل رد محمد على فاذا هو يحتم على ابراهيم عدم التحرش بالحلفاء والانتظار ريثما يتلقى محمد على رد الباب العالى فى الموضوع .

ووقف ابراهيم موقف الدفاع ولكن أنى للحلفاء أن يقنعوا بهذا وهم الذين كانوا قد بيتوا بينهم أمرهم على سحق العمارة المصرية ؟

واحد كما أدى إلى مجيء مالا يقل عن ١٥٠٠٠ سائح إلى مصر سنويا .

وهكذا تمت سلسلة الحروب الطويلة التى أثارها ذلك الباشبوزق المزمن ولم يكن عن طواعيته للحوادث أنه أخذ تدريجاً يسلم زمام الأمور الى ولده ابراهيم الذى انتهى به الأمر أن أصبح قائم مقام (١٨٤٧) ولكن الأرجح أنه شعر بضعف فى قواه العقلية كما يلوح من اعتزامه ارسال تجريدة عسكرية الى مارسيليا لأعادة صديقه لويس فيليب الى سرير الملك . وقد انتهز بعد فراغه من عناء الأعمال أول فرصة للراحة عرضت له فى حياته الطويلة فأكب على الملاذ البريئة الانسانية البحتة فوضع بيده الحجر الأساسى للقناطر الخيرية العظيمة المقامة على النيل تلك القناطر التى توجت بالنجاح

معركة نافارين — (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧)

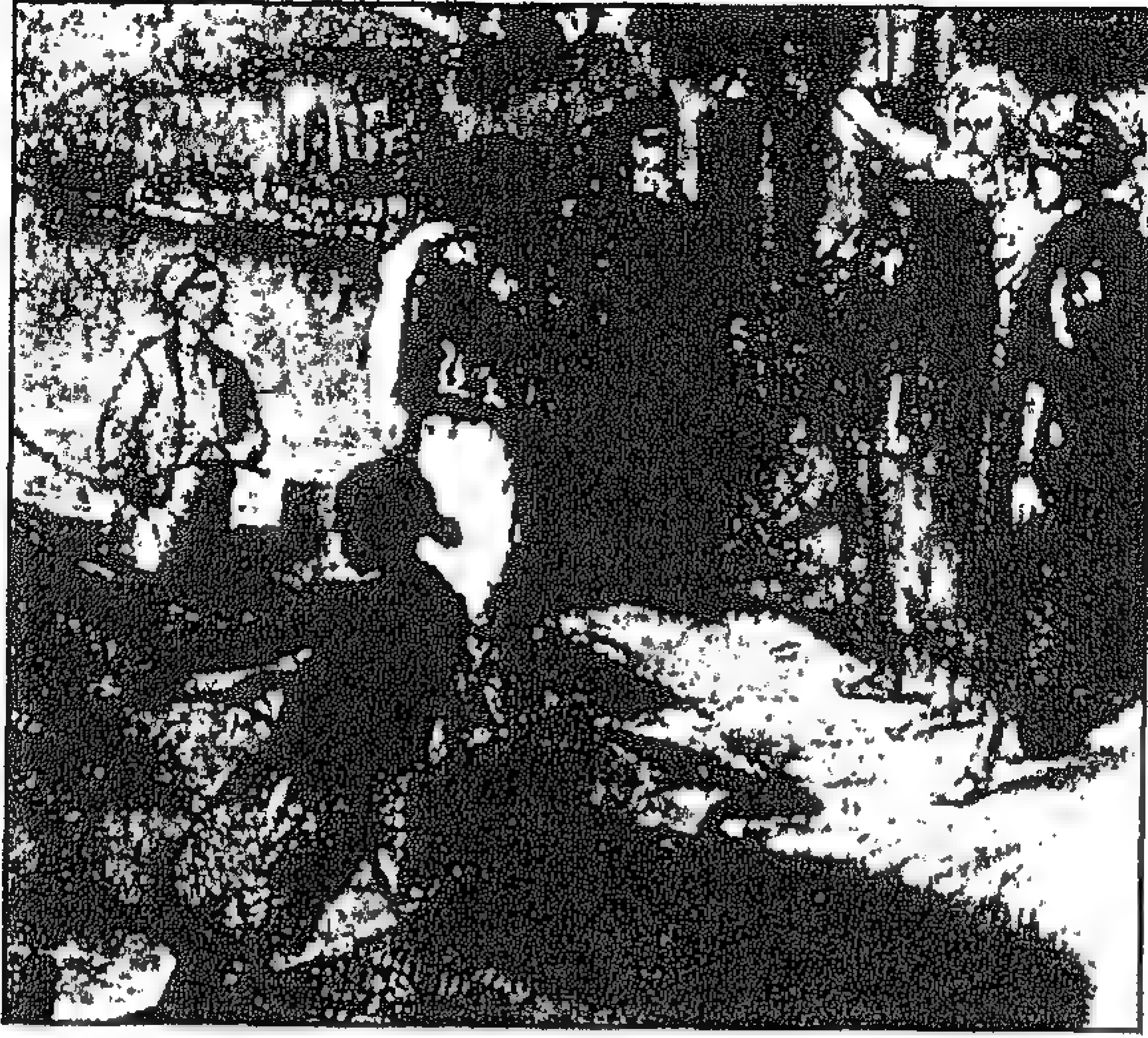
وفى منتصف اكتوبر غادر ابراهيم نافارين زاحفا بجزء من جيشه داخل المورة لأنجاد الحاميات بعد ما أوصى محرم بك قائد الأسطول المصرى وطاهر باشا قائد الأسطول التركى بترك التحرش بالحلفاء لأن الحرب لم تكن أعلنت بعد .

ومما يدلك على الكيد المبيت من جانب الحلفاء انهم عدوا زحف ابراهيم عملا مناقضا لأحكام الهدنة وأنهم لذلك يلقون عليه تبعة ما يترتب على عمله هذا !! فانفذوا إليه رسولهم يحمل إنذارا بذلك مع علمهم برحيل ابراهيم باشا ومغادرته لنافارين . وبدلا من الانتظار ريثما يصل كتابهم إلى ابراهيم باشا فى الجهة التى سار إليها ويتمكن من الرد عليه حددوا لقبول إنذارهم مدة يومين فقط !!

فلما جاء الرسول إلى نافارين فى يوم ١٨ اكتوبر أى قبل نشوب المعركة بيومين لم يجد ابراهيم باشا فعاد أدراجه إلى كودرنجتون . وهى مجرد مناورة للتخلص من أسطول ابراهيم باشا .

واجتمع قواد الحلفاء فى ذلك اليوم للتشاور فقرروا دخول الأساطيل إلى ثغر نافارين لارغام ابراهيم باشا على قبول مطالبهم مع التظاهر فى الوقت نفسه بأنهم إنما يعملون داخل حدود معاهدة لوندرا بقصد منع الحرب !!

وكانت السفن المصرية والتركية داخل الميناء موزعة فى ثلاثة صفوف متوازية . وقد وقفت فى الصف الأول البوارج والفرقاطات الكبيرة وفى الثانى سفن الكورفيت



استقبال محمد على باشا فى الأستانة عند زيارته لها بدعوة رسمية من جلالة السلطان

مساعيه المتواصلة فى سبيل تجديد نظام الرى العتيق فى مصر . وهكذا ابتكر بها نظاما جديدا للرى تركت لأعدائه مهمة إتمامه من بعده . وقد تاقت نفسه إلى رؤية الأماكن التى كانت فيها نشأته فى سلانيك ومنها خرج الى الاستانة حيث استقبل استقبالا رسمياً . ولم ينس أثناء وجوده

= وتليها سفن الابريق وغيرها . وكانت استحكامات قلعة نافارين مع بطاريات المدافع تحمى مدخل الميناء .

وفى أحرج الساعات وأشدها خطرا فى تاريخ مصر غادر الضباط البحريون الفرنسيون الذين كانوا يعملون فى الأسطول المصرى سفنهم بعد استئذان الاميرال محرم بك تلبية لنداء الأميرال الفرنسى تفاديا من مقاتلة مواطنيهم !!

وفى صبيحة ١٩ اكتوبر اجتمع قباطنة الحلفاء عند كبيرهم كودرنجتون على ظهر بارجته آسيا للبت فيما يعمل متى نشب القتال ! هذا فى الوقت الذى كان فيه الاميرال المصرى مطمئن البال معتقدا أن الحرب لن تنشب . وصمم الحلفاء على تنفيذ مشروعهم واقتحام الميناء فى ذلك اليوم . ولكن الريح كانت معاكسة . ولما كانت السفن تسير بالشراع وقتذاك فقد أرجأوا الهجوم إلى اليوم التالى .



محمد علي باشا قبل سفره إلى باريس

فيها أن يزور خسرو زيارة ودية . ومن الغريب ان هذين الرجلين اللذين كانت منافسة أحدهما للاخر سبباً فى اشعال النار فى الشرق قضيا ساعات طويلة وهما يقهقهان لذكرى فشل كل منهما فى اغتيال الآخر !!

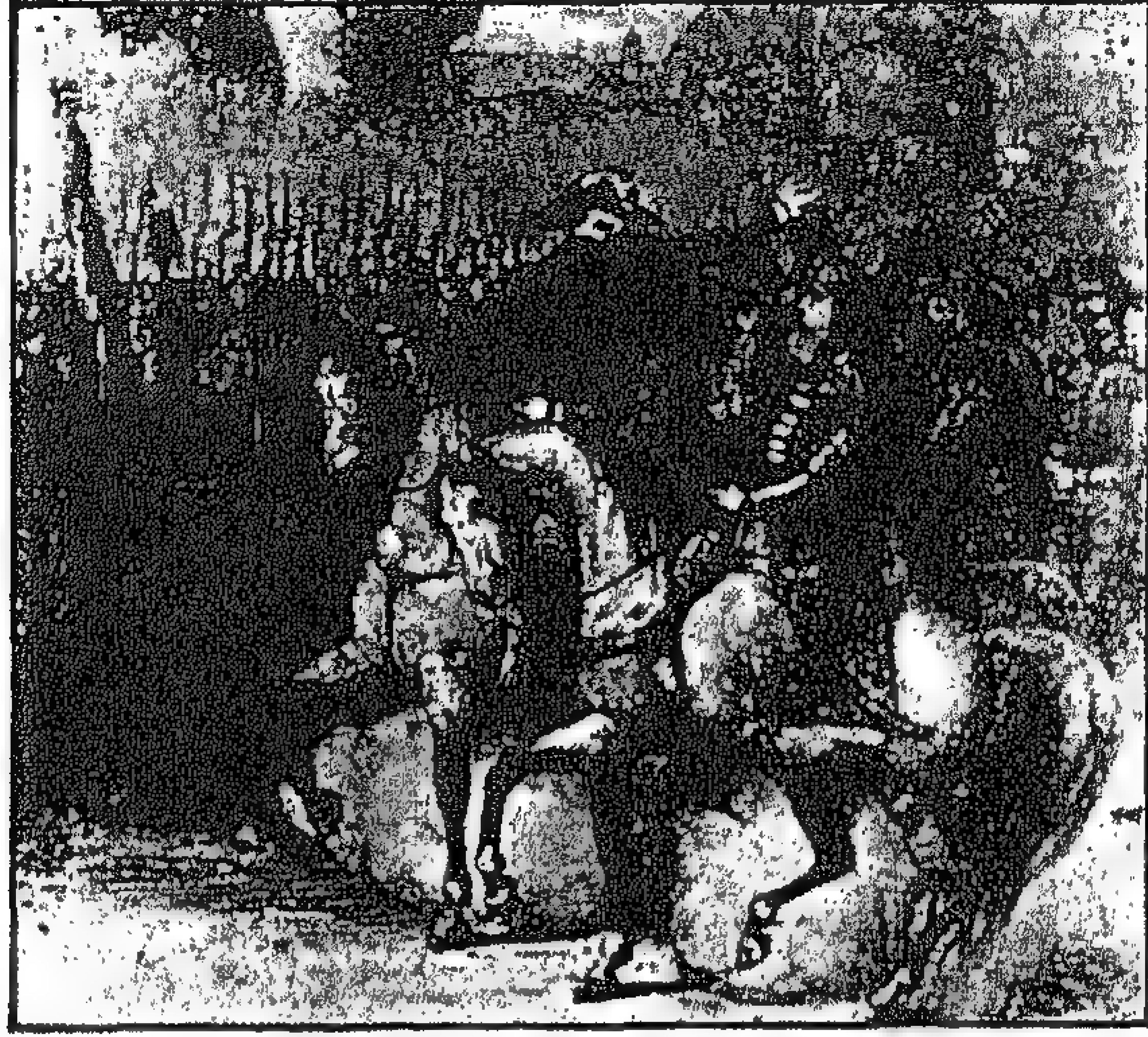
= وفى الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالى ٢٠ اكتوبر شرعت سفن الحلفاء تدخل الميناء وفى طليعتها البارجة آسيا مقلة الاميرال كودرنجتون .

وعند منتصف الساعة الثانية بعد الظهر أصدر الاميرال الانجليزى أمره إلى السفن بالتأهب للقتال . وعند الساعة الثانيه تماماً اقتحمت السفن البوغاز .

وهنا أرسل الأميرال محرم بك الى الأميرال كودرنجتون يطلب اليه منع أساطيل الحلفاء من الرسو فى الميناء فأجابه الأميرال الانجليزى فى لهجة جافة بأنه « جاء لا يتلقى الاوامر بل ليملى أوامره » !!

وأخذت سفن الحلفاء تتقاطر بعضها خلف بعض حتى وقفت فى محاذاة السفن المصرية وعلى بعد بضعة أقدام منها كما تراه مبيناً فى الخريطة المنشورة فى ص ١٦٧ .

وتعتبر وفاة مؤسس استقلال مصر (اغسطس ١٨٤٩) خاتمة ملائمة



محمد على باشا يستعرض الجنود الفرنسية فى باريس عند سفره اليها

= وطلب قومندان البارجة دارتموت وقد وقفت على رأس الصف لتعطيل حركة الحراقات المصرية الراسية فى مدخل الميناء ، إلى إحدى هذه الحراقات إما بأن يغادرها بحارتها وجنودها أو أن تنسحب من موقفها وهو طلب كان بمثابة ذريعة لأشعال نار القتال كما لا يخفى .

ذلك ان الرسول الذى أنفذته البارجة حاملا هذا الطلب الى السفينة المصرية قد ذهب اليها فى قارب مسلح متحدياً متحفزاً للقتال .

وهنا يزعم مؤرخو الحلفاء أن رصاصة أطلقت من السفينة المصرية فأصابت أحد جنود الحلفاء فى القارب المذكور . فلو سلمنا جدلا بصحة هذه الرواية لما كان هناك غبار على تصرف قائد العمارة المصرية وهو الذى رأى الحلفاء يعبثون بشروط الهدنة ويقتحمون البوغاز وفى نيتهم تدمير الأسطول المصرى التركى .

ولقد كانت العمارة المصرية التركية عند بدء المعركة مركبة من ٦٢ قطعة بينما كانت أساطيل الحلفاء لا تزيد عن ٢٧ سفينة أى أنها كانت أقل منها عددا ولكنها كانت ترجح الكفة المصرية التركية بكثرة بوارجها التى بلغت العشر فى حين ان المصريين والترك لم يكن لهم أكثر من ثلاث بوارج . ثم لا ينبغى أن يفوتنا أن الحلفاء اقتحموا البوغاز وهم =

للفصل الأول من قصة الأمة . وأحسب أنه قلما توجد بين قصص تاريخ الوطنية كقصة مصر فى غرابتها . فلقد استطاعت هذه الأمة قبل استيقاظ الضمير القومى فيها بزمن طويل أن تكون نفسها أمة متحدة فى غنى عن الغير بفضل مطامع رجل مخاطر أجنبى . وانه لمن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه المطامع المنطوية على حب المجازفة عندما بدأت تتجاوز حدود النمو الوطنى الحقيقى ردتها إلى الأرض الثابتة أيدى الملائكة الحراس

= مصممون على القتال بينما الجانب المصرى لم يكن يتوقع حرباً ولا قتالا لذلك فوجىء باطلاق القنابل . زد على ذلك أن القلاع لم تطلق مدافعها بل تركت أسطول الحلفاء يدخل الى البوغاز دون أن تتعرض له لأن القوم كما قلنا لم يتوقعوا قتالا .

وعلى كل فلم تمض برهة على دخول أسطول الحلفاء الى البوغاز ومحاصرته السفن المصرية التركية فى مكان ضيق حتى بدأ القتال ودارت رحاه بمنتهى الشدة وتجاوب الاسطولان الضرب فغدا المرفأ كأنه قطعة من الجحيم . ولم تكن تسمع إلا قصف المدافع أو دوى انفجار السفن التى كانت تنسفها قنابل الحلفاء . واستبسل الجانب المصرى التركى ولم يسلم سفينة واحدة بل آثر الهلاك على التسليم للعدو . وكانت الموقعة قد بدأت فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر فلم تحن الساعة الخامسة حتى كان قد قضى على العمارة المصرية التركية وهلك معظمها نسفاً وغرقاً وجنح الباقى على السواحل وأحرق البحارة أغلبها حتى لا تقع فى أيدى العدو . وبلغ عدد القتلى المصريين والترك ٣٠٠٠ فى حين أن خسائر الحلفاء لم تزد عن ١٤٠ قتلى و ٣٠٠ من الجرحى .

وليس ريب فى أن موقعة نافارين لهى من المواقع القليلة التى يتمثل فيها الغدر ونقض العهود والمواثيق مجسما . كيف لا وقد وقعت دون اعلان الحرب بين تركيا والدول المتحالفة واغتال الحلفاء العمارة المصرية التركية دون إنذارها وهذا وغيره مما أتاه الحلفاء مناف لأبسط قواعد الحروب المتفق عليها بين الدول المتمدينة .

وقد مر بك أن ابراهيم باشا كان متغيباً عن نافارين فلما بلغه تدمير العمارة المصرية التى أنفق عليها أبوه ما أنفق عاد إلى نافارين وشهد بنفسه أثر الواقعة فحزن لها أشد الحزن وأمر باعداد بعض السفن التى نجت من الكارثة وتعويم بعض ما أغرق وأنفذها إلى الاسكندرية ورأى التزام خطة الدفاع بإخلاء الموره والانتظار فى ثغرى كورون ومودون ريثما تصله أوامر أبيه .

من أمثال القيصر نيقولا والسلطان محمود واللورد بالمرستون . من اجل هذا قبلت مصر محمداً علياً كمنشئها . ويعتبر الاحتفال بمرور مائة عام على توليه الملك أول احتفال عمومي قامت به الامة المصرية نحو منشئها هذا

بين تركيا ومصر بعد الموقعة

وبرغم تدمير العمارة المصرية التركية فان تركيا ظلت ترفض معاهدة لوندرا وطالبت الحلفاء بتعويض عن تدمير أسطولها .

فأعلنت روسيا الحرب عليها واحتلت أدرنه وأرسلت فرنسا حملة الى اليونان لاجلاء الترك والمصريين عنها . وانتهت الحرب الروسية التركية بعقد معاهدة أدرنة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) وبمقتضاها نزلت تركيا على ارادة الدول المتحالفة كما ورد فى معاهدة لوندرا بالاعتراف باستقلال اليونان الداخلى مع ابقاء السيادة العثمانية الاسمية عليها . وحدث بعد ذلك أن اتفقت كلمة الدول على تخويلها الاستقلال التام (٣ فبراير سنة ١٨٣٠)

أما مصر فان محمداً علياً أدرك بثاقب نظره أن ليس من الحكمة استمرار القتال بعد أن فقد عمارته وانقطعت المواصلات بين مصر وجيشها فى الموره وبعد أن أنفذت فرنسا الحملة العسكرية التى عهدت اليها باجلاء المصريين والترك عن اليونان .

وفى هذه الأثناء جاء الاميرال كودرنجتون الى الاسكندرية مصحوباً بعمارته وأنذر بتخريب المدينة أو يرسل محمد على أمراً باستدعاء أبراهيم من الموره . فتوسط فى الأمر قنصل انجلترا الجنرال فى مصر وعقد اتفاق مع الحلفاء على اخلاء الجيش المصرى لبلاد الموره . وقد عاد فعلا فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ بعد حروب منهكة وتضحيات هائلة إستغرقت أربع سنوات كاملة لم تفد مصر منها شيئاً اللهم إلا حسن سمعة جيشها ومقدرة قائده الاكبر ابراهيم باشا صاحب الترجمة .

وليس شك فى أن ابراهيم باشا اكتسب خبرة وأى خبرة فى الحرب اليونانية فقد حارب جيوشاً أوربية يقودها قواد مدربون على النظام الحربى الحديث وتغلب عليهم فى أكثر من موقعة .

من أجل هذا جاء اشتراكه فى الحرب السورية بمثابة الخاتمة السعيدة لبداية مجيدة . وقد تجلت عبقريته وأصبح اسمه مضرب الامثال ومقترناً بأسماء كبار الفاتحين وحسبك

الذى كان بلا ريب فريد عصره وفخر الحكام المصلحين ممن ظهروا فى البلدان المتاخمة لشاطىء البحر المتوسط من مراكش إلى تركيا . وإذا جاز لأحد أن يقول أن الرجل كان من ناحية مغامرا و مستهترا لا يحسب حساب

= أن انتصاراته على تركيا قد أوقعت الدول الأوربية فى أكبر حيرة وجعلتها تضطرب من عواقب انتصارات هذا الفاتح العظيم وخشيت أن تؤدى الى فتح باب المسألة الشرقية قبل الأوان .

ولعل أبرز صفات ابراهيم شجاعته واقدامه وحبه للنظام وصرامته فى تطبيقه ولذلك كنت تراه فى ميدان القتال يعيش عيشة الجندى البسيط فى المأكل والنوم يشارك جنوده السراء والضراء وكثيرا ما كان يقطع المراحل الشاسعة سيرا على الاقدام ليعطيهم مثلا على ضرورة احتمال شدائد الحروب مما جعلهم يتعلقون به ويستميتون فى القتال تحت رايته.

وكان شديد الذكاء صادق الفراسة بعيد النظر فى عواقب الأمور ميالا الى الاقتباس من أسس تقدم الامم الغربية وكان شديد البساطة وهذا بعكس قواد الشرق وأمرائه .

وقد ذكر البارون بوالكونت أنه قابل محمداً علياً قبل مقابلة ابراهيم فى طرسوس عقب انتصاره فى معركة قونية وابرام اتفاق كوتاهيا واستطلع آراء الاثنين السياسية فقال عن ابراهيم إنه « لم تتوافر عنده القوى على تأسيس الممالك كما توافرت عند أبيه ولكنه كان متحلياً بما يكفى من المواهب للمحافظة على كيان الممالك وبقائها . . . وأن ابراهيم حافظ على احترامه وإجلاله لأبيه ولم يداخله الزهو حتى بعد انتصاراته العظيمة إلى حد أنه لم يكن يسمح لنفسه بالتدخين فى حضرته كما أنه كان لا يبرح وهو بعيد عن أبيه يبدى له من الاخلاص والطاعة والاحترام ما اعتاده من قبل » .

وأشار البارون الى الفوارق فى آرائهما فقال أن « محمدا عليا كان يمثل فكرة الحكم المطلق بعكس ابراهيم الذى كان يميل الى الأخذ بالمبادىء الحرة . ثم هناك خلاف جوهرى بينه وبين أبيه فى مسألتين مهمتين : الاولى انه كان غير موافق على نظام الاحتكار الذى اتبعه محمد على فى مصر وسورية مع انه نفذ أوامر أبيه فى هذا الصدد . والمسألة الثانية أن ابراهيم كان يميل إلى احياء القومية العربية كما تشهد بذلك أقواله وأقوال رجال حاشيته وبطانته بعكس محمد على الذى كانت نفسه متشبعة بالفكرة التركية . وكان من رأى ابراهيم أن يجعل أبوه من الامبراطورية التى أسسها دولة عربية بحيث يكون حكامها ورعيتها وجيشها من جنس واحد وأمة واحدة (الأمة المصرية) وأن يعيد إلى القومية =

العواقب فلا يفوتنه الاعتراف من الناحية الأخرى بأنه كان نابليون الشرق وبطل مصر الوطنى ولهذا فان أعماله كما يقول القرآن « تشفع له » .



محمد على باشا على جواده الأبيض المشهور الذى كان يركبه فى الحفلات الرسمية

= العربية وجودها واستقلالها أسوة بلغتها وآدابها وتاريخها » .

ويدلك على تشبعه لهذه الفكرة ما رواه البارون عنه من أنه « كان يقول فى أثناء فتوحاته فى الشام أنه ينوى إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب لهم سواء فى الادارة أم فى الجيش وأن يجعل منهم شعباً مستقلا ويشركهم فى أدارة الشؤون المالية ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه » .

وذكر البارون أن ابراهيم كان يعد نفسه عربياً إلى حد أن أحد جنوده خاطبه بالحرية التى كان ابراهيم يشجع عليها رجاله فقال له « كيف تطعن على الأتراك وأنت منهم؟ » فأجابه ابراهيم فوراً « أنا لست تركياً فانى جئت مصر صبياً ومن ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دما عربياً » .

ذلك هو ابراهيم باشا بطل حروب الاستقلال المصرية الذى فجعت فيه مصر قبل أن تفجع فى أبيه ببضعة أشهر . فسلام عليهما بما شيداه من مجد اثيل أخذت تمتد ظلاله الوارفة فى عهد حفيدهما الأكبر الجالس اليوم على عرش مصر « الملك فؤاد الأول » .

